مكتبة نوبل

١٩٦٩

صامويل بيكيت

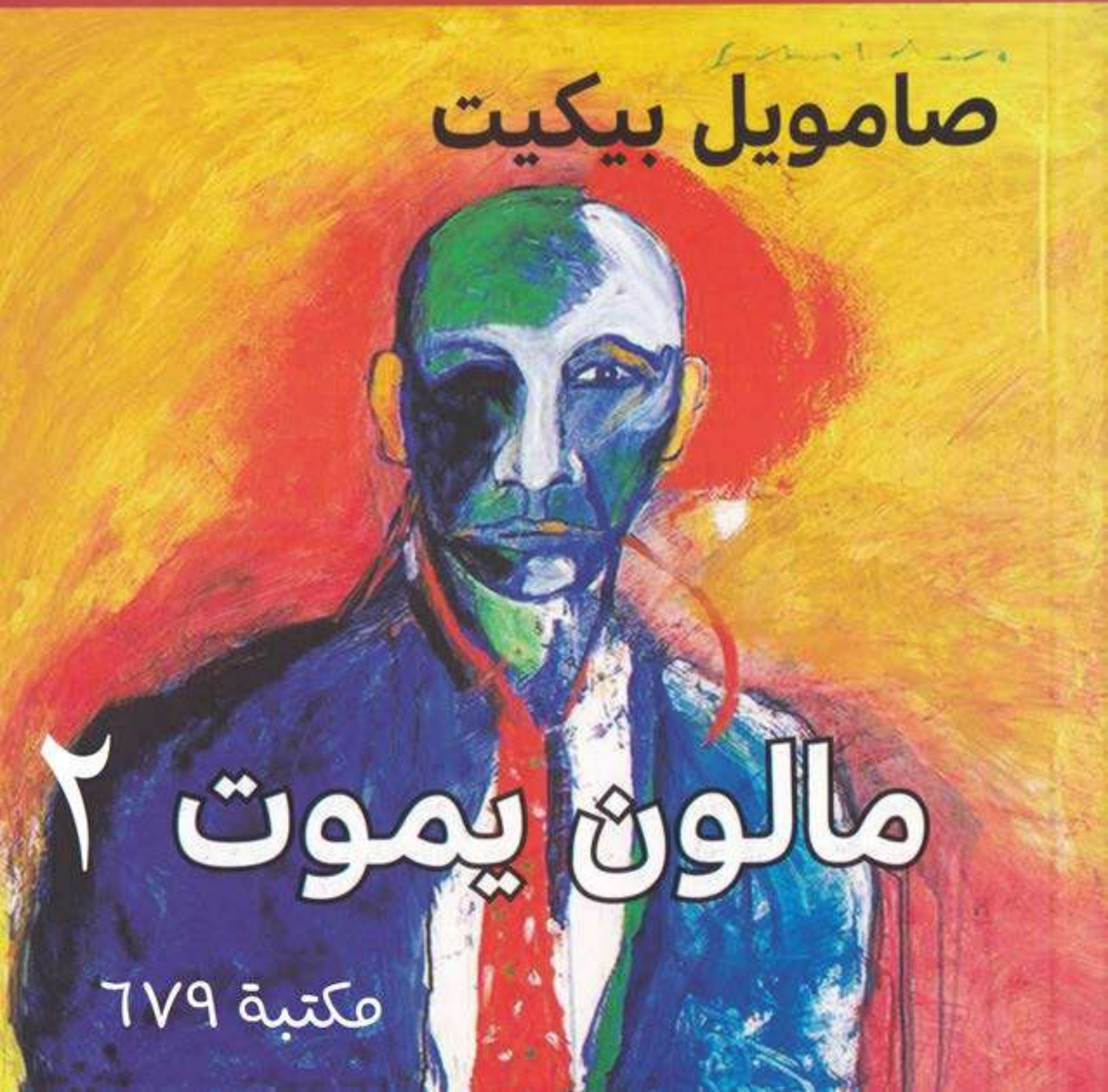

مالون يموت ٢

مكتبة ٦٧٩

مكتبة | 679
سُر مَن قرأ

مالون يموت

روايـــة

Author: **Samuel Beckett** — اسم المؤلف: صامويل بيكيت

Title: **Malone Dies** — عنوان الكتاب: مالون يموت

Translated by: **Hussein Ouja** — ترجمة: حسين عجة

Introduced by: **Muhammad Fatumi** — تقديم: محمد فطومي

Cover Designed by: **Majed Al-Majedy** — تصميم الغلاف: ماجد الماجدي

P.C.: **Al-Mada** — الناشر: دار المدى

First Edition: **2019** — الطبعة الأولى: 2019

جميع الحقوق محفوظة: دار المدى

Copyright © 1951 by les Editions de minuit

للإعلام والثقافة والفنون

Al-mada for media, culture and arts

بغداد: حي أبو نؤاس - محلة 102 - شارع 13 - بناية 141
Iraq/ Baghdad- Abu Nawas-neigh. 102 - 13 Street - Building 141
www.almada-group.com email: info@almada-group.com
+ 964 (0) 770 2799 999
+ 964 (0) 770 8080 800
+ 964 (0) 790 1919 290

بيروت: الحمرا- شارع ليون- بناية منصور- الطابق الأول
dar@almada-group.com
+ 961 706 15017
+ 961 175 2616
+ 961 175 2617

دمشق: شارع كرجية حداد- منفرع من شارع 29 أيار
al-madahouse@net.sy
ص.ب: 8272
+ 963 11 232 2276
+ 963 11 232 2275
+ 963 11 232 2289

All rights reserved. No part of this publication may be reproduced or stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by any means; electronic, mechanical, photocopying, recording or otherwise, without the prior permission in writing of the publisher.
This book is the writer's responsibility, and the opinions contained therein do not necessarily reflect the opinion of the publisher.

لايجوز نشر أي جزء من هذا الكتاب أو تخزين أي مادة بطريقة الاسترجاع، أو نقله، على أي نحو، أو بأي طريقة سواء كانت إلكترونية أو ميكانيكية، أو بالتصوير، أو بالتسجيل أو خلاف ذلك، إلا بموافقة كتابية من الناشر مقدماً.
هذا الكتاب مسؤولية الكاتب، والآراء الواردة فيه لا تعبر بالضرورة عن رأي الناشر.

صامويل بيكيت

مكتبة | 679
سُر مَن قرأ

مالون يموت

ترجمة : حسين عجة

تقديم : محمد فطومي

مقدّمة

هذه الرّوايةُ تُقرَأ - أو لنقل - يجب أن تحدُث لك مرّة واحدة، شأنها شأن الطّفولة وكلّ الوقائع المحكومة بالّلاعودة. كيف لا والرّاوي يتهيّؤ أمامنا للموت أو هو يستعجل قدومه عن طريق ابتداع القصص وروايتها على نفسه، مُتحلّلا تدريجيّا على إيقاع تدهور حالة شخصيّاته. لاغيا نفسه والقارئ معا. رغم ذلك يسود على جوّ القراءة نوع من التّآمر مع الرّاوي والانخراط في لعبته الأخيرة. سِرّه في ذلك شدّك إلى النّهاية عن طريق استفزازك بل وإزعاجك بامتداحه للموت وهو سائر نحوها. كأنّه يلوم البشر على الفكرة السيّئة التي يحملونها عنه. هل هي إذًا ببساطة دعوة لحبّ الموت؟ لا أعتقد أنّ بيكيت قد يكفيه مثل هذا المطبّ لكتابة رواية تراوح بين المرارة والعمق والشعريّة والفكاهة السّوداء المُضحكة (في مناسبات كثيرة). لا ننسى أوّلا أنّنا إزاء الرّواية الثّانية ضمن ثلاثيّة غير مُتّصلة في أحداثها لكنّها مجتمعةً تُشكّل مأزق الإنسان الذي تحالف جسده مع الوجود ضدّه فاستحال قلقا مُجرّدا. الإنسان الذي - بسبب وعيه بمرض الحياة - أصبح يجد سلوى في انتحال الحقيقة.

كان بيكيت في روايته الأولى قد صاغ نصّه على نحو جعل من الإنسان، أو هو جعلنا نشهد كيف أنّ إنسانا قد تحوّل إلى وضع، إلى تشبيه صرف، إلى مرحلة. وها هو في هذه الرّواية غير بعيد عن السّياق الأوّل يضرب لنا مثلا آخر في العذاب الوجودي، ويطرح سؤالا أكثر إحراجا وهو يضيّق الخناق على إنسانه الأوّل مولوي.

من المهمّ قراءة رواية مولوي التي تسبق العمل الذي بين أيدينا؛ أوّلا لتمثّل فكرة العقدة التي تضيق حول عنق الرّاوي وتفاقم عزلته وشلله، ثمّ ثانيا للاستمتاع أكثر بلعبة بيكيت الفنّيّة التي اختار لها أسلوب الشخصيّة التي تُذكّر بأخرى أو هي توحي إليها صراحة حينا وتلميحا خفيّا حينا آخر. في الآن نفسه وهذا يُحسَب للكاتب ولحسن الحظّ، فإنّ قراءة الرّواية الأولى ليست شرطا لا تتحقّق معه فائدة النصّ الحاليّ. ونذكر أنّ نصّ مولوي يتمحور في فكرة : أنت على قيد الحياة مادُمتَ تقصّ. فيما تغيّرت هذه الفكرة جوهريّا مع مالون مستسلمة بدورها إلى لعبة اقتراب الجدران من بعضها إنّ صحّ التّعبير، لتلوح لنا جليّا فكرةٌ لا تتحمّس للحياة كثيرا بل تسخر منها ومن عناصرها، متصالحة مع الموت والانتقال إلى العدم، تتمثّل إجمالا دون الإغراق في التّفاصيل في : أنت تكتب إذًا أنت تُنجِز.

النّاس أعباءُ أنفسهم. منذ ولادتهم حتّى ساعة موتهم وهم يبحثون عن حلول لمشكلة أنّهم موجودون. أمّا الأفكار فشخصيّات مُستقلّة بذاتها. فيها الطيّب والشرّير ، الحيّ والميّت. هذا هو العالم العابث الذي بناه السّاحر الإرلندي هنا. مُتمثّلا أمرين أساسيّين وهو يشيّده: مفهوم الأدب، ثمّ موضوع روايته العجز والموت. أمّا الأولى فهي التي تجعل من العمل الأدبيّ تحفة فنّيّة ستظل العيون تقبل عليها جيلا بعد جيل بغضّ النّظر عمّا وصل إليه التّطوّر العلميّ. وأمّا الثّانية أي موضوع الرّواية فهي الحيرة التي يختصّ بها عمل دون سواه، فلقد مزج بين الموت والعجز وألّف منهما بحرص الفنّان وقلق المُفكّر سيمفونية يظلّ صداها يتردّد في الأذهان بعد انطفاء الشخصيّة وغلق الكتاب في ما يُشبه: لماذا العجز؟

محمد فطومي

مكتبة
t.me/t_pdf

سأكون عمّا قريب ميتاً تماماً في النهاية. ربما في الشهر القادم. سيكون حينئذٍ شهر أبريل أو أيار. لأن السنة لم تتقدّم إلّا قليلاً، ألف إشارة صغيرة تقول لي ذلك. قد أكون على خطأ وأتجاوز عيد القِدِّيس جان Saint-Jean أو حتى الرابع عشر من تموز، عيد الحرية. ماذا أقول، ربما أنا قادرٌ على الذهاب حتى عيد تجلّي المسيح Transfiguration، مثلما أعرف نفسي، أو عيد صعود العذراء Assomption. لكني لا أعتقد ذلك، لا أعتقد بأني خدعتُ نفسي حينما قلت ستكون هذه الأفراح من دوني، هذا العام. أشعرُ بذلك، كنتُ أتمتع به دائماً، وأثق به. لكن ما الذي يجعله مُختلفاً عن غيره من المشاعر التي كانت تخدعني منذ ولادتي؟ كَلّا، هذا النوع من الأسئلة ما عاد يمشي معي، ولم تعد بي حاجة إلى ما هو مُضحك. يمكنني الموت اليوم، إذا ما رغبتُ في ذلك، يكفي أن أدفع قليلاً، لو كنت قادراً على الرغبة، إذا كان في إمكاني الدفع قليلاً. لكنّي أدعُ نفسي تموت، دون تعجيل للأشياء. لا بدّ أن يكون شيءٌ ما قد تغيَّر. لم أعدْ راغباً في الإثقال على الميزان، لا من هذه الجهة ولا من الجهة الثانية. سأكون مُحايداً، ساكناً. سيكون ذلك سهلاً. الشيء الوحيد الذي له أهمّية يكمنُ في الحذر من الطَّفَرات. من جانب آخر، أصبحت أطفر أقلّ من السابق منذ وجودي هنا. ما زالت لديّ بطبيعة الحال حركاتٌ تنمُّ عن نفاد الصبر، من حين إلى آخر. إنّها ما ينبغي عليَّ حماية نفسي ضدّه في الحاضر، ما بين خمسة عشر يوماً وثلاثة أسابيع. دون المبالغة في أيّ شيء، بالتأكيد، وذلك بأنْ أضحك وأبكي بهدوء، بلا إثارة. نعم، سأكون

في الأخير طبيعياً، سوف أتألّم أكثر، ثم أقلّ، ومن من دون استنتاج أيّ شيء منه، كما سأصغي لنفسي أقل، ولن أكون لا حاراً ولا بارداً، سأكون فاتراً، سأموت فاتراً، بلا حماس. لن أنظر لنفسي وهي تموت، فذلك يزيِّف كلّ شيء. لكن هل نظرتُ إلى نفسي حيّاً؟ هل تشكّيتُ يوماً؟ لماذا إذاً عليَّ الفرح، في الوقت الحاضر؟ أنا قانعٌ، أمر مفروغ منه، ولكن ليس إلى حد صفق اليدين. كنتُ راضياً دائماً، عارفاً بأنهم سوف يعوّضونني عن ذلك. إنه هنا الآن، دائني القديم. هل ثَمَّة سبب للاحتفال به؟ لن أرد على الأسئلة بعد. سيتمكنون من دفني، ولن يراني أحد فوق سطح الأرض. من هنا إلى هناك، سأقص على نفسي قصصاً، لو كنتُ قادراً. لكنها لن تكون من نوع قصص الماضي، هذا كلّ ما في الأمر. ستكون قصصاً لا بالجميلة ولا بالقبيحة، هادئة، ولن يكون فيها لا قبح ولا جمال، ولا حمى، ستكون معدومة الحياة تقريباً، كالفنان. ما الذي قلته هنا؟ لا أهمية لذلك. وعدتُ نفسي بالحصول منها على قناعة كبيرة، قناعة بعينها. أنا قانعٌ، هذا هو، تمَّ صنعي، سيعوّضونني، لم تعد بي حاجة إلى أيّ شيء. دعوني أقول لكم أولاً بأني لا أغفر لأحد. أتمنى لكل واحد حياة فظيعة ومن بعدها نيران وثلج الجحيم، وللأجيال المُنحطّة القادمة ذاكرة مُحترمة. يكفي لهذا المساء.

هذه المَرَّة، أعرف إلى أين أنا ذاهب. لم يعد ليل الماضي، السابق ذاك. إنّها لعبة الآن، سألعب. لم أكن أعرف اللعب حتى اليوم. كانت لدي الرغبة، لكني كنتُ أعرف بأنّ ذلك مستحيل. مع ذلك، انخرطتُ فيه، غالباً. أضأتُ كلّ مكان، ونظرتُ جيداً من حولي، ورحتُ ألعب مع ما كنتُ أراه. لا يطلب الناس والأشياء شيئاً آخَرَ غير اللعب، وبعض الحيوانات أيضاً. لقد بدأ ذلك بطريقة طيبة، كانت تقدمُ نحوي، فرحة لأن هناك من يحب اللعب معها. لو كنتُ أقول الآن أنا في حاجة إلى شخص أحدب، لجاء أحدهم مباشرة، فخوراً بحدبته ومن ثم سيلعب

دوره. لم تخطر بباله فكرة أنّي أستطيع أن أطلب منه التعرّي. لكني لم أتأخّر عن العثور على نفسي وحيداً، بلا نور. لهذا تخلّيتُ عن رغبة اللعب وعن تشبُّثي بكل ما لا شكل له أو تعوزه المفاصل، وتعليقها بكل الفرضيات الفارغة، العتمة، والمشي الطويل، اليدان إلى الأمام، المخبأ. تلك هي الجدّيّة التي لم أغادرها منذ ما يقارب القرن. الآن، سيتغيَّر هذا، لم تعد لدي رغبة في عمل أيّ شيء سوى اللعب. كَلّا، لن أشرع في المبالغة. سألعب بالجزء الأكبر من الوقت، من الآن فصاعداً، الجزء الأكبر، لو تمكنت. لكني قد لا أفلح في ذلك هذه المرة أكثر من المرات السابقة. ربما سأجد نفسي منبوذاً كالسابق، من دون ألعاب، ولا ضوء. حينها سألعب وحدي، وسوف أتظاهر بأنّي أرى نفسي. مجرَّد تصوُّر مثل هذا المشروع يشجّعني.

كان عليَّ التفكير طيلة الليلة في كيفية استخدام الوقت. أعتقد بأني سأكون قادراً على سرد أربعة على نفسي، كلّ واحدة منهن عن موضوع مختلف. واحدة عن رجل، وثانية عن امرأة، وثالثة عن شيء ما والأخيرة عن حيوان، عصفور ربما. أظن أني لم أنسَ أيَّ شيء. سيكون ذلك جيداً. وقد أضعُ الرجل والمرأة في القصة ذاتها، إذ هناك فارق ضعيف بين رجل ما وامرأة ما، أعني فارقاً بين رجلي وامرأتي. ربما لن يكون لدي الوقت الكافي لوضع خاتمة لذلك. من جانب آخر، ربما سأنتهي منها بسرعة. وها إنّي ثانية في تناقضاتي القديمة. لكن هل ثَمَّة من تناقضات هنا، حقيقية؟ لا أعرف. ألّا أتمكن من الانتهاء، ليس لهذا من أهمية. لكن إذا ما انتهيت بسرعة مفرطة؟ لا أهمية لذلك أيضاً. لأني سأتحدث عمّا بقي لي من ملكيتي، وهذا مشروع عتيق تماماً. سيكون بمثابة تقديم لائحة بها. وعلى أيّ حال، سأترك هذا إلى اللحظات الأخيرة، لكي أكون متأكداً بأني لم أخدَعْ نفسي. من جانب، سأقوم بذلك بالتأكيد، مهما كلف الأمر. فذلك لا يتطلب مني أكثر من

ربع ساعة. يعني كان بمقدوري التمتُّع بوقتٍ أطول من هذا، لو رغبتُ. لكن إذا عازني الوقت، في اللحظة الأخيرة، فلن أحتاج إلى أكثر من ربع ساعة، لكي أقدم لائحتي. بودِّي من الآن فصاعداً أن أكون دقيقاً، من دون أن أكون مهووساً، وهذا ما هو ضمن مشاريعي. من الواضح أني مُعرَّض للانطفاء فجأة، من لحظة إلى أخرى. ألن يكون من الأفضل إذاً الحديث مباشرة عن ممتلكاتي بلا تأخير؟ ألن يكون ذلك أكثر تواضعاً؟ شرط تأجيل التصحيحات حتى اللحظة الأخيرة، عند الاقتضاء. ذلك ما يحثّني عليه العقل. لكن ليس للعقل اليدُ الطولى عليَّ، في هذه اللحظة. كلّ شيء يتضافر لأجل تشجيعي. لكن أن أموت دون ترك لائحة، هل يمكنني حقاً التخلّي عن هذه الإمكانيّة؟ وها إنّي أبدأ ثانية بالمماحكة. ينبغي الافتراض بأني تخليت، ما دمت سأغامر به. طيلة حياتي أحجمتُ عن وضع هذه الخطّة قائلاً مع نفسي، ما زال الوقت مبكراً تماماً، مبكراً للغاية. طَيِّب، ما زال مبكراً تماماً. حلمتُ طيلة حياتي بلحظة كهذه حيث أتمكَّن، بعد أن أكون قد ثَبَتُّ في الأخير، بالقدر الذي به يستطيع الكائن الثبات قبل خسارته كلّ شي، من سحب السهم وتصفية حسابي. تبدو هذه اللحظة ماثلة. ومع ذلك، لن أفقد برودة دمي. قصصي إذاً في المقام الأول والأخير، إذا جرى كلّ شيء على ما يرام، عن لائحتي. وسأبدأ بالرجل والمرأة، لكيلا أراهما فيما بعد. ستكون القصة الأولى، إذ ما من مادة كافية لقصّتين. لن يكون هناك إذاً سوى ثلاث قصص، في نهاية المطاف، تلك التي أشرت إليها للتو، ومن بعدها قصة الحيوان، تعقبها قصة الشيء، حجارة دون شك. كل ذلك غاية في الوضوح. بعد ذلك، سأتفرّغ لممتلكاتي. إذا بقيتُ بعد ذلك حياً، سأقوم بما هو ضروري، للتأكد بأني لم أخدع نفسي. هذا ما اتّخذت قراراً في شأنه. في السابق لم أكن أعرف إلى أين أذهب، لكني كنتُ أعرف بأني قد أصل، كما كنتُ أعرف بأن ذلك الشوط الأعمى قد يكتمل. أيُّ مُقاربة هذه! يا إلهي. طَيِّب. ينبغي اللعب الآن. يؤلمني التآلف مع هذه الفكرة. الضباب القديم يناديني. ينبغي الآن قول عكس ذلك. لأن هذا الطريق موسوم

بوضوح، أشعر بأني ربما لن أذهب حتى شوطه الأخير. لكن لديّ أملٌ طيّب. أتساءل في قرارة نفسي عمّا إذا كنت على وشك تضييع وقتي في هذه اللحظة أو ربحه. كذلك قررتُ التذكير بشكل مُقتضب بموقفي الحالي، قبل الشروع بقصصي. أعتقد أني على خطأ. هذا ضعفٌ. لكني سأمرره فيَّ. سألعب بكثير من الجرأة فيما بعد. من جانب آخر، سأقوم بهذا مع تقديم لائحتي. الجمالية بالنسبة إليَّ إذاً، وهي في النهاية جمالية ما. ذلك لأنه سيتحتم عليَّ أن أكون جدّياً ثانية، لكي أتمكن من الحديث عن ممتلكاتي. هذا الوقت المتبقي لي إذاً مقسومٌ على خمسة. خمسة ماذا؟ لا أعرف. كلّ شيء يقبل القسمة في حدّ ذاته، أفترض. إذا ما حركتُ رغبتي في التفكير، سأفقد موتي. يجب عليَّ القول إنّ هذا الأفق ينطوي على ما هو جذاب. لكني حذرٌ. أنا أعثر على الجاذبية في كل شيء منذ بضعة أيام. لنعدّ إلى الخمسة. حالياً، ثلاث قصص، واللائحة، هذا كلّ شيء. بعض الوسائط غير مُستثنى. إنّه برنامج. لن أنحرف عنه إلّا بالقدر الذي لا أستطيع فيه غير ذلك. لقد تقرَّر الأمر. أعتقد أني ارتكبت خطأً شنيعاً. لا أهمية لذلك.

في الوضع الحاليّ. تبدو هذه الغرفة لي. لا أعبّر عن نفسي بطريقة أخرى قد أُركَنُ فيها. منذ ذلك الحين. اللّهم إلّا إذا ما شاءت قوة ما غير ذلك. ليس هذا وارداً جدّاً. لماذا ينبغي على القوى التغيُّر من أجلي؟ من الأجدر تبنّي التفسير الأبسط، ولو كان ضعيفاً، حتى وإن لم يعط تفسيراً أكبر. الوضوح الكبير ليس ضرورياً، ضوء ضعيف يمكنه السماح بالعيش ضمن ما هو غريب، ضوء صغير مخلص. ربما ورثتُ غرفة الموت عن الشخص الذي كان فيها قبلي. لن أبحث أبعد من ذلك على أيّ حال. إنّها ليست غرفة في مستشفى أو في معزل مجانين، ذلك ما هو محسوس. أعرتُ أذني لساعات مختلفة من اليوم، من دون أن أسمع أبداً أيَّ شيءٍ يثير الشكّ أو غير معقول، لكن دائماً الضوضاء الهادئة للرّجل الحرّ،

حينما يستيقظ، ينام، أو يُهيِّئ ما يأكله، في ذهابه وإيابه، حينما يضحك أو يبكي، وإلّا لا شيء. وعندما أنظرُ عبر النافذة أرى جيداً، من خلال بعض المؤشرات، بأني لست في أية دار للراحة. كَلّا، إنّها غرفة فرد عادي في بناية عادية كما يبدو. لا أتذكر كيف وصلت إلى هناك. في عربة إسعاف ربما، في سيارة ما بالتأكيد. وجدتُ نفسي هناك في يوم ما، في السرير. لا شك في أنّي فقدت وعيي في مكان ما، وأنهل بالضرورة من التصدُّعات القائمة في ذكرياتي، والتي لا تعاود نشاطَها إلّا عندما أستيقظ هنا. أمّا فيما يتعلّق بالوقائع التي أدَّت إلى التخشُّب، والتي لم أكن في حينها معدوم الإحساس حيالها، فلم يبقَ منها أيُّ شيء، في رأسي، يمكن فهمه. لكن منْ لم يعانِ من نسيان كهذا؟ تشهد على ذلك أيام الثّمل اللاحقة. تلك الحوادث، كنت أسلّي نفسي أحياناً بإبداعها. لكن دون الوصول إلى التسلية الحقيقية. كذلك لم أتوصل إلى دقّة أكبر، لكي أجعل منها نقطة انطلاق، وإنما للذكرى الأخيرة قبل أن أكون هنا. لكن في نهاية اليوم لا أتذكر أين كنتُ ولا فيمَ كنتُ أفكر. ما الذي كان بمقدوري إذاً تذكُّره، أيّ واسطة؟ كنتُ أتذكَّر مناخاً ما. عنفواني كان أكثر تنوعاً، كما كانت تبدو لي. حينها لم أكن أعرف جيداً بعد كيفيّة تدبير حالي. عشتُ فيما يشبه الغيبوبة. كان فقدان الوعي، بالنسبة إليَّ، فقدان شيء ضئيل. لكن ربما ضربني أحدهم على رأسي، في غابة ما، نعم، عندما أقول الآن غابة أتذكر الغابة بغموض. كلّ هذا من الماضي. الحاضر هو ما ينبغي عليَّ بناؤه، قبل أن يأخذوا ثأرهم. إنّها غرفة عادية. لم أعرف غرفاً كثيرة، لكن هذه تبدو لي عادية. في العمق، لو لم أشعر بأني أموت، سيكون بمقدوري الاعتقاد بأني كنتُ ميتاً سلفاً، على وشك دفع الفدية أو في إحدى بيوت السماء. لكني أشعر في الأخير بأنَّ الوقت محسوبٌ عليَّ. بالإضافة إلى ذلك لدي انطباعٌ بأني نزلتُ إلى القبر قبل ستة أشهر فقط. لو كان أحدُهم قال لي من قبل بأني سأشعر بالحياة بهذه الطريقة، لكان في إمكاني الابتسام. أتذكَّرُ جيداً تلك الأيام الأخيرة، لأنها تركتْ في داخلي ذكريات أكثر من الثلاثين ألف ذكرى التي سبقتها. العكس، كان

في إمكانه أن يكون أقلّ إدهاشاً. عندما سأنتهي من وضع لائحتي، وإذا لم يكن موتاً جاهزاً بعد، سأكتب يومياتي. طيِّب، لقد قلتُ نكتة. حسناً، حسناً. ثَمَّة خزانة لم ألقِ نظرةً أبداً في داخلها. ممتلكاتي في زاويةٍ ما، كيفما شاءت. يمكنني تحريكها بطرف عصاي الطويلة وجعلها تصلني، ثم دفعها إلى مكانها. سريري بالقرب من النافذة. أبقى أغلب الوقت أنظر إليها. أرى السطوح والسماء، ونهاية الشارع أيضاً لو بذلت جهداً. لا أرى لا حقولاً ولا جبالاً. مع أنها قريبة. في نهاية المطاف ما الذي أعرفه عنها؟ كذلك لا أرى البحر، لكني أسمعه عندما يمتلئ. لا أستطيع رؤية إلّا ما هو في داخل إحدى غرف الدار المقابلة. تحدثُ هناك أحياناً أشياء غريبة. قد يتعلق الأمر بأفراد غير عاديّين. هم أيضاً يمكنهم رؤيتي، فشَعر رأسي الضخم ينتصب كلّه مقابل الواجهة الزجاجية. لم يكن لدي أبداً مثل هذه الكمية من الشَّعر التي لدي في الوقت الحاضر، ولا أكثر طولاً، أقول هذا من دون أن أخشى التناقض مع نفسي. لكنهم في الليل لا يرونني، لأني لا أوقد المصابيح أبداً. اهتممت قليلاً بالنجوم هنا. لكني لم أفلح في العثور على نفسي فيها. وحين أنظر إليهم في الليل، أرى نفسي بغتةً في لندن. هل من المعقول أن أكون قد دُفعتُ حتى لندن؟ ما العلاقة بين تلك النجوم في هذه المدينة؟ على العكس من ذلك، أصبحت مُتآلفاً مع القمر. صرت أعرف جيداً الآن تحولات وجهه ومداره، أعرف تقريباً الساعات التي يمكنني البحث فيها عنه والليالي التي لا يعود فيها ثانية. وماذا بعد؟ الغيوم. إنّها ذات تنوعات مختلفة تماماً. وكل أنواع العصافير. إنّها تحطُّ فوق كادر نافذتي تطلب شيئاً من الأكل! هذا مؤثّر. تنقر على الواجهة الزجاجية، بمناقيرها. لم أمنحها شيئاً. لكنّها دائماً تأتي ثانية. إنّهم لا يتركونني هنا وحسب، إنما أيضاً يعتنون بي! إليكم الآن كيف تجري الأمور. الباب موارب، تضعُ يدٌ ما صحناً فوق الطاولة الصغيرة، القائمة هنا لتأدية هذا الغرض، ثم ترفع تلك اليد صحن الأمس، وينغلق الباب ثانية. يعملون كل هذا من أجلي في كل الأيام، ومن المحتمل في الساعة نفسها. حينما أرغب في الأكل، أعلّق تلك الطاولة

بعصاي وأجلبها نحوي. لها عجلات صغيرة، تدور حولي بضجة صارت تطلقها كيفما شاءت. وحينما أنتهي من حاجتي بها أرسلها قرب الباب. كانوا يعطونني عصيدة. إذ لا بد أنهم يعرفون بأنّي فقدتُ أسناني. أكلتُها مرّة على اثنتين، أو مرّة واحدة على ثلاث، كمعدَّل. في اللّيل عندما يمتلئ الإناء الذي أتبوّل فيه، أضعه على الطاولة بجانب الصحن. حينها أبقى مدة أربع وعشرين ساعة من دون إناء التبوُّل. كَلّا، لديَّ وعاءان. كلّ شيء كان محسوباً. أنا عارٍ في سريري، تحت الأغطية التي أزيد أو أنقص من عددها وفقاً للفصول. لم أشعرْ أبداً بالدفء، ولا بالبرودة أيضاً. أنا لا أغتسل، لكنّي لا أتّسخ أيضاً. إذا شعرت بأني قذر في مكان ما أحكُّ ذلك المكان بظفرٍ مبلَّلٍ باللّعاب. الجوهري يكمنُ في تغذية المرء لنفسه، ومن ثم التخلّص من الطّعام، إذا كان الأمر يهمّه. إناء التبول، القصعة، تلك هي الأقطاب. في البدء كانت الأشياء تحدث بطريقة مغايرة. كانت المرأة تدخل إلى غرفتي، وتنشغل بما هو حولي، تتحقّق من احتياجاتي، ومطالبي. جعلتها تفهم في الأخير ما هي، حاجاتي ومطالبي. كان أمراً صعباً. لم تكن تدرك. إلى حدّ اليوم الذي اكتشفتُ فيه المفردات المطلوبة، والنبرات، التي تبنيّتُها وفقاً لحالاتها. لا بدّ أن يكون نصف كلّ ذلك مُتخَيّلاً. إنّها هي التي جلبت لي تلك العصا الطويلة. المزودة بعروة. بفضلها أستطيع ضبط كلّ شيء حتى الزوايا الأكثر بعداً في المنزل. كم أنا ممتن للعِصيّ. لقد نسيتُ الضّرب التي أوسعتْني إيّاه. كانت امرأةً عجوز. لا أعرف لِمَ هي طيبة معي. نعم، لنُسَمِّ هذا طيبة، بلا مُناكدة. بطبيعة الحال كان ذلك طيبة بالنسبة إليها. ما زلتُ أعتقد بأنها أكثر شيخوخة مني. كما أنها أقل مُحافظة على نفسها مني، بالرغم من حيويتها. ربما كانت تُشكل جزءاً من الغرفة، بمعنى ما. في هذه الحالة، لن يتطلب الأمر دراسة خاصة. لكنني لا أستثني بأنها تقوم بما تقوم به باسم الإحسان أو بشعور أقل شمولاً من الشفقة أو التعاطف معي. كلّ شيء ممكنٌ، سأكون مؤمناً بذلك في الأخير. لكنّ الافتراض بأنها تعود إليَّ بالمعنى ذاته الذي تعود به إليَّ الغرفة (سيكون أسهل). أنا لا أرى

منها سوى يدَها الهزيلة وطرفاً من كمّها. ولا حتى هذا، ولا حتى. ربما كانت ميتة سلفاً، سبقتني، وقد تكون يدٌ أخرى هي التي تقوم بملء وتنظيف طاولتي الصغيرة. لا أعرف منذ متى وأنا هنا، كان عليَّ قول ذلك. الشيء الوحيد الذي أعرفه هو أني كنتُ قديماً تماماً منذ البدء، قبل العثور على نفسي. أقول لنفسي أنا تسعينيّ، لكني غير قادر على برهنة ذلك. ربما أنا لست سوى خمسينيّ، أو أربعينيّ. منذ زمن بعيد لم أعدْ مُبالياً بالعدّ، أعني عدَّ سنوات عمري. أعرف عام ولادتي، فأنا لم أنسه، لكني لا أعرف أيَّ سنةٍ بلغتُ. بيد أني أظن بأني كنتُ هنا منذ مدّة. لأني أعرف جيداً ما يمكنها فعله ضدّي، وأنا محتم بهذه الجدران، والفصول المُختلفة. لا يتعلّم المرء ذلك في غضون عامٍ أو عامين. بدتْ لي أيّامٌ بكاملها وكأنها رمشةُ حاجب. هل بقي ثَمَّة من شيء لإضافته؟ بضع كلمات عنّي ربّما. جسدي هو ما يطلقون عليه، ربما بنوعٍ من الخفّة، اسمَ العاجز. لم يعدْ قادراً تقريباً على فعل أيّ شيء. أفتقدُ أحياناً قدرتي على سحب نفسي. لكني قليل الميل نحو الحنين. ذراعاي، إذا ما وضعتُهما في مكان ما، ما زالا قادرَين على ممارسة بعض القوّة، غير أنه يصعب عَليَّ التحكُّم بهما. ربما النواة الحمراء هي ما شحبَ. أرتجف قليلاً، لكن قليلاً وحسب. يُشكل أنين خشب سريري جزءاً من حياتي، ولم أرغب في أن يتوقف، أعني ما كنتُ أرغب في أن يخفّ. تمدّدي على ظهري، أيْ راكعاً، كَلّا، مقلوباً، هو أفضل الوضعيّات لديَّ، التي أكون فيها أقلّ تعظُّماً. أبقى على ظهري، لكن خدّي على المخدّة. ما عليَّ سوى فتح عيني حتى تبدأ من جديد سماءٌ ودخان البشر. أرى وأسمع بطريقة سيّئة للغاية. العرضُ غير مُضاء إلّا عبر الانعكاسات، وأحاسيسي مُسلّطة عليَّ أنا فقط. أخرس، مُعتم وباهت، ما عدْتُ مُتفرّغاً لها. أنا بعيد عن ضوضاء الدم والتنفس، في السرّ. لن أتحدث عن آلامي. حينما أكون غائصاً في أعمق أعماقها لا أشعر بأي شيء. هنا أموت، من دون علم جسدي الغبيّ بذلك. ما نراه، ما نصرخ ونُثار في شأنه ما هو إلّا بقايا. تجهل نفسها. أحياناً في هذا الغموض يَحتدم الفكر، البعيد هو أيضاً عن

أيّ حساب. يبحثُ هو أيضاً عني، كما كان يفعل منذ الأزل، هناك حيث لا أكون. هو أيضاً لا يعرفُ كيف يَهدأ. لقد مَلَلتُ منه. ليمرر على الآخرين حنقه المُنازع للموت. أثناء ذلك الوقت، أكون هادئاً. هكذا يبدو موقفي.

اسم الرجل سابوسكات Saposcat. كاسم أبيه. اسم صغير؟ لا أعرف. لن تكون له حاجة به. المقربون منه يطلقون عليه اسم سابو Sapo. أيُّهما؟ لا أعرف. بضع كلمات عن فتوّته. هذا ضروري.

كان ولَداً سابقاً لسنّه. ضعيف الموهبة بما يتعلق بالدراسات ولا يرى نفعاً بتلك التي كانوا يحاولون تعليمه إيّاها. كان يحضر دروسه وذهنُه في مكانٍ آخر، في الفراغ.

كان يحضر دروسه وذهنه شارد في مكان آخر. لكنه كان يحبّ الحساب. غير أنه لم يكن يحبّ الطريقة التي يُدرِّسونه بها. كان التعامل مع الأرقام الملموسة هو ما يثير اهتمامه. كلّ عملية حساب كانت تبدو له باطلة، إن لم تكن مُقترنة بتحديد طبيعة الوحدة. لقد منحَ نفسه بأكملها، سواء على الصعيد العام أو الخاص، للحساب الذهني. كما كانت الأرقام التي تشتغل في رأسه قد ملأته بالأشكال والألوان.

أيُّ ضجر.

كان أكبر إخوته. وكان والداه فقيرَين ومريضَين. كان يسمعهما أغلب الوقت وهما يتحدّثان عن أفضل ما يمكن عمله من أجل صحّتهما والحصول على أموال أكثر. كان في كل مرة يظلّ مصعوقاً

وهو يسمعهما يتحدثان بمثل تلك الطريقة الغامضة ولم يندهش بأنهما لم يتوصّلا إلى شيء. كان والده بائعاً في أحد المخازن. كما كان يقول لزوجته، سيكون من الضروري عثوري على عمل آخر في المساء وأيام السبت بعد الظهر. ثم يضيف، بصوت ميت، والأحد. كانت زوجته تردُّ عليه دائماً، لكنك لو اشتغلت أكثر فسوف تسقط مريضاً. وكان على السيد سابوسكات الاقتناع بالفعل بأنه سيكون على خطأ، إذا لم يُرِحْ نفسَه في الأحد. وها إنّنا على الأقل أمام شخصين مُكتملين. لكنه لم يكن مُتألماً حدَّ عدم قدرته على الشغل أماسي الأسبوع ويوم السبت بعد الظهر. الشغل لأجل ماذا؟ كانت تردُّ عليه زوجته. لأجل كتابات ربما، كان يردُّ عليها. ومنْ سيعتني بالحديقة؟ قالت زوجته، كانت حياة زوجي سابوسكات مليئة بالمسلّمات، واحدة منها ثبتت الإجرامية العبثية للحديقة بلا زهور، وما بين الحشائش والمداخل سيّئ العناية. وإذا قمت بزراعة الخضروات، قال. إنها تكلف أرخص من شرائها، ردّت عليه. كان سابو يُصغي لتلك النقاشات بإعجاب. لتفكر بسعر الزبالة، قالت أمه. أثناء الصمت الذي تلا ذلك، كان السيد سابوسكات يُفكر، بالحماس ذاته الذي يوليه لكلّ ما يفعله، في غلاء الزبالة التي تمنعه من جعل حياة أسرته تعيش رخاءً أكبر، وكان ينتظر من زوجته اتهام نفسها، بدورها، بأنها لم تسخّر نفسها كليّة لما كان في مقدورها عمله. لكنها تركت نفسها تقتنع بسهولة بأنها لن تستطيع عمل ما هو أكثر من دون أن تُعرِّض أيامها الباقية للخطر. لنفكّرْ بأجور الطبيب، التي ندّخرها، قال السيد سابوسكات. وللصيدلية، قالت زوجته. ولم يبقَ لهما سوى التفكير في البحث عن مكانٍ أكثر تواضعاً. لكننا نعيش سلفاً في مكان ضيق، قال السيد سابوسكات. كما كان مفهوماً ضمنياً بأنه سيضيق أكثر عاماً بعد آخر حتى اليوم الذي يغادر فيه الأولاد البكر، لكي يعوضوا وصول الولادات الجديدة، حينها سينتج نوعٌ من التوازن. بعد ذلك، سيفرغ البيت تدريجياً. وفي النهاية، سيكونان وحدهما، مع ذكرياتهما. حينئذ سيحلّ الوقت الذي عليهما الانتقال فيه إلى مكان آخر. سيصبح

هو متقاعداً، وهي في نهاية قواها. سوف يستأجران كوخاً في الريف، لأنه لا حاجة لهما بعد بالزبالة، وقد يتمكنّان من دفع ثمن الطنابير. أمّا الأطفال، الحسّاسون حيال التضحيات التي قدَّماها من أجلهم، فسيأتون لمساعدتهما. بمثل هذه الطريقة، تنتهي المؤامرات غالباً. وقد يمكن للمرء القول بأن عائلة سابوسكات تستمدّ قوَّتَها على العيش من منظور أهميَّتها. لكنهما أحياناً، قبل بلوغهما إلى هذا الحد، انحنيا على حالة ابنهم البكر. كم له من العمر؟ سأل السيد سابوسكات. قدّمتْ له زوجته المعلومة، إذ كان من المُتَّفَق عليه أن تتدبّر بنفسها هذا الأمر. كانت تخطئ في كلّ مرة. حمّلَ السيد سابوسكات نفسه مسؤولية تصحيح الرقم الخاطئ، إذ كرّره مرّاتٍ عديدة، بصوتٍ خافت مع اللهاث، وكأن الأمر كان مُتعلِّقاً بغلاء المواد الأولية الضرورية للحياة، كلحم المجزرة. في الوقت ذاته كان يَبحَثُ في وجه ابنه على نعومتين حيال ما تعلّمه للتو. هل كان الأمر يتعلق على الأقل بقطعة جميلة منه؟ نظرَ سابو إلى وجه أبيه، حزيناً، مندهشاً، عاطفيّاً وواثقاً بالرغم من ذلك. هل كان يحلم بالهروب من قسوة السنوات، أو من الوقت الذي كان قد استغرقه لأجل أن يصبح ابنه رجلاً مأجوراً؟ أحياناً كان يعبر عن أسفه لرؤية ابنه وهو غير متعجل في أن يكون نافعاً. من الأفضل تهيئة نفسه لامتحاناته، قالت زوجته. انطلاقاً من دافع ما يعاني عقلاهما من اللحاق أحدهما بالآخر. لذا لم يكونا يتناقضان بالمعنى الحَرفيّ للمفردة. لقد استهلكا نفسيهما في الكلام، كما يستهلك سائق القطار نفسه في أغطيته، أو فانوسه تقريباً. وكانا يقولان، لننزل هنا. وبعد أن يكونا قد أشارا إلى ولدهما، كانا يتساءلان بكآبة ما إذا كانت خاصية العقول السامية تتمثل في إخفاق المرء في التحرير وتغطية نفسه بالسفاهة في الشفهي. لم يكتفيا دائماً بتأمل المشهد نفسه بصمت. صحته جيدة على الأقل، قال السيد سابوسكات. ليس إلى هذا الحد، قالت زوجته. لكنه ليس هناك ما يُقلق، ردَّ عليها. في مثل عمره، سيكون ذلك بمثابة الذروة، قالت. لم يكونا يعرفان لماذا كان هو منذوراً لعملٍ حُرّ. كان ذلك أمراً واضحاً في حدّ

ذاته. لذا لم يكن شيئاً متصوراً أن يكون غير مُتلائم معه. كانا يفضّلان رؤيتَه طبيباً. سيتكلّف بالعناية بنا، حين نصبح شائخَين، قالت السيدة سابوسكات. وردَّ زوجها، أنا أراه جرّاحاً بالأحرى، كما لو أنّه انطلاقاً من عمر معين يصبح الناس غير خاضعين لعملية.

أيّ ضجر. وأسمّي هذا لعباً. أتساءل إذا لم يكن الأمر حتى الآن يتعلق بي أنا، بالرغم من احترازاتي. هل سأبقى عاجزاً، حتى النهاية، من الجلوس على كرسيٍّ آخر. أشعر بتكدُّس هذا السواد، وتكوُّم هذه العزلة، اللذان أتعرَّف على نفسي عبرَهُما، وأستدعي ذلك الجهل، الذي كان بمقدوره أن يكون جميلاً، والذي ما هو إلّا جُبنٌ. لم أعد أعرف ما أقول. ليس بهذه الطريقة تلعب الناس. وعمّا قريب، لن يكون في إمكاني القول من أين يخرج، صغيري سابو Sapo، ولا ما يأمله. قد يكون من الأفضل لي وضعُ هذه القصة جانباً والعبور إلى الثانية، وحتى الثالثة، أيْ قصة الحجارة. كَلّا، سيكون الشيء ذاته. ما عليَّ سوى تركيز انتباهي أكثر. سأفكر طويلاً فيما قلته قبل الذهاب إلى أبعد منه. عند كلّ تهديد بالدمار سوف أتوقف، لكي أفحص نفسي كما أنا عليه. بدقة حاولت تلافيه. لكنها بلا شك الوسيلة الوحيدة. بعد حمَّام الطين هذا، سيكون في إمكاني بطريقة أفضل قبول عالم لا أترك فيه أيَّة لطخة. طريقة ما في التفكير. فتحتُ عيني، تطلعت إلَى نفسي مُرتجفاً، بلعتُ عصيدتي، ونظرتُ إلى كومة ممتلكاتي، سوف أوجِّه لجسدي الأوامر القديمة التي أعرف بأنه غير قادر على تنفيذها، سوف أستشير وعيي العاطل، وسأبدّد نزاعي مع الموت لكي أتمكن من عيشه أفضل، بعيداً سلفاً عن العالم الذي شرع بالتراخي في النهاية ومن ثم دعاني إلى المرور.

حاولت التفكير في مطلع قصّتي. هناك أشياء لا أفهمها. بيد أنّ ذلك لا معنى له. ما عليَّ سوى المواصلة.

لم يكن لـــسابو أصدقاء. كَلّا، هذا لا يمشي.

كان سابو بالتأكيد مع رفاقه الصغار، من دون أن يكون محبوباً من جانبهم تماماً. من النادر أن يكون السرطان وحيداً. كان يُلاكم ويُصارع بطريقة جيدة، كما كان خفيفاً في الركض، ويقول بمرح أشياء سيئة عن مدرّسيه ويرد عليهم بسفاهة أيضاً. عندئذ...! وحينما أهلكوه بالأسئلة، صرخ في يوم ما، ما دمتُ قلتُ لكم لا أعرف! كان يمضي معظم وقته في المدرسة بسبب العقوبات والحجوزات، ولا يعود إلى البيت أغلب الوقت إلّا مع حوالي الثامنة مساء. لقد أخضعَ نفسه لفلسفة المُناكدات. لكنه لم يدعُهم يضربونه. في المرّة الأولى حين تقدَّم نحوه أحدُ المعلِّمين، الذي كان على شفا حساسيّته وعقله، رافعاً عصاه الخيزرانيّة، انتزعها من بين يديه وألقى بها عبر النافذة، التي كانت مغلقة، بسبب الشتاء. ثَمَّة ما يدعو إلى إحالة هنا. لكن سابو لم تتمّ إحالته إلى البيت لا في ذلك الوقت ولا بعده. بحثتُ بذهنٍ مرتاح عن الأسباب التي لم يحيلوا بموجبها سابو، لأنه كان يستحقّها. إذ لا أرغب في وجود أقلّ ظلّ ممكن، في تاريخه. الظلّ الصغير، في حدّ ذاته، وفي لحظته، هو لا شيء، لا نفكر فيه، نواصل، ضمن الوضوح ذاته. لكني أعرف ما هو الظل، يتراكم، ويصبح كثيفاً، وفجأة ينفجر ويغرق كلّ شيء.

لم أستطع معرفة لماذا لمْ يحيلوه. سأكون مرغماً على ترك هذا السؤال مُعلَّقاً. أحاول عدم تهنئة نفسي عليه. أبعدت على الفور، ابني سابو، عن ذلك التساهل اللامفهوم، وسأجعله يحيا وكأنه تمَّتْ مُعاقبته وفقاً لاستحقاقاته. لنُشِحْ عن هذه الغيمة الصغيرة، لكنها ستظلُّ نصبَ أعيننا. إنّها لن تغطّي السماء، في غفلةٍ منّا، ولن نرفع فجأةً عيوننا، في عري الريف، وبعيداً عن أيّ ملجأ، لكي نوجّهها نحو سماء بلونِ الحِبر. ذلك ما عزمتُ عليه.

في الرابعة عشرة من عمره كانت صحَّتُه جيّدة، ورديّ البشرة. كانت ارتباطاته متينة، وذلك ما جعل أمَّه تقول إنّه سيصبح في يوم ما أطولَ من أبيه. استنتاجٌ يثير الدهشة. لكن ما كان صادماً فيه هو رأسُه الضّخم المُستدير ذو الشّعر الأشقر، صلب ومنتصب كأنه شعرات فرشاة. لم يتمكَّن حتى معلِّموه من منع أنفسهم من التفكير بأنَّ له رأساً ذكيّاً، وذلك ما جعلهم يعانون من عدم قدرتهم على إقحام أيّ شيء في هذا الرأس. سوف يُدهشنا جميعاً في يوم ما، يقول أبوه، حينما يكون بمزاجٍ رائق. لا بدّ أنْ يكون ثَمَّة شيء ما في دماغ سابو قد شكلّ تلك الفكرة، وجعله قادراً على الاحتفاظ بها، حيال العواصف والقيظ. لكنه لم يكن يتحمَّل نظرةَ ولده وكان يتفادى التقاءها. له عيناك نفساهما، قالت زوجته. مرَّ وقت طويل على السيد سابوسكات قبل أن يجد نفسه وحيداً، لكي ينظر إلى عينيه في المرآة. كانتا بالكاد زرقاوين. أكثر صفاءً، قالت السيدة سابوسكات.

كان سابو يحب الطبيعة، تُثير اهتمامه.

مكتبة
t.me/t_pdf

أيّ بؤس.

كان سابو يحبّ الطبيعة، ويهتم بالحيوانات والنباتات ويرفع عينَيه طواعية نحو السماء، في النهار والليل. لكنه لم يكن يحسن النظر إلى تلك الأشياء، فالنظرات التي كان يُغدقها عليها لم تعلّمه أيَّ شيءٍ عنها. كان يخلط بين العصافير، والأشجار، ولم يوفّق في تمييز الحبوب الزراعية بعضها عن الآخر. كذلك لم يربط ما بين الزعفران والربيع، ولا بين الأقحوان وخلفية الموسم. الشمس، القمر، الكواكب والنجوم، لم تطرح عليه أية مشكلة. هذه الأشياء الغريبة التي يمكن أن تكون جميلة أحياناً، والتي ستحيط به طيلة حياته والتي تغويه أحياناً معرفتها، كان يقبلها

بفرح لحدٍّ يرفض معه فهمَها، كتلك التي نفخناها عبر هذه الدَّمدمةِ، أنت بسيط. لكنه كان يعشق تحليق الباز ويعرف كيف يميّزه عن غيره. كان وهو واقف يتعقّب ذلك الطيران المُتوازن، والانتظار القلق، الأجنحة التي ترتفع لأجل الهبوط المفاجئ، والصعود المُحتدم، المسحور بكل حاجة، التفاخر، الصبر، والعزلة.

لم أتخلَّ بعد. أنهيتُ عصيدتي ودفعتُ الطاولة الصغيرة إلى مكانها قرب الباب. واحدةٌ من نافذتَي المنزل المُقابل أضاءت للتو. أعني بالنافذتين الاثنتين تلكما اللَّتَين أستطيع دائماً رؤيتهما، من دون رفع رأسي عن المخدّة. في الحقيقة لم تكونا نافذتين كاملتين، وإنما واحدة كاملة والأخرى جزءٌ منها وحسب. هذه الأخيرة هي التي أضاءت للتو. لحظة تمكنت من رؤية المرأة التي تذهب وتأتي. ثم سحبت الستائر. حتى يوم غد لن أراها، ربما ظلها من حين إلى آخر. إنّها لا تسحب الستائر دائماً. لم يرجع الرجل بعد. طلبتُ بضع حركات من ساقي، ومن قدمي. أنا أعرفهما جيداً ولذا تمكنت من الإحساس بالجهد الذي تقومان به لأجل طاعتي. لقد عشت معهما في ذلك المجال الضيق من الزمان، الذي حدثت فيه دراما بكاملها، ما بين استلام الرسالة والرد الخائب. حانت ساعة الكلاب الهرمة، التي صفر لها سيدها فجراً وهو يمسك بعصاه، التي ما عادت قادرة على رمي نفسها. حينئذ تبقى في العش، أو في السلة، ومع أنها غير مربوطة، كانت تصغي للخطوات المُتباعدة. الرجل أيضاً كان كئيباً. لكن الهواء العظيم والشمس سرعان ما عوضاه، ولم يعد يفكر في رفيقه القديم، حتى المساء. كانت أنوار بيته ترحب به وجعلته بنبحةٍ ضعيفة يقول: حان الوقت لحقنه بالإبرة. وها إنّكم تحصلون على مقطع جميل. وهذا ما سيكون أفضل في الساعة القادمة. سأنبش قليلاً في أغراضي، ثم أضعها تحت الأغطية. بعد ذلك سيكون الأمر أفضل، بالنسبة إلى سابو، وإلى ذلك الذي يتبعه، ولا يرغب إلّا في متابعته وجعله يقتاده، عبر دروب واضحة وصبورة.

هـدوء سابو وحـالات صمته غير مُعَدّة لأجل الحصول على الإعجاب. في صميم اللّغط، في المدرسة والبيت، بقي ثابتاً في مكانه، واقفاً في الغالب، ينظرُ أمامه بعينيه الجليتين المُثبتتين كعيني النورس. كانوا يتساءلون بينهم وبين أنفسهم بماذا يحلم هكذا، ساعات طوال. كان والده يَفترض بأن اضطرابه ناتج عن يقظة الجنس لديه. في عمر السادسة عشرة كنتُ مثله، قال. في السادسة عشرة كنتَ سلفاً تعيلُ أنفسك، قالت زوجته. هذا صحيح، ردَّ السيد سابوسكات. أمّا معلّموه، فلم يروا بالأحرى في ذلك سوى الفظاظة العادية المحضة. تركَ سابو فكّه يسقط وأخذ بالتنفس من فمه. لم يدرك أحدٌ جيداً لمَ لا يتوافق هذا التعبير مع الأفكار الإيروسيّة. لكن بدقّة كان يفكر في البنات أقلّ من تفكيره في نفسه، حياته هو، وحياته المُقبلة. وذلك ما يستدعي بالفعل سقوط الفك، ولدٌ ثاقب البصر وحسّاس، ويغلق أنفه وقتياً. لكنّي سأمنح نفسي وقفة صغيرة، لكي أكون بمأمن أكبر.

تزعجني عينا النورس اللتان يحظى بهما. تجعلانني أتذكر غرقاً قديماً لسفينة، ما عدت أتذكر إياها. من الواضح كان ذلك حداداً. لكنّي أصبحت وجلاً. أعرف بأن تلك الجمل المقتضبة، التي تبدو وكأنها لا شيء، قادرة، إذا ما تم الاعتراف بها، على إصابة لغة بكاملها بالجرب. لا شيء أكثر واقعية من اللاشيء Rien n'est plus réel que le rien. فهي تخرج من الهوة ولا تكفّ عن ذلك حتى تسحبها إلى هناك. لكن في هذه المرّة أعرف كيف أدافع عن نفسي.

حينها كان نادماً على عدم رغبته في تعلم فنّ التفكير، ومن ثم أخذ يثني إصبعه الثانية والثالثة حتى يضع سبابته على الموضوع من فوق الفعل السمعي، كما كان يرغب في ذلك معلمه للّغة اللاتينية، والكفّ عن سماع أيّ شيء، أو سماعه قليلاً، لأن له علاقة بثرثرة الشكوك،

الرغبات، التخيّلات والمخاوف المهدودة في رأسه. ولو كان يتمتع قليلاً بالقوة والشجاعة لتنصّل منهما أيضاً، وتخلّى عن معرفة الطريقة التي صُنعَ بها وكيف سيتمكّن من العيش، والعيش مغلوباً، بطريقة عمياء، في عالم مخبول، وسط الغرباء.

من تلك التهويمات خرجَ مُتعباً وشاحباً، وهذا ما أكد قولَ والده بأنه كان ضحية تأمّلات شبقيّة. كان عليه ممارسة الرياضة بشكل أكبر، قال. إنّ هذا يتقدّم، ويتقدّم. قالوا لي بأنه كان في إمكانه أن يكون بطلاً رياضياً جيداً، قال السيد سابوسكات، والآن ما عاد يشكل جزءاً من أيّ فريق. دروسه تأخذ منه كلّ وقته، قالت السيدة سابوسكات. وكان دائماً الأخير، قال السيد سابوسكات. إنّه يحب المشي، قالت السيدة سابوسكات، المشي الطويل يمنحه العافية. حينئذ، سخرَ السيد سابوسكات، مُفكراً بالفعل في نفع تلك التجوّلات المعزولة لابنه. وكان يدفع أحياناً بالبلاهة حد القول: ألم يكن من الأفضل لنا تعليمه مهنة يدوية. إزاء ذلك، كان سابو مُعتاداً، أو عند اللزوم، يبتعد، فيما كانت أمه تصرخ: آه يا أدريان Adrien لقد آلمته!

الأمور تتقدّم. لا شيء يبدو لي شبيهاً بهذا الولد العاقل الصبور، الذي يجتهد وحيداً وبشراسة طيلة أعوام لكي يرى بوضوح أكبر ما في داخله، ويتمتع بشراهة حيال كلّ شعاع ضعيف، لكنه محصّن تماماً إزاء أيّ ظل. هذا هو الهواء الخفيف الهزيل الذي كنتُ أحتاجه، بعيداً عن الضباب المسود الذي يقضي عليَّ. لن أدخل هذه النفحة إلّا لكي أعرف منها الساعة. يقود البقاء هنا إلى التحرك قليلاً، قبل غوص وسقوط كوة المركب القديم فوقي للمرة الأخيرة، وقبل وداع تلك المستودعات التي عشت فيها، والموت مع ملجئي. اذهبْ، أيها العاطفي. لكن من هنا حتى ذلك الحين، لدي الوقت لتأمّل الأرض، في هذا الريف الباسل الذي

أحببته دائماً، وبحثت عنه دائماً، لكنه لم يرغب فيَّ. نعم، أنا هادئ الآن، أعرف أنّ اللعبة تمّ ربحها، وضيّعتُ كل الأخريات، بيد أن الأخيرة هي التي يُحسب لها. وسأقول بأنه عمل جيّدٌ لو لم أكن أخشى من مناقضة نفسي. أخشى التناقض مع نفسي! إذا ما تواصل هذا سأكون أنا الخاسر ومعي الألف طريق المؤدية له. وسوف أكون شبيهاً بتعساء الخرافة هؤلاء، المسحوقين تحت أقدام أمنيتهم المُحققة. كما أشعر بتلك الرغبة الغريبة بالتغلب على نفسي، أيْ الرغبة في معرفة ما أفعله، ولماذا، وقوله أيضاً. وهكذا ألامس الهدف الذي حددته لنفسي في عنفواني، والذي حرمني من العيش. في ظلّ غيابي عن الوجود أصل إلى أن أكون واحداً آخر. وهذا ما لا يعوزه الملح.

العُطَل الكبيرة. في الصباح كان يأخذُ دروساً خاصة. ستُلحق بنا الدمار، قالت السيدة سابوسكات. إنّها وظيفة جيدة، ردَّ زوجها. بعد الظهيرة ينطلق، وكتبه تحت ذراعه، بحجة أنه يعملُ أفضل في الهواء الطلق، كَلّا، بلا شرح. عندما يخرج من المدينة يُخبئ كتبه تحت صخرة ويعدو نحو الريف. كان الموسم الذي تبلغ فيه أشغال الفلاحين ذروتها والتي لا يكفي وضوحها البطيء والسخي لكل ما ينبغي القيام به. وغالباً ما كان أحدهم يستغل سطوع القمر ليقوم بجولة أخيرة بين الحقول، البعيدة في غالبها، أو زيارة الإسطبل أو الهواء، أو حتى يجهّز الكمائن ويجعلها جاهزة للفجر القادم. يقتربُ الفجر.

نمت. لكني لم أكن عازماً على النوم. ليس هناك من مكان للنوم في تعاطيَّ مع الوقت. لا أتمسك - ليست لديّ تفسيرات أقدمها. الإغماء شيء جيد للأحياء. كلهم أرهقوني دائماً، ليست هذه هي الكلمة، كنتُ أقتفيهم بعيني وأنا أنوح من الضجر، بعدها أقتلهم، أو أضع نفسي في مكانهم، أو أهرب. ما زلت أشعر بذلك الجنون القديم، غير أني أعرف

بأنه لن يطالني بعد. أوقفُ كلّ شيء وأنتظر. وقفَ سابو على ساق واحدة، وعيناه الغريبتان مغلقتان. الإثارة التي تُضيئه تجمد في ألف موضع عبثي. السحابة الصغيرة التي تمر أمام شمسهم الخالدة ستُعتم الأرض بالقدر الذي أرغب فيه.

أن يعيش المرء ويبدع. أحاول. لا بد أنّي حاولت. يُبدع. ليست هذه هي العبارة. ولا العيش أيضاً. ليس لذلك من أهمية. حاولتُ. أثناء ذهاب وإياب بهيمة الجدية العظيمة في داخلي، مُتنهدةً، هادرةً، مُمَزّقة إيّاي. فعلتُ ذلك. وحدي تماماً أيضاً، وأنا مُختبئ كلّيةً، استعرضتُ ذلك الغرور، وحدي، لساعات، ساكناً، في حالة وقوف غالباً، في وضعية المسحور، نائحاً. هذا هو، النواح. لم أعرف كيف ألعب. كنتُ أدور، أطبقُت يدي، ركضت، صرخت، وأنا أراني خاسراً، وأنا أراني رابحاً، مُثاراً، مُتألمّاً. ثم فجأةً قذفتُ بنفسي على أدوات اللعبة، إذا كان هناك منها، لكي أحطّمها، أو على طفل، حتى يغير سعادته إلى جعير، أو كنت أهرب، وأسرعُ خطاي لأخفي نفسي. كان الكبار يلاحقونني، والعادلون، يقبضون عليَّ ثانية، وكانوا يضربونني، ويدفعونني للدخول من جديد في الحلقة، في الحفل، في الفرح. ذلك لأني كنتُ دائماً ضحية للجدية. ذلك كان مرضي العظيم. ولدتُ جدياً كما يُولَد بعضهم وهم مصابون بالسيفيليس. وبجدية أيضاً حاولت ألّا أكون، ألّا أعيش، لا أن أبدع، أن أفهم نفسي. لكن في كل محاولة جديدة كنت أفقد رأسي، وأتعجّل كأني أتجه نحو الخلاص، من دياجيري، رامياً بنفسي على ركبتي أمام ذلك الذي لا يقدر على العيش ولا يتحمل رؤية هذا المشهد لدى الآخرين. العيش. أتحدث عنه من دون معرفتي ماذا يعني هذا. حاولته من دون معرفة ما كنتُ أحاوله. وربما عشتُ بالرغم من ذلك، من دون معرفته. أتساءل مع نفسي لمَ أتحدث عن كلّ هذا. آه نعم، لكي أتخلّصَ من الضجر. أن يَعيش المرء ويجعل غيره يعيش. ليس هناك من حاجة لمحاكمة الأقوال.

إنّها ليست فارغةً أكثر مما تحرثه. بعد الإخفاق، التعزية، الراحة، أشرع ثانية، في رغبتي بالعيش، وأعيش، أكون الغير، في نفسي وفي الآخرين. كم أن كلّ هذا مُزيَّف. لم ألتقِ أبداً بمن هو مثلي. أبهرج الآن الأكثر عجلة. شرعتُ ثانية. لكن شيئاً فشيئاً بنيّة أخرى. ليس بنيّة النجاح، إنما نيّة الإخفاق. ثَمَّة ظلال هنا. ما كنتُ راغباً في الوصول إليه، بنهوضي أولاً خارج ثقبي، ثم في النور المُسوطِ نحو أطعمة لا تُطال، كان ضمن مثيرات الدوخة، الهجران، السقوط، التغيب، بالعودة إلى الظلام، إلى اللاشيء، إلى الجدية، إلى الدار، إلى ذلك الذي كان ينتظرني دائماً، الذي هو في حاجة دائمة إليَّ، والذي كان يأخذني بين ذراعيه ويقول لي بألّا أرحل بعد، والذي كان يتخلى عن مكانه لي ويسهرُ عليَّ، ويعاني في كلّ مرة أغادره فيها، والذي آلمتُه كثيراً ولمْ أُفرحْه يوماً، والذي لم أرَه أبداً. وها إنّي مُثارٌ من جديد. لا يتعلّق الأمر بي، إنما بشخص آخر، لا يُعادلني وأحاول حسده، ويجعلني على أهبة سرد مغامراته المُسطحة، ولا أعرف كيف. لكني لم أكن أيضاً قادراً على سردي أنا، وكذلك العيش وسرد الآخرين. كيف كان في إمكاني القيام بذلك، إذا لم أجرِّبه أبداً؟ إظهار نفسي الآن، في السهرة التي تسبق التلاشي، وفي الوقت ذاته مع الغريب، بفضل الفضل نفسه، ذلك ما لا يخلو من إثارة ما. ثم العيش، في زمن الإحساس، خلف عينيَّ المغلقتين، تنغلقُ عيونٌ أخرى. أيّة نهاية.

المشي. نقص العلاقات بين الأرياف والمدينة لم تُفلِتْ مِن النباهة الممتازة لذلك الولد. كان قد جمعَ، لهذا الموضوع، الاعتبارات التالية، بعضٌ منها لاحقٌ ربما، وبعضها الآخر بعيد من دون شك، عن الحقيقة.

في بلده وعلى صعيد الغذاء، كان - كَلّا، لا أستطيع.

الفلّاحون. زيارته إلى بيوت الفلاحين. لا أقدر. مضمومة إلى بعضها في الساحة، كان بخطوة غير واثقة ينظر إليها وهي تبتعد، سائلة كاللعاب،

كأن قدمه لم تشعر بالأرض تحتها. غالباً ما كان يتوقف، لكي ينطلق ثانية، توقف مهزوز بعد مرور وقت، في كلّ الاتجاهات غير المتوقعة. كان ثَمَّة ما هو طافٍ في مشيته، ما هو ساكن، بحيث كانت الأرض تبدو كأنها تهزّه. وحينما كان يبدأ ثانية بالتحرك، بعد وقفة، فإنّه يجعل المرءَ يُفكر وكأنه ريشة اقتلعتْها الريح من المكان الذي كانت ترتاح فيه.

حركتُ قليلاً أعمالي، فاصلاً بين بعضها بعضاً وسحبتها نحوي، حتى أراها بشكل أفضل. لم أخدعْ نفسي كثيراً حين ظننت بأني أمتلكها، في رأسي، وتمكني من الحديث عنها، من لحظة إلى أخرى، من دون النظر إليها. غير أني أردت التأكد من ذلك. حسناً فعلت. لأني أعرف الآن بأن صورة الأشياء، التي قبلتها حتى الوقت الحاضر، حتى وإن كانت صحيحة في مجملها، لم تكن كذلك بالتفصيل. لذا لن أترك تلك المناسبة المُتفرِّدة التي تظهرُ فيها الحقيقة كإمكانية، وبالتالي تفرض نفسها تقريباً. أرغب هنا في النهاية أن يُلغى كل شيء تقريباً. أريد أن أكون مُتمكناً، حينما سيأتي اليوم العظيم، الذي أعلن فيه بوضوح وبلا إضافة أيّ شيء أو نسيانه، كلّ ما حمله إليَّ ذلك الانتظار الطويل، وتم التغافل عنه، بالنسبة إلى الخيرات المادية.

أرى إذاً بأني كنتُ قد نسبتُ لنفسي بضعة حاجيات لم أعد أمتلكها، وفقاً لما أراه. هل كانت تدور خلف الأثاث؟ هذا ما سيُدهشني. هل يمكن لحذاء، على سبيل المثال، الدوران خلف الأثاث؟ ومع ذلك، لا أرى سوى فردة حذاء واحدة. وخلف الأثاث؟ حسب ما أعرف، ليس هناك في هذه الغرفة، سوى أثاث واحد يمكنه التدخل بيني وبين ممتلكاتي، أتكلم عن خزانة الملابس. لكنها مُلتصقة للغاية بالجدار، بالجدارين، لأنها واقفة في الزاوية، وكأنها تشكل جزءاً منها. ربما ستقولون لي إنّ جزمتي، لأنها كانت شيئاً يشبه الجزمة، في خزانة الملابس، كانت لديَّ

الفكرة نفسها. لكني زرتها، الخزانة، جزمتي زارتها، فاتحاً الأبواب، المجارير، ونابشاً في كل مكان. لا شيء. والخزانة، بدلاً من انغلاقها على جزمتي، كانت فارغة. كَلّا، تلك الجزمة، لم تعد لديَّ، لا هي ولا حاجات أخرى أقلّ قيمة منها – بينها خاتم من الزنك، أَلَقُه جميل – كنتُ أظن بأني حافظت عليها. في المقابل، لاحظتُ حضور شيئين أو ثلاثة على الأقل، ضمن الكومة، لم أفكر فيها، واحدٌ منها على الأقل، هو مدخنة غليون، والتي لم توقظ أية ذكرى عندي. لا أتذكر أبداً أني دخنت غليون تبغ. أتذكر غليون الصابون عندما كنتُ طفلاً، قبل أن أرميه بعيداً عني، وكنتُ أخرج منه فقاعات مُلوّنة، ليس أكثر من هذا. ليس لذلك أهمية، فهذه المدخنة، مهما يكن المكان الذي جاءت منه، أصبحت لي. العديد من كنوزي تعود لهذا الأصل، سقطت عليَّ من السماء. اكتشفت أيضاً صرّةً ملفوفة بورق صحيفة مُصفر ومفكَّك الخيوط. إنها تذكرني بشيء ما، لكن ما هو؟ قربتها تماماً مني، إلى جانب السرير، لمستها بواسطة الطرف الضخم للعصا، الذي استخدمته كمدقّ، لكن بنعومة. وفهمت يدي، فهمت الرخاوة والخفة، كما أعتقد، أفضل مما لو كانت قد لمستها مباشرة بنفسها، شعرت بها نابضة وراجحة. لم أرغب في فكّها، لا أدري لماذا. دفعتها إلى الزاوية مع البقية. ربما سأتحدث عنها، حينما تحين لحظتها. سأقول، أقصد من هنا، بأنها كانت صرّة صغيرة، رخوة وخفيفة كالريشة، مُضبَّرة بأوراق صحفية. ستكون هذه مُعجزتي، الخاصة بيَّ. ربما هي بحيرة روبيات. أو خصلة شعر.

قلت لنفسي أيضاً من الضروري أن أذهب بسرعة أكبر. الحيوات الحقيقية لا تغفر مبالغة الظرف هذه. فهنا يترصد الشيطان، كما تترصد طيّات البروستات جرثومة السيلان. أنا على عجلة من أمري. من هنا أنبثق في يوم ما، فيما كانت كل الأشياء تبتسم وتلمعُ، التراكم العظيم للغيوم السوداء والمنخفضة، التي لا تُنسى، والتي حملت معها الأزير مرة وإلى

الأبد. موقفي هشّ حقاً. أيّ أشياء جميلة، أشياء مهمة، سأفقدها بسبب الخشية، خشية السقوط في الخطأ القديم، خشية عدم الانتهاء في الوقت المطلوب، خشية التمتع، للمرة الأخيرة، بالموجة الأخيرة للكآبة، العجز والكراهية. الأشكال متنوعة حيث يرتاح الراسخ بلا أيّ شكل. آه، نعم، كنتُ دائماً عرضة للأفكار القويّة، ولا سيّما في مطلع السنة. تشغلني هذه منذ بضع دقائق. يمكنني الأمل بأنه لن يبقى منه شيء، الفكر القوي. ففي النهاية ليس من المهم الانتهاء، كان عليَّ قول ذلك. لا ينطوي فعل التردد في حد ذاته على ما هو مخز على وجه الخصوص. لكن هل يتعلق الأمر بذلك؟ ثَمَّة حظوظ. أرغبُ فقط في أن تتكلم مرتي الأخيرة، وحتى نهاية العيش، إذ يبدو بأني غيرت رأيي. ذلك كلّ ما في الأمر. أنا أفهم نفسي. وإذا غابت عنها الحياة، سأشعر بذلك. لا أرغب إلّا بمعرفة، مَن ذلك الذي كانت بداياته طيبة تماماً؟ بأن موتي وحده هو ما يمنعه من المواصلة، من الظّفر، الفقدان، التمتّع، التألّم، التعفّن والموت، وحتى أنّ الحيّ كان قد انتظر، لكي يموت، أن يكون جسده ميتاً. هذا ما يُسمونه التواضع بالشّروط.

لم يُقرّر جسدي بعد. لكني أظنّ بأن ثقله على الفراش صار أكبر، يعرضُ نفسه ويتسطّح. تنفسي، حين أعثر عليه، يملأ الغرفة بضجيجه، ودون اهتزاز صدري بطريقة أكبر من اهتزاز صدر طفل نائم. أفتحُ عيني وأنظر طويلاً، من دون أن يرمش طرف عيني، كولد صغير، صغير جداً استنطقت الجديد، ثم العتيقة، وسماء الليل. بينها وبيني واجهة الزجاج، المنفوخة، المرمرية من نجس السنين. تألمت طواعية هنا، لكنها بعيدة تماماً. هذا ليس صحيحاً. لا أهمية لذلك، لم تسوّدها نفحتي. إنّها من تلك الليالي التي كان يحبها كاسبار دافيد فريدرش Kaspar David Friedrich، عاصفة وصافية. هذا هو الاسم الذي يحضر في ذهني، وتلك الضمائر. طردتْ السحب، الرثة، المُتشظية بالريح، على خلفية

صافية. لو صبرت قليلاً، لرأيت القمر. لكنني لم أصبر. الآن وقد رأيته أسمع الريح. أغلق عيني فيختلط بأنفاسي. كلمات وصور تدور في رأسي، تنبثق بلا كلل وتتواصل، تتأسس، وتتمزق. لكن ما وراء هذا الصخب، يسود هدوء كبير، واللامبالاة. لا شيء أبداً سيعضّني حقاً فيها. الفراش مَحفور كحوض. أنا مطروح في عمقه، مقبوضاً عليَّ تماماً بين سفحيه. أستدير قليلاً، وأضغط بفمي على المخدة، وأنفي يَسحقُ عليها زُغبي التي أصبحت الآن بيضاء كما أفترض، وأسحب الغطاء من فوق رأسي. أشعرُ، في عمق الجذع، ولا يمكنني أن أكون أكثر دقة، بآلام يبدو أنها جديدة. أعتقد أنها بصورة خاصة في الظهر. وكأنها ملحَّنة موسيقيّاً، حتّى أنّها تطلق نشيداً صغيراً. إنّها تميل إلى الزرقة. أن يكون كلّ هذا قابلاً للتحمل، يا إلهي. رأسي بالمقلوب تقريباً، كعصفور. أباعد ما بين شفتيّ، وتدخل المخدة الآن في فمي، أحسُ بها تحت لساني، تحت لثتي. عندي، عندي J'ai, j'ai. أمصّ. لقد انتهيت من البحث عني. أنا مُختفٍ في الكون، كنتُ متأكداً من عثوري فيه على مكاني يوم ما، الكون العتيق يحرسني، منتصراً. أنا سعيد، كنتُ أعرف بأنّي سأكون في يوم من الأيام سعيداً. لكني لستُ حكيماً. لأن الحكمة، تقتضي أن أغادر الآن، في لحظة السعادة هذه، كما يبدو لي. لكن ما الذي أفعله؟ أستدير ثانية نحو النهار، نحو الحقول التي كثيراً ما تمنّيت حُبَّها، في اتجاه المساء التي تركض فيها غيوم صغيرة بيضاء وخفيفة كالندف، ونحو الحياة التي لم أعرف القبض عليها، عن خطأٍ منّي ربما، بالغرور أو الضآلة، لكني لا أعتقد ذلك. تمرُّ البهائم، تُسخّن الشمس الصخور وتجعلها تلمعُ. نعم، أترك سعادتي، وأنعطف أيضاً في اتجاه البشر، الذين يأتون ويغادرون مع أثقالهم. ربما حكمتُ عليهم بطريقة سيّئة، لكنّي لا أظن هذا. من جانب آخر، لم أحكم عليهم. أرغبُ فقط وللمرة الأخيرة في محاولة فهمهم، أن أخوض في فهم كيف بمقدور كائنات كهذه أن تكون ممكنة. كَلّا، الأمر لا يتعلق بالفهم. بماذا إذاً؟ لا أعرف. لكني سأحاول بالرغم من ذلك. لا يجب عليَّ. الليل، العاصفة، التعاسة، وتخشّب الروح، سأرى

هذه المرّة إلى أيّ حدٍّ يكون فيه كلّ ذلك جيّداً. لم يُقَل كلّ شيء بعد بيني وبينهم، كله قد قيل. ربما أرغب فقط في سماعه يُقال ثانية. مرّةً أخرى صغيرة. ومع ذلك، كَلّا، ليس لدي رغبة في أيّ شيء.

آل لويس Les Louis. آل لويس يُعانون من العيش، أقصد وصلَ الطرفين ببعضهما. كان هناك الرجل، المرأة وطفلين، ولد وبنت. هذا على الأقل لا يقبل أيّ جدال. أُطلقُ على الأب اسم لويس الضخم، وبالفعل كان كذلك. كان قد تزوّج سلفاً عدّة مرّات، قبل أن يقيم، مع بنت عم شابة، في المنزل الذي ما زال يسكن فيه. كان له أولادٌ آخرين في مكان آخر، رجال ونساء غاطسين بقوّة في الحياة، ولم يعودوا يأملون في أيّ شيء، لا من أنفسهم، ولا من الآخرين. كانوا يأتون لمساعدته، كل حسب إمكانيّاته، وفقاً لمزاجه في اللحظة، عرفاناً بالجميل لذلك الذي مع غيره ما كانوا ليروا النور، أو يقولون، هم المُتساهلون، إن لم يكن هو كان في الإمكان أن يكون واحداً آخر. كان لويس الضخم أدرداً بالكامل، كما كان يدخّن سجائره بمَدخن- السيجارة، مع أسفه الكامل على غليونه. كانت سمعته كسيّد وجزّار خنازير طيبة وكان عليه طلب كثير، مطلوب كفاية، في حدّ ذاته، لأنه كان يتقاضى أقلّ من القصّاب وغالباً ما يقنع أنْ يُدفع له مقابل ذلك فخذاً أو قليلاً من جبن الرأس. كلّ هذا يشبه الحقيقة. لأنه كان يحبّ شغله كما كان فخوراً بمعرفته القيام به جيداً، كفنّان، وفقاً للسرّ الذي أسرَّ به إليه والدُه والذي يعتبر نفسه مالكه الأخير. كان غالباً ما يتحدث عن والده برقة واحترام. لن تروا مثلي أحداً، قال، إذا رَحلتُ. كان عليه قول ذلك بطريقة أخرى. الأيام العظيمة للويس كانت مُستحقّة إذاً في شهر ديسمبر وكانون الثاني/ يناير، وانطلاقاً من شباط/ فبراير كان ينتظر بنفاد صبر عودة هذا الموسم، الذي يكمن حدثه الوحيد بما لا يُدحض في الاحتفال بعيد المُخلص Sauveur، في إسطبل، كما كان يتساءل مع نفسه في الوقت ذاته ما إذا كان عليه أن يذهب حتى ذلك الحد. حينئذٍ كان ينطلق، وتحت ذراعيه، في علبتها،

السكاكينُ المشحوذةُ منذ وقت طويل في أمسية البارحة بالقرب من المدفأة، وفي جيبه، ملفوفة بورقة الصدرية المنذورة لحمايته أثناء عمله في أيام الآحاد ويوم العيد. حينما أفكر فيه، لويس الضخم، وهو يمشي على الطريق في اتجاه ذلك الحقل الكبير حيث ينتظرونه، وبأنه بالرغم من تقدم عمره ما زالوا في حاجة إليه، لأنه يستطيع ما لا يستطيعه غيره من الشباب، حينها يغطس قلبه الشائخ في قفصه. من تلك الجولات، كان يعود إلى بيته في الليل المُتأخِّر، سكراناً ومنهكاً من المشي الطويل والانفعال. ومن ثمَّ يظلّ طيلة أيّام لا يتحدَّث عن الخنزير الذي كان قد ذبحه، والذي يمكنني القول عنه بأنه في العالم الآخر، لو لم أكن أعرف بأنّ ليس للخنازير غير هذا العالم، وذلك ما كان يُزعج عائلته بطريقة مرعبة. لكنهم لم يجرؤوا على قول أيّ شيء له، لأنهم كانوا يخشونه. نعم، في ذلك العمر الذي يُنقص عنده أغلب الناس أحجامَهم، وكأنهم يعتذرون لأنهم ما زالوا هنا، كان لويس يخيف الآخرين ويتصرّف كما يحلو له. وحتى زوجته الشابة تخلّتْ عن خفض الصوان له، بالضغط على عضوها، ذلك المَعْلَم المُفضّل لدى الفتيات. لأنها كانت تعرف ما سيفعله إذا امتنعت عن فتحه. حتى أنها ألحَّت على تسهيل المُهمةِ، بوسائل بدتْ له غالباً فادحة. وعند أقلّ إشارة تمرّد منها كان يذهب إلى حوض الغسيل ويأخذ من هناك المدقّ ويضربها إلى أن تطلب التوبة. لنقل بين قوسين. ولكي نعود إلى الخنازير، واصل لويس العناية بخنازيره، في المساء، على ضوء شمعة، من جسد ذلك الذي نَحَرَه للتوّ، وحتّى اليوم الذي يدعونه فيه لنحرٍ آخر. حينئذ يدور نقاشٌ حول هذا الأخير من كل جوانبه، المُختلفة تماماً، ومع ذلك هي ذاتها في العمق. ذلك لأن كلّ الخنازير تتشابه، إذا كان المرء يعرفها جيداً، تقاوم، تصرخ، تنزف، تصرخ، تتقاتل، تجعر ويُغمى عليها بالطريقة ذاتها تقريباً، طريقة خاصة بها ولا يمكن لحَمَل، على سبيل المثال، أو جَدِي استخدامها. لكن انطلاقاً من شهر آذار/ مارس يهدأ لويس الضخم، ويعود ثانيةً إلى صمته. بدءاً من نهاية نوفمبر كانت عائلته تنتظر بفارغ صبر الأسمدة ووضع الفاصوليا في الأرض.

كان الابن، أو الوارث مباشرة له، ولداً أريحياً وله أسنان مُرعبة. إدموند Edmond.

الضّيعة. كانت ضيعة آل لويس في حفرة، فائضة في الشتاء، ومشويّة في الصيف. يصلون إليها عبر بستان جميل. لكن هذا البستان الجميل لا يعود لعائلة لويس، لكن لمزارعين آخرين يقطنون بعيداً عنه. تزدهرُ فيه النرجسيات والنرجس الأصفر ببذخ خارق للعادة، في الموسم المُناسب. كان لويس ينزه حملانه فيه، بتكتم حتى هبوط الليل.

هناك ما يثير الفضول، فإذا كانت للويس مهارة ذبح الخنازير، فإنه يفتقدها عندما يتعلّق الأمر بتربيتها، كما كان من النادر أن يزن أحدُ خنازيرِه أكثر من ستّين كيلوغرام. بانغلاقه في زريبة الخنازير الصغيرة، منذ وصوله، في شهر نسيان/ أبريل، ظلّ هناك حتى يوم وفاته، قبل عيد الميلاد. لأن لويس كان عنيداً في خشيته، بالنسبة إلى خنازيره، مع أنهم كانوا يبرهنون له، في نهاية كل عام، على ما هو عكس ذلك، من آثار هزال التمرين عليها. كما كان يخشى عليها من نور النهار والهواء الطّلق. ففي نهاية المطاف، كان يأخذ خنزيراً ضعيفاً، أعمى وهزيلاً ويضعه في صندوق خلف ظهره، قدماه الصغيرتان مربوطتان، ويذبحه بغضب، لكن من دون تسرع، وقد وبّخه بعضهم بصوت عالٍ على جحوده. لم يكن قادراً أو راغباً في فهم أن الذنب لم يكن ذنب الخنزير، وإنما ذنبه بالذات، هو الذي بالغ في الدّلال. واستمرّ على خطئه.

عالَمٌ ميت، بلا ماء، ولا هواء. تلك هي، ذكرياتك. من بعيد إلى بعيد، في عمق السيرك، كان ظل الحزاز قد تحجر. وليالي بثلاثمائة ساعة. أضواءٌ أغلى، شاحبة، مجدورة، أقل غروراً من الأنوار. وها نحن أمام انتشار الأنوار. كم كان بمقدورها أنْ تدوم، خمس دقائق، عشر دقائق؟

نعم، ليس أكثر، ليس أكثر أبداً. لكنها ما زالت تتوقد منها، شبكتي السماوية. في السابق، كنت أحسب، أحسب حتى ثلاثمائة، أربعمائة، مع أشياء أخرى أيضاً، الأمواج، الأجراس، زقزقة عصافير الفجر، حسبتُ، أو لأجل لا شيء، لأجل الحساب، ثم قسمتُ ذلك على ستين. ذلك ما جعل الوقت يمر، كنتُ أنا الوقت، أكلت الكون. ما عاد الأمر كذلك الآن. يَتغيّر المرء، في الشيخوخة.

في المطبخ القذر، على حافة الأرض المبسوطة، كان مكان سابو، بالقرب من النافذة. كان لويس الضخم وابنه قد تركا الشغل، وقدما لمصافحته، ثم غادرا، وتركاه وحده مع الأم والبنت. لكنهما هما أيضاً لهما ما تفعلانه، تركتاه أيضاً. كان هناك الكثير الذي ينبغي القيام به، مع قليل من الوقت، قليل من الأذرع. المرأة توقفت للحظة، ما بين شوطين من المشي، في وسط أحدهما، رفعتْ ذراعيها صوب السماء لكي تخفضهما ثانيةً بثقل مباشرة، مرغمةً بحكم ثقل حملهما. ثم طَبعتهما، كلّ واحدة من جانبها، بحركات يصعب وصفها ولم تكن دلالتها واضحة تماماً. باعدت بينهما على طرفي خصرها، وسأقول لوحت بهما لو كنتُ ما أزال أجهل بطريقة أفضل عبقرية لغتكم. كان ذلك مُتعلِّقاً بحركة غريبة، غاضبة ومُفكَّكة في آنٍ معاً، ذراع تعصر خرقة، أو قطعة نسيج، عبر النافذة، لكي تُسقط غبارها. يدان مهتزتان، فارغتان ورخوتان، وبسرعة فائقة بحيث بدت وكأن لها أربعٌ وخمسٌ منها في طرف كل ذراع. في الوقت ذاته نطقت بأسئلة ساخطة بلا جواب، من نوع: ما الجدوى؟ تهدَّلَ شعرُها وسقط ثانية حول وجهها. كان شعرُها غزيراً، رمادياً ووسخاً، لأنه لم يكن لديها الوقت لتعتني به، كما كان وجهها شاحباً وهزيلاً كأنه قد حُفِرَ بالهموم والمرارة الناتجة عنها. كانت حنجرتها – كَلّا، فالرّأس هو المهم والأذرع التي تستنجد بها أولاً لتعينها، الذراعان المتقاطعتان، المؤشرتان، والعائدتان بعد ذلك بحزن لتناول الشغل ثانية،

رافعتان الأشياءَ القديمة ثم واضعتان إيّاها في مكانها، تقرّبانها وتبعدانها عن بعضها. لكن ذلك التمثيل الإيمائي والقذف لم يكن تستهدف أحداً. لأنه في كل الأيام ومرات عديدة في اليوم الواحد كان ذلك يَقبضُ عليها، في البيت والحقول. حينها لم تكن لتعبأ بمعرفة ما إذا كانت وحيدة أو لا، ما إذا كان الشيء الذي تقوم به عاجلاً أو بمقدوره الانتظار. لكنها جعلت كلّ شيء يسقط وأخذت بالصراخ والإيماءات، وحيدة من دون شك في العالم وغير مُكترثة بما يدور حولها. ثم صمتت وبقيت لحظة ساكنة، قبل أن تتناول ثانية شغلها الذي تركته أو تقذف بنفسها على عمل آخر. بقي سابو وحيداً، بالقرب من النافذة، وقدحُ حليب الجَّدِي على الطاولة أمامه، مَنسياً. كان الوقت صيفاً. ظلّت الغرفة معتمة بالرغم من أن الباب والنافذة كانا مفتوحين على سعتهما أمام نور الخارج. عبر هذه الفتحات المتباعدة واحدة منها عن الأخرى سال النور، صانعاً مجالاً صغيراً يتألّق، ثم تلاشى، قبل أن ينتشر. لم يكن ذلك شيئاً مؤكّداً، لكنه مؤكد بقدر ديمومة النهار. لم يكن النهار أبداً في ركن من أركان الغرفة كما كان عليه في الخارج، هادئاً متواصلاً بين السماء والأرض. لكنه كان ينفذ من دون كلل، مُقطّعاً ومتجدِّداً بفضل الخارج، كان يدخل من دون انقطاع ويموت هناك، حيث يفترسه الظلّ شيئاً فشيئاً. وما إن يضعف المخزون قليلاً حتى تُظلِم الغرفة أكثر فأكثر، ويصبح كلّ ما فيها غير مرئي. ذلك لأن الظل قد انتصر. وسابو، الذي أدار وجهه نحو الأرض المُتوهجة، التي آذت عينيه، كان خلفه، ومن كل مكان حوله مُحاطاً بذلك الظل الذي لا يمكن اختراقه، وصعدَ حتى وجهه المُضاء. كان أحياناً يستديرُ بغتة نحوها، يعرض نفسه عليها، ويعوم فيها، مع شيء من الراحة. حينئذ يسمعُ بطريقة أفضل ضوضاء الأعمال، للبنت التي صرخت في أعقاب معزاتها، وللأب الذي كان يلعن بغله. لكن في عمق الظل كان الصمت، صمت الغبار والأشياء التي قد لا تتحرك أبداً، لو كان الأمر متعلقاً بها وحدها. وإذا ما استيقظ ولم يَرَ الـ«طق-طاق» وكأنه كان صوت الصمت الذي سيسود هو أيضاً في يوم ما، كالظل. حينها سيكون كلّ شيء صامتاً

ومظلماً وتكون الأمور في مكانها، مرة وإلى الأبد. في الأخير أخرجَ سابو من جيوبه بضعة هدايا بائسة كان يحملها معه، ووضعها فوق الطاولة ثم غادر. لكن يحدث أحياناً، قبل أنّ يُقرر المغادرة، قبل أن يذهب بالأحرى، لأنه لم يكن هناك من قرار، كانت إحدى الدجاجات تستغل فرصة انفتاح الباب، وتدخلُ من ثمَّ إلى الغرفة. ما إن تتخطى العتبة حتّى تتوقف، واحدة من قدميها معلقة في الهواء، ورأسها إلى الخلف، وبؤبؤاها يرمشان، في وضع المراقبة. ثم، حينما تطمئِنّ، تدفع بنفسها إلى الأمام، بخطوات متناغمة، وعنقها كالأكورديون. كانت دجاجة رمادية، ربما هي ذاتها دائماً. كما تمكن سابو في النهاية من معرفتها و - مثلما بدا له - تعرّف عليها في كينونتها. إذا نهض لكي يغادر، فلن تفقد عقلها. لكن يمكن أن يكون هناك العديد منها، كلهنّ رماديات، والبقيّة مُتشابهات للغاية بحيث كانت عين سابو، الشرهة نحو المُتشابهات، لا تعرف كيف تميز بينهن. في بعض الأحيان كانت أخرى تتعقَّبُها، وثالثة أو حتى رابعة، مُختلفة عنها تماماً ومختلفات عن بعضهن كفاية، فيما يتعلّق بالريش والرشاقة. كما كانت الأخيرات أقل شراسة من الرمادية، التي مرَّتْ في المقدمة ولم يحدث أيُّ شيء. لحظة كنّ مُضاءات بقوة، عند المدخل، ثم توقَّفْن أطول فأطول بالقدر الذي كُنَّ يتقدَّمن فيه، حتى تلاشينَ. في البداية كنّ صامتات، خشية فضح بعضهن، ثم شرعن بالحك والمماحكة، بسبب قناعتهن، وجعلن ريشهنّ الضاجّ يسترخي. لكن غالباً ما تأتي الرمادية وحدها، أو واحدة رمادية إذا شئنا، ذلك لأن هذا شيء لا يمكن أبداً أنْ يحدث، مهما كان قلب المرء مطمئناً، مع قليل من الوجع. كما كان كافياً لكي يجد المرء نفسه هناك في اللحظة التي تأتي فيها كلّ الدجاجات راكضات من كلّ حدب وصوب نحو السيد لويس وهو يصرخ pe-titpetipetit (بيه-بتيتيه)! وفي الوقت ذاته كان يقرع على علبة عتيقة بملعقة عتيقة، لكي يعرف إذا لم يكن هناك سوى واحدة رمادية أو العديد منها. لكن في النهاية ما نفع كلّ ذلك بالنسبة إليه؟ لأنه من الجائز تماماً أن تكون هناك عدة دجاجات رماديات، مع

ذلك لا تأتي إلى المطبخ أبداً سوى تلك الرمادية. من جانب آخر، كان من الأجدر تجريب ذلك. لأنه كان من الممكن تماماً ألّا يكون هناك سوى دجاجة رمادية واحدة، حتى في موعد الفطائر. وذلك ما يُعتدّ به. لكن من ناحية أخرى هذا ما لا يمكن أن يصير. لأنه من بين أولئك الذين كانوا يعرفون، بعضهم مات وبعضهم الآخر تم نسيانه. وفي اليوم الذي كان يرغب فيه سابو أن يكون قلبه مطمئناً، كان الوقت متأخراً. حينئذٍ شرعَ بلوم نفسه على عدم فهمه، في الوقت المناسب الذي كان في إمكانه الاستفادة منه، والأهمية التي كان في إمكانه الحصول عليها بفضل جلساته في مطبخ لويس، الذي لم يكن لا في داخله ولا في خارجه تماماً، وحيث كان ينتظر من جديد العثور على نفسه واقفاً ومن ثم الانطلاق، وفي انتظاره لتسجيل ملاحظات عن أشياء كثيرة، بلا ريبة، كما هي لدى ذلك العصفور القلق والمُرمِدِ، المتردّد في ضوء العتبة، بعدها نقّ وحكّ من خلف موقده وحرّك جناحيه الضامرين، ثم جاء أحدهم لطرده بضربات من المكنسة وهو يطلق صرخات عالية، ثم عاد ثانية، بحذر، بخطوات صغيرة متردّدة، كما كان يتوقف غالباً، يصغي، يفتح ويغلق ثانية عينيه الصغيرتين السوداوين، اللامعتين بالرغم من ذلك. وذهبَ سابو، من دون أن يخامره الشك في شيء، إذ كان يظن بأنه شاهدَ أشياء عادية بكل راحته. انحنى لكي يمر من الباب ورأى البئر، بكرمته المعترشة، سلسلته ودلوه، كذلك حزمة من الثياب الرثة المُعلقة، لكي تجفّ في الشمس مُتمايلةً. غادرَ عبر الدرب الضيق الذي كان قد سلكه للمجيء، أيْ على تخوم البستان في ظل الأشجار الضخمة المُحاذية للساقية، التي كان قعرها مكوناً من عقد جذور متشابكة مُعذبة، ومن الأحجار والطين المُتيبّس. هكذا كان يبتعد من دون أن يراه أحد، بالرغم من مشيته الغريبة، توقّفه وحماقاته. أو كانت عائلة لويس تارة، من قريب ومن بعيد، أو بعضها من بعيد وبعضها الآخر من قريب، ومن ثم ينبثق من خلف البياضات ويقتفي الجادة، من دون محاولة الإبقاء عليه أو يطلقون صرخة الوداع خلفه، ودون عتاب نفسه عن تلك المغادرة غير

الودودة ظاهرياً، لأنهم كانوا يعرفون بأنه لا يقوم بذلك عن سوء نيّة. أو إذا لم يكونوا قادرين على منع أنفسهم من التحامل عليه قليلاً، بيد أن ذلك لم يكن سوى عاطفة سرعان ما تلاشت فيما بعد، برؤيتهم للورقة المدعوكة فوق طاولة المطبخ، والتي تحتوي على بضعة نماذج صغيرة من الأقمشة. هذه الهدايا المتواضعة والنافعة، والطريقة المُرهفة للغاية التي قدمها بها، جعلتهم منزوعي السلاح أيضاً وهم يرون قدح حليب المعزة الفارغ نصفه فقط أو الذي لم يُلمَس، منعهم من التفكير في ذلك باعتباره وقاحة، كما كانت تقتضي التقاليد. لكن عندما يفكّرون قليلاً بتروٍّ، لا يفلت رحيل سابو عن ملاحظتهم. لأن أقلّ حركة بالقرب من أراضيهم، وإنْ لم تكن إلّا لعصفور ينشد راحة نفسه لحظة، أو يُحلّق، كانت تجعلهم يرفعون رؤوسهم وعيونهم مفتوحة على سعتها. وحتى على الدرب، المليء بقطع الخشب كان مرئياً على بعد ميل، ولم يكن بمقدور أيّ شيء أن يَنتج من دون علمهم، وكانوا قادرين لا على معرفة الأشخاص الذين مرّوا من هناك والذين قلّصتْهم المسافة إلى حد رأس دبوس وحسب، إنما أيضاً التَنبؤ من أين أتوا، وأين هم ذاهبون ولأجل أيّ هدف حتى. حينئذ يصرخون لأجل نقل الخبر، لأنهم كانوا يعملون في الغالب الواحد بعيداً عن الآخر، أو يرسمون علامات، منتصبة جميعها ومنُعطفة نحو الحدث، لأنه كان حدثاً، قبل أن ينحنوا ثانية في اتجاه الأرض الأمّ. وفي أول استراحة تجمعهم، حول مائدة الأكل أو في مكان آخر، كان كل واحد منهم يقول طريقته في فهم الشيء ويصغي لما يقوله الآخرون عنه. وإذا لم يكونوا منذ البداية على اتفاق في شأن ما رأوا ودلالاته، فسوف يتحدثون بجدية بعضهم إلى الآخر، إلى أن يصلوا، أعني إلى اتفاق حياله، أو يتخلّوا عنه تماماً. لذا كان من الصعب على سابو دسّ نفسه بطريقة غير محسوسة، حتى في ظل الأشجار المحيطة بالساقية، ولنفترض بأنّه كان قادراً على دسّ نفسه، فإنّ حياءه كان يدل على تخبّطه في مستنقع ما. رفعوا كلّهم رؤوسهم، ورأوه يفعل ما يفعل، ثم نظر بعضهم إلى الآخر، قبل أن ينحنوا ثانية على الأرض. وعلى كل

جانب محني نحو الأرض ربما كانت هناك ابتسامة صغيرة تحوم، لكنها لم تكن ابتسامة كاملة حقاً، أو تكشيرة بالأحرى، غير أنها تخلو من الخبث، وربما كان كلّ واحداً منهم يتساءل ما إذا كان الآخر قد أحسّ بالشيء نفسه ويعدُ نفسه بالاطّلاع على ذلك، في أول اجتماع لهم. لكن لا شيء عن سابو الذي ابتعد مُتعثراً، تارة في ظل أشجار الطّبيعة، التي يجهل جنسها، وتارة أخرى في وضوح أعالي البستان، لكثرة ما كانت مشيته غير واثقة، وعن وجه سابو الجدّي دائماً، أو الخالي من التعبير بالأحرى. وحينما كان يتوقّف، فذلك ليس لكي يفكّر برويّة، أو للنّظر إلى حمله بطريقة أفضل، وإنما ببساطة لأن الصوت الذي كان يهمس له بالتقدم قد صمتَ. آنذاك كان بعينيه الشاحبتين يُثبت الأرض دون رؤية جمالها، ولا فائدتها، ولا الزهور الصغيرة الوحشية المُزينة بألف لون مُرهف، براحة وسط الأراضي المحروثة والأعشاب المجنونة. لكن وقفاته تلك كانت قصيرة تماماً، ذلك لأنه ما زال شاباً. وها إنّه ثانية تائهٌ بغتةً في الأرض، مُنتقلاً من الظل إلى الوضوح، من الوضوح إلى الظل، بلا مبالاة.

كنتُ حين أتوقّف، كالسابق، يشرع الضجيج ثانيةً بقوّة غريبة، ضجيج الساعة التي أجد نفسي فيها. لحدّ كان يبدو لي معه كأني عثرتُ ثانية على سمعي في شبابي. حينئذٍ كنتُ، وأنا في سريري، في العتمة، وفي ليالي الزوابع، أجيد تمييز الأشياء، ضمن زعيق الخارج، الأوراق، الأغصان، الجذوع النائحة، العشب، والدار التي تأويني. كانت لكلّ شجرة طريقتها في الصراخ، والدّمدمة وقت الهدوء. لقد أصغيت من بعيد للبوابة الحديدية وهي تضرب ركائزها وتصطدم درفتاها الواحدة بالأخرى، وتتسرّب الرياح عبر الفتحات التي بين قضبانها. حتى الرمل كانت له طريقته في الصراخ. كان الليل الخالي من النفحات بمثابة عاصفة بالنسبة إليَّ، مصنوع ممّا لا يحصى من اللهاث، التي سليتُ نفسي بالتخلص

منها. نعم، لقد سلّيت نفسي كثيراً فيما يُسمى المساء الهادئ، بينما أستلقي هناك. الضجة التي كنتُ أفضّلها لا تنطوي على أيّ شيء نبيل. كانت نباح كلاب، الليل، في أكواخ صغيرة معلقة في خاصرة الجبل، حيث يعيش كسّارو الأحجار، منذ أجيال. وكانت تصِلُني، تصِلُني أنا في دار السهل، الوحشي المُصفَرّ، بالكاد مسموعة، ومنهكة بسرعة. كانت كلاب الوادي تردّ، بأصواتها الضخمة المليئة بالعقّافات، بالفكوك واللعاب. من الجبل أيضاً كانت تصِلُني غبطةٌ أخرى، فرح الأنوار المُنتشرة التي تتولّد عند هبوط الليل، وتتجمّع على شكل لطخات أكثر وضوحاً بالكاد من السماء، وأقل وضوحاً من النجوم والتي يطفئها أقل ظهور للقمر، كانت تنطفئ من تلقاء نفسها ما إن تُضاء. كانت بالكاد أشياء، على حافة الصمت والليل، والتي ستتلاشى عما قريب. هكذا أملك عقلي الآن، براحتي. وأنا واقفٌ أمام نافذتي العالية، منحتُ نفسي كلّها لها، مُنتظراً أنْ ينتهي هذا، أنْ ينتهي فرحي، هناك بعيداً أمامي، فيَّ، متوجّهاً نحو فرحي المحدود. لكن المقصود في الوقت الحاضر ليس حالات البؤس هذه، إنما بالأحرى أذنيَّ، اللّتان خرجتْ منهما كومتان متهوّرتان من الشعر الأصفر ربّما، المصفرّتان من الشمع وعدم العناية بهما أيضاً، وطويلتان حدّ تغطيتهما لشحمتيهما. ألاحظ إذاً، بلا انفعال، بأنهما، منذ بعض الوقت، صارا يسمعان بشكل أفضل كما يبدو. آه، لم أكن أبداً أصمّ جزئياً. لكني منذ زمن طويل أسمع بطريقة مُلتبسة. وها إنّ هذا الشيء يستولي عليَّ ثانية. ما أرغبُ في قوله ربّما يكمن فيما يلي، شيئاً فشيئاً ضوضاء العالم، مهما كان اختلافها، كنتُ أعرفُ كيف أميّزها بعضها عن بعضها الآخر، ربما بحكم كونها مُتماثلة دائماً، قد ذابت بضجة واحدة بحيث لم تعد قادرة أن تكون سوى طنينٍ متواصل. كان الحجم الصوتي المُدرك قد بقي بلا شك هو ذاته، لكني فقدت ملكة تحليله فقط. كانت ضوضاء الطبيعة، والناس وحتى ضوضائي الخاصة قد اختلطت في الهراء المُنفلت نفسه. كفى. سأسند طواعية جزءاً، جزءاً من تعاساتي لتلك الفوضى الصوتية التي لم أكن قادراً لسوء الحظ على رؤيتها باعتبارها حسنةً. عدم حظوظ،

مصنوعة بشكل مُتقن، ليس لدي الوقت لاختيار كلماتي، أنا مُتعجّل، مُتعجّل لوضع نهاية. مع ذلك كَلّا، أنا لست على عجلة من أمري. من المؤكد بأني لن أقول أيّ شيء هذا المساء ما لم يكن مزيَّفاً، أعني بأنّي لا أتردَّد حيال نواياي الحقيقية. فقد كان المساء، أو حتّى الليل، واحدة من الليالي الأشد عتمة ويمكنني تذكرها. أتمتع بذاكرة قصيرة. إصبعي الصغير المطروح فوق الورقة، يتقدم على قلمي الرصاص، ويحذره أثناء سقوطه على السطر. لكن من الاتجاه الآخر، من فوق إلى تحت، سأذهب إلى التخمين. لم تكن لدي رغبة في الكتابة، بيد أني استسلمت لها في النهاية. كان ذلك يهدفُ إلى معرفة أين أنا منها، وما أمرها هي. في البداية لم أكتبْ، كنتُ فقط أقول. ثم كنتُ أنسى ما أقوله. الحد الأدنى من الذاكرة ضروريّ، لكي يحيا المرء حقاً. عائلته، مثلاً، ما عاد قادراً تقريباً على قول أيِّ شيء عنها، لكني هادئ، هذا ما تم تسجيله في مكان ما. تلك هي الوسيلة الوحيدة لمراقبته. لكن فيما يتعلق بي، أنا، لم تكن الحاجة نفسها محسوسة. تاريخي أنا، أجهله أيضاً، أنساه، لكن ليست لي حاجة في التعرف عليه. ومع ذلك أنا أكتب عني، بقلم الرصاص نفسه، في الدفتر ذاته، وعنه. ذلك لأنه لم يعد أنا، كان عليَّ قول هذا من قبل، لكنه واحد آخر قد بدأت حياته بالكاد. من العدالة أن تكون له هو أيضاً تعليقاته اليومية، ذكرياته، عقله، وبأنه يستطيع العثور على ما هو جيد فيما هو سيِّئ، والسيِّئ في الأسوأ، وهكذا سيشيخ بعذوبة على طول الأيام المُتشابهة فيما بينها، ويموت في يوم ما كالآخرين، بشكل قصير وحسب. ذلك هو عذري. لكن لا بد أن تكون هناك أعذار أخرى، ممتازة مثله. نعم، العتمة كاملة. لا أرى أيّ شيء. حتى زجاج النافذة أراه بالكاد، والجدار الذي يُشكل معه تعارضاً مؤثراً للغاية، هناك حيث يتنازل له عن المكان، لحدّ يبدو غالباً كأنه على شفا الهاوية. لكني أسمع ضجة إصبعي الصغير الذي ينزلقُ على الورقة وهذه الأخيرة باختلافها الكبير عن قلم الرصاص الذي يقتفيها. ذلك ما يُدهشني ويجعلني أتساءل ما إذا كان شيء ما قد تغير. من هنا ذلك الطفل الذي كان بمقدوري أنّ أكونه، لم

لا. كما أسمع أيضاً، وها إنّنا في صميم النهاية، الكورس، البعيد كفاية مع بيانوهاته بحيث يصلني. أعرفُ هذا النشيد، لا أعرف من أين، وحين يتقلص، ويُغمى عليه، سيتواصل في داخلي، لكن ببطء أكبر، أو بسرعة أكبر. لأنه عندما تنقله لي الأمواج الهوائية ثانية، يصلني مُتقدِّماً أو متأخِّراً عن نشيدي أنا. كان درساً مُختلطاً، أو أنّي على خطأٍ فاضح. ربما مع الأطفال أيضاً. لدي شعور عبثي بأن امرأة هي التي كانت تقوده. منذ زمن طويل وهو لا ينشد إلّا النشيد ذاته. عليه أنْ يُكرر. إنّه ينتمي سلفاً إلى الماضي، وصدحَ للمرة الأخيرة بصرخة النصر التي قضت عليه. هل كان أسبوع عيد الفصح؟ جسورٌ كأحد أيام عيد الفصح. في حالة التوكيد يكون النشيد الذي سمعته للتو، والذي عن قول الحقيقة لم يهدأ بعد تماماً في داخلي، ألم يكن ببساطة مُهدىً إلى أول من انبعث ثانية من بين الأموات، ذلك الذي خلّصني، قبل أكثر من عشرين قرناً؟ الأول؟ اللّطمة الختامية على الفم تفترض ذلك.

أعتقد أني نمت ثانية. مهما تحسّستُ، لم أعثر على دفتري. لكن قلم الرصاص بقي دائماً في يدي. سيتحتم عليَّ انتظار الفجر. الله يعلم ما الذي سأفعله أثناء ذلك الوقت.

كنتُ قد كتبتُ للتو، أعتقد أني نمت ثانية، إلخ... آمل ألّا أشوه فكري كثيراً. سأضيف الآن السطور القليلة التالية، قبل مغادرتي لنفسي من جديد. لم أعد أغادر نفسي بالشراهة ذاتها التي قمت بها منذ ثمانية أيام، على سبيل المثال. لا بد أنّ هذا قد استغرق أكثر من ثمانية أيام، أكثر من الثمانية أيام التي ذكرتها، سأكون عمّا قريب ميتاً تماماً. لكن لتحذروا. ليس هذا ما قلته، أقسمُ. هذا ما كتبته. هذين الجملتين الأخيرتين، ولّدتا لديَّ شعوراً بأنّي كنتُ قد كتبتهما في مكان ما، أو قلتهما كلمة بكلمة. نعم، سأكون عمّا قريب، إلخ... هذا ما كتبته عندما عرفتُ بأني لم أفهم

ما قلته، في نهاية كلامي، وما بعد، وبالتالي مشروعي في العيش، وجعل الآخرين يعيشون، في النهاية، اللعب في الأخير والموت حيّاً، وأنا أسلك طريق مشاريعي الأخرى. أعتقد أن الفجر لم يتأخر مثلما كنتُ أخشاه. أعتقد بإخلاص في هذا. لكني لم أكن أخشى، لم أعد أخشى شيئاً. إنها حقاً بداية الموسم الجميل. باستدارتي نحو زجاج النافذة، رأيته، شاحباً أمام الفجر الكابي. إنه ليس زجاجاً عادياً، فهو يحمل لي الفجر والغروب. كان الدفتر قد سقط على الأرض. ضيعتُ وقتاً طويلاً في العثور عليه. كان تحت السرير. كيف لأشياء كهذه أن تكون ممكنة؟ وضعتُ وقتاً من أجل الحصول عليه ثانية. لا بدّ أنّي أوصدتهُ بالخطّاف. لم يتمزّق من طرفيه، لكنه في حالة سيئة. إنه دفتر ضخم. لا بدّ أنه كان يكفيني. سأكتبُ من الآن فصاعداً على وجهَيْ الورق. من أين جاءني؟ لا أعرف. وجدته، هكذا، بين أغراضي، في اليوم الذي كنتُ في حاجة إليه. مع علمي بأنه لم يكن لديّ دفتر، نبشتُ في أغراضي على أمل العثور على واحد. لم أكن مُخيباً، ولا مندهشاً. سأحتاج غداً إلى رسالة حبٍّ قديمة، لن أفعلَها بطريقة أخرى. إنها ورقة مُربَّعة. الأوراق الأولى منه كانت مُغطّاة بالأرقام، بالعلامات والأشكال، وجملة من هنا وجملة من هناك. لا بدّ أنْ يكون هذا جزءاً من حسابات تَوقفتْ فجأة، أيْ في وقت مبكر كما يبدو. كأنها تخاذلت. ربما كانت تتعلق بعلم الفلك، أو التنجيم. لم أتطلّع فيها جيداً. رسمتُ خطاً، كَلّا ليس خطاً، كتبت، عمّا قريب سأكون ميتاً تماماً في النهاية، ولم أذهب حتى إلى الصفحة الثانية، التي كانت عذراء. وهكذا أعفيتُ نفسي عن التوقف عند ذلك الدفتر، في اللحظة التي سأقدم فيها قائمة بممتلكاتي. إذ سيكفيني القول كذلك Item، دفتر، وربما سأذكر لونه أيضاً. لكن من هنا حتى ذلك الحين يمكنني إهداره، مرة وإلى الأبد. على العكس من هذا، قلم الرصاص من معارفي القدماء. لا بدّ أنّي حملتُه معي عندما قادوني إلى هنا. له خمسة وجوه. قصير جداً ومُنبّل من جانبيه. إنه فينوس Vénus. آمل أن يؤدي وظيفته. قلت بأني لن أغادر نفسي بالعجلة ذاتها. وذلك ما ينبغي أن يكون ضمن نظام الأشياء، وكلّ ما يحدث لي عليه حَشْرُ نفسه

فيه، إلى الحد الذي يعجز فيه عن فهم ما هو النظام المقصود. ذلك لأني لم أرَ أحداً، لا في داخلي ولا في خارجي. أسلمتُ نفسي للمظاهر، مع اعتقادي بأنها غير مجدية. لم أدخل في التفاصيل. التوقف، الجريان، الصعود ثانية، التوقف، الافتراض، النكران، التأكيد، النكران ثانية. طَيِّب. غادرت نفسي برضاً أقلّ. آمين. انتظرتُ الفجر. لعمل ماذا؟ لا أعرف. ما كان عليَّ عمله. ابتعدت عن زجاج النافذة. تركت آلامي وحدها، وإعاقاتي. في الأخير، بدا لي، للحظة، بأني سأتلقى زيارة!

اقتربت العطل الكبيرة من نهايتها. كما أوشكت اللحظة الحاسمة، التي سيقدمُ فيها سابو تبريراً ما، أو خيبة الآمال الموضوعة عليه. إنه مُهيَّأ كداهية، قال السيد سابوسكات. وزوجته، التي تغلي شفقتها في مراحل الأزمة، صَلَّتْ من أجل نجاحه. راكعةً في المساء، في مطبخها ليلاً، قذفت، لكن بلا ضجة، لأن زوجها قد لا يقبل بذلك، ليتم قبوله! ليتم قبوله! حتى من دون تنويه.

إذا تخطى ذلك الامتحان الهائل، سيكون هناك غيره، في كلّ السنوات، ولمرات عديدة في العام الواحد، خلال خمسة أو ستة أعوام. لكنها بدت لعائلة سابو أقل رعباً من الأول هذا، والذي سيتيح لهم فرصة القول، أو يرفضها، بأنّه يدرس الطب، أو الحقوق. لأنّهم كانوا يثمّنون بأنه ليس هناك سوى احتمال ضئيل بأنْ يُحرَم شابٌّ عاديّ تقريباً، وحتى ذكيّ، بعد أن يكون قد تم قبوله لتعلّم تلك المهن، من ممارستها. لأن لهم شأناً مع الأطباء، والمحامين، كبقية الناس تقريباً.

في يوم ما اشترى السيد سابوسكات قلم حبر، في فترة التخفيضات. واحد من ماركة بلاكبيرد Un Blackbird. سأعطيه إيّاه يوم الامتحان، قال. رفعَ الغطاء الطويل لعلبة الكارتون، وأظهر قلم الحبر لزوجته. لتتركيه في علبته، قال، حين أرادت أخذه بيدها. كان موضوعاً فوق الإعلان،

المطويّ بحيث التقى جانباه في الأعلى. أبعدهما السيد سابوسكات عن بعضهما وقرّبه من عينَي زوجته. لكنها، بدلاً من أن تنظر إلى قلم الحبر، نظرتْ نحو زوجها. أخبرها عن سعره. ربما سيكون من الأفضل، قالتْ، أن تعطيه إياه في أمسية قبل الامتحان، لكي يعتاد عليه. معك حق، قال، لم أفكر في ذلك. أو حتى قبل تلك الأمسية، قالت، حتى يكون لديك الوقت لتغييره، إذا كانت ريشته غير ملائمة. كانت صورة شحرور ما، بمنقاره الأسود والمفتوح على سعته، تشير إلى أنه كان على وشك الغناء، لتجميل الغطاء. أعاد السيد سابوسكات الغطاء إلى مكانه، وهو يبرم بيدي خبير العلبة في ورق من الحرير ومرر فوقها خيطاً هزيلاً من المطّاط. لم يكن راضياً. ريشة متوسطة، قال، هي ما سوف تلائمه.

تم تناول هذا النقاش ثانيةً في الغد. قال السيد سابوسكات، ماذا لو قلنا له بأننا نعيره إياه فقط، كما يمكنه الاحتفاظ به، إذا تم قبوله. حينئذ، عليك أن تقوم بهذا فوراً، قالت السيدة سابوسكات، وإلّا لا فائدة من ذلك. وكردٍّ قدمَ السيد سابوسكات، بعد لحظة من الصمت، أول اعتراضاته، ثم بعد ذلك، بعد صمت ثانٍ، الاعتراض الثاني ثم الثالث. اعترض أولاً على أن ابنه، إذا استلم قلم الحبر مباشرة، سيكون لديه الوقت الكافي لكسره، أو فقدانه، قبل أن يكتب به. بعد ذلك اعترض على أنّ ابنه، إذا استلم قلم الحبر مباشرة، وعلى فرض أنّه لن يكسره أو يفقده، سيكون لديه الوقت الكافي للاعتياد عليه تماماً، والتعرف عن قرب على عيوبه، وذلك بمقارنته بأقلام حبر رفاقه الأكثر حظّاً منه، وبأن امتلاكه له لن يغريه. لم أكن أعرف بأنه من سقط المتاع، قالت السيدة سابوسكات. وضعَ السيد سابوسكات يده فوق غطاء المائدة ونظر نحوها وقتاً طويلاً. ثم طوى منشفته، ونهض وغادر الغرفة. لكن لتنهي أكلك! صرخت زوجته. وحدها أصغت إلى ضجة قدميه، في المدخل، وهي تبتعد، وتقترب، ثم تبتعد، وتقترب ثانية.

في يوم ما وصلَ سابو إلى بيت آل لويس في وقت متأخّر عن المُعتاد. لكن منْ يعرف ما هو الوقت الذي كان مُعتاداً عليه في وصوله؟ ابتعدت الظلال، في الوقت ذاته التي افتقدت فيه ظهورها. اندهش سابو لرؤيته من بعيد، وسط القشّ الطريّ، الرأس الضخم الأحمر والأبيض للأب لويس. كان جسده قد دخلَ في الحفرة التي كان يحفرها لأجل بغله، الذي مات في الليل. خرجَ إدموند من الدار، وهو يمسحُ فمه، وذهب لكي يلتحق بوالده. حينئذ، خرج هذا الأخير من الحفرة ونزل فيها الابن. باقترابه منهما، رأى سابو الجثة، السوداء، للبغل. حينها أصبح كلّ شيء واضحاً لديه. كان البغل مطروحاً على جانبه، وذلك هو العاديّ. كانت ساقاه الأماميتان مُستقيمتين ومُتيبستين. القدمان الخلفيتان ملمومتان على بطنه، الفم نصف مفتوح، والشفتان معقوفتان، أسنانه الضخمة، عيناه الجاحظتان منحته صورة لموت غير عاديّ. ناول إدموند الرفش إلى أبيه، وكذلك المِعزَقة والمجرفة وخرج من الحفرة. أمسكَ واحدٌ منهما الأقدام الأمامية، فيما أمسك الآخر الخلفيّة، وسحبا البغل حتى الحفرة وتركاه يسقط فيها، على ظهره. الساقان الأماميتان انتصبتا في اتجاه السماء، متخطيتين حافة الحفرة قليلاً. جعلهما الأب لويس تنثنيان بضربة من معزقه. أعطى لابنه المعزقة وتوجه نحو الدار. أخذ إدموند بطمر الحفرة. كان سابو ينظر إليه وهو يشتغل. غمره سلام كبير. سلام كبير، هذه مبالغة. مضى ذلك بشكل أفضل. نهاية حياة ما، هذه من التوابل. توقف إدموند، وباستناده على المِعزَقة، ابتسم وهو يلهث. كانت هناك ثغرات كبيرة ورديّة بين قواطعه. كان لويس الضخم يجلس بقرب النافذة، التي كان بمقدوره عبرها مراقبة ابنه. كان يدخّن سيجارة، في غليون تدخين، ويشرب نبيذاً أبيض. جلسَ سابو قبالته، واضعاً إحدى يديه على الطاولة وجبهته فوقها، في اعتقاده أنه كان وحده. ما بين الاثنين دسّ اليد الأخرى وبقي ساكناً. شرعَ لويس في الكلام. يبدو أن مزاجه كان رائقاً. مات البغل، حسب رأيه، من الشيخوخة. في اليوم الذي اشتراه فيه، مرَّ عامان على ذلك، كانوا قادوه بالدقة إلى المسلخ. لذا كان قد خدمه بقدر ما دفع

ثمنه. بعد إنهاء الصفقة، حذَّروه بأنَّ البغل سوف يسقط متيبِّساً في أول عمل يقوم به. غير أنّ السيد لويس يعرف نفسه فيما يتعلّق بالبغال. ما يهمّ في البغل عينه، والباقي لا أهمية له. نظر إذاً على الفور إلى عينيه، عند باب المسلخ، ومن ثم رأى بأنه ما يزال صالحاً للخدمة. وبادله البغل نظرة، في باحة المسلخ. بالقدر الذي كان فيه لويس يتقدم بسرده، بالقدر ذاته كان المسلخ يأخذ أهمية ما تني عن التعاظم. هكذا انتقل محل العقد تدريجياً، من طريق المسلخ إلى أبواب المسلخ ومن هذه حتى الباحة. ولو لبث قليلاً، لكان تخاصم مع القصَّاب في شأن البغل. يمكن القول بأنه كان يتوسلني لكي آخذه، قال لويس. كان جسده كلّه تقريباً مُغطّىً بالجروح، لكن، فيما يتعلّق بالبغال، لا ينبغي على المرء ترك نفسه تتأثر بجروح الشيخوخة. لقد أخبروه بأنه كان سلفاً قد قطع ألف ميل، وبأنه سيهلك قبل وصوله إلى داره. كنتُ أفكّر بسحب ستة أشهر منه، قال لويس، وها إنّي قد حصلت منه على عامين. طيلة حديثه كان يراقب ابنه. وها هما هنا، الواحد مقابل الآخر، في الظلمة، الواحد يتكلّم، والآخر يصغي، وبعيداً، أولهما عما قاله، والثاني عما سمعه، والواحد عن الآخر بعيداً. كومة الأرض كانت على وشك التقلص. في الضوء الضعيف المحاذي للأرض كانت هناك انعكاسات غريبة، متوقِّدة من بعيد إلى أبعد، وكأنها مضيئة من الداخل، في الظلّ المُتعاظم. كان إدموند غالباً ما يتوقف، مُستنداً على المجرفة ويتطلع حوله. المسلخ، قال لويس، ذلك هو المكان الذي أشتري منه بهائمي. ثم أضاف، انظر إلى هذا الكسول. خرجَ وأخذ يعمل ثانية، إلى جانب ابنه. اشتغلا لحظة طويلة سوية، من دون انشغال أحدهما بالآخر، بعدها ترك الابن مجرفته تسقط، استدار وغادر بتأنٍّ، بالمشية المتوازنة الدائريّة نفسها، مارّاً من دون إعاقة من الجهد أو الراحة، وكأنها الرديف الممكن الوحيد لما سيتبعها. لم يعد البغل مرئياً. السطح الذي أمضى حياته بدعسه، لن يراه بعد، مُنهكاً أمام المحراث، أمام عربة العجلتين. وعما قريب سيشتغل لويس الضخم في المكان ذاته، مع بغلٍ آخر، أو مع حصانٍ شائخ، أو مع ثورٍ هرم، كان قد اشتراه من المسلخ،

والذي يسمُّونه أيضاً الجزَّارة، من دون أن تدوّر سكة المحراث الأجساد المُعفَّنة أو تتملَّسَ من العظام الكبيرة التي كانت تكسيها. لأنها لا تجهل ميلان المداخل وصعودها، نحو النور، عكس كلّ ما هو متوقَّع. بدتْ وكأنها أجساد غرقى. أخذَ ذلك بعين الاعتبار وهو يعمّق الحفرة، التي لم يذهب بها بعيداً أكثر من ستّ أقدام في العمق. تقاطع إدموند وأمه بصمت. كانت قد عادت من زيارة جارتها، التي استعارت منها كتيّباً عن العدس لتحضير الحساء. كانت تفكر في الرومانية الجميلة التي وزنتها، وهي تُسائل نفسها ما إذا كانت مضبوطة تماماً. مرَّتْ بسرعة أمامَ زوجها الجالس، من دون أن تخصّه بنظرة، وليس هناك ما يشير إلى أنه، من جانبه، قد رمقها. اللمبة الموضوعة فوق المدخنة، بالقرب من منبِّه الصباح، المُلتصق بدوره بالصليب المُعلَّق بمسمار. كانت هذه الأشياء الثلاثة محشورة بعضها ضد بعضها الآخر، في وسط اللوحة العارية من جهة أخرى. كان المنبه الأكثر انخفاضاً من بين الثلاثة، كان ينبغي بقاؤه في الوسط، وعلى عكس الفانوس والصليب، المتقابلين يمسك المسمار بهذا الأخير مُنتصباً. ظلّت هناك وجبهتها ويداها مستندتان إلى الجدار، في انتظار لحظة إشعال الفتيل. أشعلته في الأخير ووضعت كرة الفانوس الصفراء، المُخترَقة بشرخ كبير يشوِّهها. عندما رأت سابو ظنّتْ لحظةً أنها رأت ابنتها. ثم حلّق فكرها نحو الغائبة. وضعت اللمبة فوق الطاولة، وامّحى الخارج. جلست ووضعت العدس فوق الطاولة وأخذت بفرز حبّاته. بحيث أصبحت هناك طاستان فوق الطاولة، واحدة كبيرة على وشك التقلُّص وواحدة صغيرة على وشك التمدُّد. لكنها بغتةً وبحركةٍ غاضبة خلطتْهما معاً، وبهذا قضت، في أقلّ من لحظة، على شغل ثلاث دقائق. ثم ذهبت للبحث عن طنجرة. إنهم لن يموتوا، قالتْ، ودفعت بطرف يدها بالعدس حتى حافة الطاولة، ومن هناك إلى الطنجرة، كأن الأمر المهمّ هو عدم الموت. غير أنها أنجزت الشغل بطريقة رعناء تماماً، وبكثير من التعجُّل بحيث إنَّ حبَّات العدس التي مرَّت من جانب الطنجرة سقطت على الأرض. بعدها أخذت اللمبة وخرجت، للبحث عن حطب

ربما، أو قطعة من الشحم. عاد الظلام إلى المطبخ، وتقلّص بالتدريج ظلام الخارج، وسابو الملتصقة عيناه بزجاج النافذة، تمكّن في الأخير من تمييز عدد من المواد، المسحوقة تحت ظل لويس الضخم. أن يتوقف المرء وسط شغل واسع ونفعه مشكوك فيه، ذلك ما كان سابو يدركه بشكل واضح. ذلك لأن عدداً كبيراً من الأشغال ينتمي إلى هذا النوع، مهما قيل عن ذلك، ولا ينهيها المرء إلّا بالتخلي عنها. كان بمقدور السيدة لويس مواصلة فرزها حبات العدس حتى الفجر لبلوغ هدفها، ألا وهو فصل حبات العدس بحيث لن يكون هناك خليط، لن تطاله. بيد أنها ستتوقف في النهاية قائلة لنفسها، قمتُ بما استطعتُ القيام به. لكن لحظة التخلّي ستحين، بفضل الحكمة، لكن من دون جعل المرء يفقد شجاعته بصورةٍ يدمّر معها كلّ شيء. لكن ماذا لو كان هدفها، في فرزها للعدس، لا يكمن في فصل كلّ ما هو لا عدس، وإنما الحبات الكبيرة وحسب؟ لا أعرف. إذ هناك أشغالٌ أخرى، في أيام أخرى، يمكن للمرء القول عنها شيئاً ما، من دون خداع نفسه كثيراً. انتهى. مع أني لا أرى أيّة نهاية. عادت، حاملةً اللمبة إلى فوق بعيداً عنها قليلاً، حتى لا تعميها. بيدها الأخرى كانت تحمل أرنباً أبيض، من أطرافه الخلفية. لأنه إذا كان البغل أسود، فالأرانب بيضاء. كانت ميتة، ولم تعد موجودة بعد. هناك أرانب تموت قبل أن يقتلوها، من الرعب وحده. كان لديها من الوقت، أثناء إخراجها من القفص، من أذنها في غالب الوقت، ومن ثم الاستحواذ على الجانب الذي يختارونه، سواء كان ذلك العنق أو الحنجرة. وغالباً ما يتم ضرب ضحية ميتة، من دون معرفة ذلك. لأنهم رأوا للتو الأرنب حيّاً، من وراء القضبان، وسط الحشيش. ثم يُهنّئون أنفسهم بأنهم نجحوا من الضربة الأولى، لأنهم لا يحبّون جعله يتألّم أكثر بلا فائدة، لكن في الحقيقة إنهم يجتهدون لأجل اللّاشيء. ذلك شيءٌ يحدث خاصة في الليل، الفزع يكون أكبر في الليل. بالمقابل، تتمتع الدجاجات بحياة أكثر عناداً، كما يمكن رؤية بعضها يقوم، بعد أن يكون رأسُها قد قطع، بتصلّبات أخيرة قبل أن تخور. الحمامات أيضاً أقلّ خضوعاً للتأثُّر وتُظهِر بعضَ المقاومة،

قبل أن تسقط مُختنقة. لكن لويس زعق، أيتها البهيمة القذرة! صرخ. غير أنَّ سابو كان قد ابتعد، وترك يدَه تلامس الأطراف العليا للعشب المتحرِّك. من بعد لويس بقليل، ومن ثم ابنه، لفت الدخان الذي دخل إلى المطبخ انتباههما. جلسا حول المائدة، الواحد قبالة الآخر، من دون أن ينظر أحدُهما إلى الآخر، كانا ينتظران. لكن الزوجة، الأم، توجهت نحو الباب ونادتْ على ابنتها. ليز Lise! صرخت بكل قواها، عدة مرات. ثم عادت إلى فرنها. كانت قد رأت القمر للتو. بعد لحظة صمت، أعلن لويس، غداً سأنحر غريزيت Grisette. قال ذلك بتعابيرَ أخرى بطبيعة الحال، لكنها تؤدي المعنى نفسه. لكن لا زوجته، ولا ابنه كانا متفقين معه، الأولى لأنها كانت تتمنى موت نوارود Noiraud، والثاني لأن ذبح أيٍّ من السَّخلتَين، سواء أكانت هذه أم تلك، فهذا ما لا يكترث له، سيكون سابقاً لأوانه. لكن لويس الضخم طلب منهما أنْ يَخْرَسَا وذهبَ للبحث عن العُلبة التي تحتوي على سكاكينه. كانت ثلاث ولا تتطلّب سوى إزالة الشحم عنها وشحذها الواحدة بالأخرى قليلاً. غير أنَّ لويس عاد إلى الباب ثانيةً، أصغى، ونادى. من بعيد ردَّ عليه القطيع. إنه يصل، قال. لكنه لم يصل إلّا في وقتٍ متأخِّرٍ تماماً عن ذلك. بعد الانتهاء من العشاء ذهبَ إدموند إلى سريره، لكي يتمكَّن بهدوء من ممارسة العادة السرية قبل وصول أخته، التي تتقاسم معه الغرفة. لا لأنه يتضايق عندما تكون أخته هناك. ولا يزعجها هي ذلك، عندما يكون أخوها هناك. كانا محشورين في مكان ضيق، ولهذا لم تكن بعض أنواع النّعومة ممكنة. انسحب إدموند إذاً، من دون سبب خاص. كان سيقوم عن طيب خاطر بمضاجعة أخته، والأب أيضاً، أعني بأن الأب كان يطيب له مضاجعة ابنته، في فترةٍ كان بمقدوره مضاجعة أخته التي أصبحت بعيدة. لكن شيئاً ما منعهما. من جانب آخر، لا يبدو هذا مُتماسكاً. لكنها كانت ما تزال فتيّة. كان السِّفاح [زنى المحارم – المترجم] في الهواء الطلق إذاً. بيد أن لويس كان الوحيد في العائلة الذي لم يرغبْ في مضاجعة أحد، حينما يراه قادماً بلا مبالاة. خرجت. عندما بقي وحده مع ابنته، كان لويس الضخم يراقبها. كانت جالسة أمام

الفرن، بوضعية مهمومة. طَلَبَ منها أنْ تأكل فشرعتْ بالأكل، ما بقي من الأرنب، ولعقتْ حتى الطنجرة، بملعقة. لكن من الصعب النظر طويلاً إلى مثل هذا الوضعية الراسخة، ولهذا أخذ لويس الضخم فجأةً ينتبه إلى رؤية ابنته في مكان آخر ومشغولة بشيء آخر غير ملعقة الطنجرة إلى فمها، ومن فمها إلى الطنجرة. ومع ذلك، كان بمقدوره أنْ يقسم بأنّ عينيه ظلّتا تُراقبانها. قال، غداً سنذبح غريزيت، ستمسكين بها إذا شئت. لكن عندما لاحظ بأنها ما زالت كئيبة، لحدٍّ كانت فيه وجنتاها مغطاتَين بالدموع، اقتربَ منها.

أيّ ضجر. وإذا مررت إلى الحجارة؟ كَلّا، سيكون الشيء نفسه. آل لويس، عائلة لويس، المقصود عائلة لويس. كَلّا، ليس بالخصوص. لكن أثناء هذا الوقت، الآخر يضيع. أين أصبحت، مشاريعي، إذ كانت لدي قبل قليل مشاريعي. وربما لديَّ منها ما يكفي لعشر سنوات. سأواصل قليلاً بالرغم من ذلك، وأنا أفكر في شيء آخر، لا يمكنني البقاء هنا. سمعني من بعيد، العقل بعيد، أتحدث عن لويس، أتحدّث عنّي، العقل تائه، بعيداً عن هنا، وسط الحطامات.

حينئذٍ لم يكن في المطبخ سوى السيدة لويس. جلست بالقرب من النّافذة ثم خفضت ذبالة الفانوس، كما كانت تفعل دائماً قبل النفخ عليها، لأنها لم تكن ترغب في النفخ على فانوسٍ ما زال ساخناً. حين كانت تحكم بأنّ زجاجة الفانوس وكُرَتَهُ قد بردتا، تنهض وتنفخ عليهما. بقيتْ للحظةٍ مُتردِّدَة، ويداها مُستندتان إلى الطاولة، قبل أن تعود وتجلس ثانية. بانتهاء نهار عملها ينهض نهارٌ آخرُ من فوق أيام عمل أخرى، من داخلها، أيام الحياة المضغوطة بحماقة، والآلام المُثابرة. حينما تكون جالسة، أو عندما تذهب وتعود، تتحمّلها أفضل مما لو كانت ممدَّدة. من عمق هذا التعب الذي لا نهاية له لَمْ تكفّ عن التمنّي، نهاراً وليلاً،

ليلاً ونهاراً، والليل والنهار معاً، مع الفزع، برؤية ذلك النور الذي قيلَ لها بأنها لن تتمكّن من تصوُّره، ذلك لأنه لم يكن نوراً بالمعنى الحَرفِيّ للّفظ. أمّا ذلك الذي كانت تتصوّره، لأنها مُعتادة عليه، كانت تنتظر في غالب الوقت عودته إلى المطبخ، ولا سيما في الصيف، بعد أن تكون قد نامت قليلاً، أو جلست باستقامة على كرسيها، أو أراحت رأسها من فوق الطاولة، بطريقة غير مريحة، لكنّها أقلّ ألماً مما لو كانت في سريرها. غالباً ما كانت تقوم، ثم تمشي في الغرفة، أو تخرج وتقوم بدورة حول الكوخ القديم. صارت على هذه الحالة منذ خمسة أو ستة أعوام. لديَّ مرضُ امرأة، قالت مع نفسها، من دون أنْ تجرُؤ على تصديق ذلك تماماً. في المطبخ وهي مغمورة بآلام النهار بدا لها الليل أقلّ من الليل، والنهار أقلّ موتاً. كانت تحبّ، في اللحظات الحرجة، حيث تحتاج إلى الشجاعة، تضغط بأصابعها على المائدة القديمة التي سيجلس حولها بعد قليل أفراد عائلتها، وهم ينتظرون بأنْ تقوم بخدمتهم، وتشعر أيضاً من حولها بجاهزية أدوات ومَعَدَّات الخدمة لكل يوم. ذهبَتْ إلى الباب، فتَحَتْه وألقت نظرة على الخارج. كان القمر غائباً لكن النجوم كانت تتفجّر بألقٍ حيّ. نظرت إليها طويلاً. كان ذلك مشهداً أراحها لأكثر من مرّة. ذهبتْ إلى البئر وقبضت بقوّة على السلسلة. كان السطل في عُمق البئر، والخطّاف غاطساً في الماء. كان الأمر كذلك. أخذت أصابعها بالتيه فوق العُقَد المتماوجة. أسئلة فاقدة للشكل، ومنصهرٌ بعضُها في بعضها الآخر، قد انسحقت في عقلها. بعضٌ منها بدا أنّ له علاقةً بابنتها، الشائخة بالرغم من ذلك بسبب الهموم. ولأنها لم تكن قادرة على النوم، كانت هذه الأخيرة منذ بعض الوقت تصغي. لأنها كانت تعرف بأن أمها ما تزال ساهرة ويمكنها النهوض في أية لحظة واللّحاق بها. لكنها لم تخبر والدتها إلّا بعد يوم أو يومين بما قاله سابو لها، أيْ أنه راحلٌ مرّة وإلى الأبد. حينئذ، وكما نفعل حتى مع الأموات الذين لا معنى لهم، جمعوا الذكريات التي كان في إمكانه تركها بينهم، أحدهم يعين الآخر، ويضغط على نفسه حتى يكون متوافقاً مع الآخرين. لكنهم يعرفون هذه

الشُّعلة الصغيرة، وارتجافاتها في الظِلّ المُنخفض. ولم يحصل التوافق إلّا في وقتٍ متأخّر، مع النسيان.

ضجرٌ قاتل. في يوم ما أعطتني إسرائيليّة نصيحةً تتعلّق بالدافع المُحرِّك. كان ذلك قد حدث في تلك المرحلة التي كنتُ ما أزال أبحث فيها عن أحدٍ يكون مخلصاً لي، وأنا مخلصٌ له. حينها فتحت عيني على سعتهما لكي أسمح للمرشَّحين بالإعجاب بعمق نظرتي والانعكاسات المولِّدة لكلّ ما لا يمكن قوله. كان وجهانا متقاربان تماماً من بعضهما، بحيث شعرت من فوق يدي بنفحة هواء ساخن وقليل من اللعاب، وهو أيضاً لا بدّ أنه شعر بلعابي فوق يده. ما زلت أراه، وأنا هادئ في الأخير، وهو يمسح عينيه وفمه، أما أنا، وقد أغلقت عيني، حزنتُ لبركة البول، التي بعد أنّ اخترقت بنطالي من طرفه إلى طرفه الآخر، تَشكّلت عند قدمَي. الآن وبعد أن قضيتُ حاجتي منه، سأقول اسمه. جاكسون Jackson. كنتُ أتمنى لو كان عنده قِطّ، أو كلب فتي، أو كلبٌ هرم وهذا أفضل. لكن من الرفاق الخرسان لم يكن لديه سوى ببّغاء، رماديّ أحمر، علّمه كيف يقول Nihil in intellectu، إلخ... هذه المفردات الثلاث كان الطير يلفظها بشكل جيّد، لكنه لم يوفّق في لفظ ذلك التحديد الشهير، وكلّ ما كان يُسمَع منه هو «كواه كواه كواه». وحين كان جاكسون يغضب، ويطلَبُ منه أن يردّد، كان بولي Polly يسخط ويصبح أحمرَ بالكامل، ثم ينسحب إلى إحدى زوايا قفصه. كان قفصاً غايةً في الجمال، مُرتّباً بطريقة جيدة، مع الفروع التي يقفز فوقها، والأراجيح، وأماكن الأكل والشرب، وما يتسلّق نحوها، وكثيراً من عظام الحيوانات الرخويّة. كان هناك العديد من الأشياء، لو كنتُ مكانَه لشعرتُ بالضِّيق. ذكّرني جاكسون بالـ«ميرنوس» mérinos [فصيلة خراف إسبانيّة - المترجم]، لا أعرف لماذا، ربما بحكم قولٍ مأثور.

في فكري كانت فكرة القطيع التائه تناسبه أكثر مما تناسبني أنا. لكن

في العمق لم يكن في فكرتي أبداً شيء آخر غير الريح. من تلك الريح التي يقيسونها على حجمي. لم تطل علاقتي بجاكسون. كان في إمكاني تحمله كصديق، لكن لسوء الحظ كان ينفرُ مني، جونسن Johson، وولسن Wilson، ونيكلسون Nicholson، وواطسن Watson، وكلهم خنازير. بعد ذلك، ولفترة معينة، حاولتُ اللقاء بروحٍ شقيّ من الأجناس السفلية، الحمر، الصفر، الكستنائيّون، إلخ... ولو كان الوصول إلى المصابين بالجذام أقل صعوبة، لكان بمقدوري التسلّل بينهم، مُحوّلاً عيني، كابحاً حركاتي، راسماً ابتسامات، مندفعاً، وقلبي ينبض. مع الشياطين أيضاً أخفقت، في اللحظة الأخيرة. أثناء ذلك مرّت الأشياء، لكن لِنَرَ كيف أنها ستمرّ في الوقت الحاضر. عندما كنتُ شاباً، كنتُ أنظر نحو الشيوخ بدهشةٍ وفَزَع. أمّا ما يُذهِلُني الآن، هم الرُّضَّع الذين يصرخون. لقد اكتظَّ بهم البيت في النهاية. Suave mari magno، ولا سيّما عند قدومهم. أيُّ ضَجَر! أنا الذي كان يظنّ بأنّه وازَنَ كلَّ الأشياء. لو كنتُ أستخدم جسدي جيّداً، لرميتُ بنفسي من النافذة. لكن ربما لأنّي ما زلتُ مُعوَّقاً قد تولَّدَتْ لديّ هذه الفكرة. تمام، كلّ شيء تمام. لسوء الحظ أجهل في أيّ طابقٍ أنا، ربما ما بين الطوابق. الأبواب التي تُقرَع، الخطوات التي تَجتاز الرِّواق، ضجّة الشارع، لم تجعلْني أدرك أيَّ شيء بخصوص هذا الموضوع. ما أعرفُه هو أنَّ هناك أحياءً فوقي وتحتي.

بالمناسبة، أحياناً أرى السماء و - عبر نافذتي - نوافذَ أخرى تقابلها كما يبدو. لكن ذلك لا يبرهن على شيء. لا أريد البرهنة على أيّ شيء. هذا ما يقوله المرء. ربما أنا موجود في الأخير في كهف وبأن هذا المجال الذي أعتبره شارعاً ما هو إلّا مقطعٌ واسع يطلّ على كهوف أخرى. لكن من أين تأتي هذه الضوضاء التي تصِلُني، والخطوات التي تَقْدُم نحوي؟ قد يكون هناك كهوف أكثر عمقاً من كهفي، لم لا. في هذه الحالة، يُطرح ثانية سؤالُ في أيِّ طابقٍ أجدُ نفسي، ولن أربحَ أيَّ شيء إذا ما افترضتُ بأنّي في الطابق الأرضيّ، ما دام هناك طوابق أرضية بعضها فوق بعض.

لكن تلك الضوضاء، وهذه الخطوات التي قلتُ بأني أسمعها وهي متّجهة نحوي، هل كانت حقّاً كذلك؟ لا شيء في الحقيقة يُثبت ذلك. من هنا يمكن الاستنتاج بأنها لم تكن سوى هلوسات عاديّة وبسيطة، ومع ذلك ثَمَّة خطوةٌ أتردَّد في تخطّيها. غير أنّي أعتقد حقّاً بأنَّ هناك أناسٌ في هذه الدار يروحون، ويعودون ويتكلّمون فيما بينهم، وكذلك الكثير من الرُّضَّع، خاصّةً منذ بعض الوقت، ويغيّر آباؤهم غالباً أماكنَهم، لكيلا يَعتادوا على السكون، وكاحتياطٍ لليوم الذي سيكونون فيه مرغَمين على تدبير حالهم من دون معونة أحد. لكن كلما فكّرت مليّاً، كلّما صعبَ عليَّ تحديد موقعهم. فضلاً عن أنّه ليس هناك ما يشبه الخطوة الصاعدة والخطوة النازلة وحتى التي تأتي وتروح، ودون أن يتغيّر أبداً المستوى، أعني ليس بالنسبة إلى ذلك الذي يجهل مكان وجوده وبالتالي توقّع ما ينتظره وحسب، من وجهة النظر الصوتية، إنما أيضاً في الوقت ذاته لذلك النصف الأصم في نصف الوقت. كذلك لا تفلت مني بطبيعة الحال الإمكانية، مهما كانت مُخيِّبة، بأني كنتُ قد متُّ سلفاً وبأنّ كل الأشياء واصلتْ وجودَها كما كانت عليه في الماضي. ربما كنتُ قد متُّ في الغابة، وحتّى قبل هذا. في هذه الحالة ستكون المشقّة التي كلّفتُ نفسي بها، ضمن هدفٍ لم أعُدْ أتذكّر موضوعَه إلّا لأجل التخلُّص منه؛ كلّ تلك المشقّة كانت بلا طائل مطلقاً. بيد أنّ العقل السليم يقتضي بألّا يتوقّفَ لهائي. وهو يُذكّر، بارتكازه على هذه النظرة، العديد من الاعتبارات التي لها علاقة ما بممتلكاتي الصغيرة مثلاً، بنظامي الغذائيّ وإفراغه، بالزوج القاطن قبالتي، بتحوّل الأجواء السماوية، إلخ... فيما يمكن أن يكون كل ذلك في الواقع مجرّد شِعر. لنأخذ على سبيل المثال النور المُهيمن على هذه الخلوة. إنه غريب، هذا أقلّ ما يمكن قوله عنه، الأقل حقاً. هناك نوع من الليل والنهار عندي، وذلك أمرٌ مفهوم، بل وأكثر ظلاماً أغلب الوقت، لكنه لا يجري كما أعتقد وفقاً للطريقة التي اعتدتُ عليها، قبل أن أجد نفسي هنا. مثلاً، لا شيء يُعادل الأمثال، وحينما تكون الظلمة كاملة عندي أنتظر الفجر مع قليل من نفاد الصبر، لكي أقوم ببعض الأشياء

التي أحتاجُ إليها، ويصعب القيام بها في مثل هذه العتمة. وبالفعل عاد النور شيئاً فشيئاً وتمكنت بمعونة عصاي من التقاط الأشياء التي كنتُ في حاجة إليها. لكن ذلك الوضوح، بدلاً من أن يكون ضوء الصباح، يعلنُ عن نفسه كضوء مساء. والشمس، لم ترتقِ لكي تكون في قلب السماء كما توقعت، ها هي توشك على الغروب، والليل الذي رحّبتُ به على طريقتي الخاصة للتو يصبح ثانية لا يرحم. الآن، العكس تقريباً، أعني أن النهار انقضى في غسق الفجر، كما عليَّ الاعتراف بأني لم أعرف من قبل شيئاً كهذا، وهذا ما يُحزِنُني، أعني عدم قدرتي على إثبات أني رأيت هذا أيضاً. ومع ذلك، غالباً ما ناشدت بكل قواي الباسة، مجيء الليل، منذ الصباح نوعاً ما، ومن هذا الأخير غالباً ما ناشدت المساء. لكن قبل ترك هذا الموضوع والشروع في غيره، سأقول بصراحة لم يكن لدي أيُّ نورٍ أبداً. إنه هناك في الخارج، الوضوح، يتلألأ في الهواء، كما يتألّقُ حَجَرُ الجدار المقابل بكل بريقه، إنه مقابل زجاج نافذتي، النور، لكنه لا يعبر، لحدٍّ يمكنني القول معه إنّه لا يمرّ في الظل، ولا حتى في الفَيء، لكن عبر هذا الضوء الرصاصي، الذي لا يرمي بظلاله، وبالتالي يصعب عليَّ معرفة من أين يأتي، ما دام يبدو قادماً من كل مكان في الوقت ذاته، وبالقوة نفسها. أنا مُقتنع، على سبيل المثال، بأنه موجود الآن تحت سريري، كما هو في سقف الغرفة، وهذا لا ينطوي على مبالغة، لكن فقط كي أقوله لكم، لأخبركم به. وما الذي يمكن قوله عدا إنه ليس ثَمَّة من لون هنا، اللهم إلّا إذا ما اعتبرنا التوهُّج الرماديّ هذا لوناً. نعم، يمكننا الكلام عن الرماديّ، بلا شكّ، من جانبي أقبَلُ ذلك عن طيب خاطر، حينئذٍ ستكون اللعبة أو النزاع لديّ ما بين الرماديّ والأسود الذي يغطّيه نوعاً ما، كنت على وشك القول بمقتضى الساعة، غير أنَّ هذا لم يبدُ أبداً كأمرٍ يتعلّق بالساعة. أنا نفسي رماديّ، ويتولّد لديّ أحياناً شعورٌ بأنّي أرمي بالرماديّ حولي، بالطريقة ذاتها التي أرمي بها أغطيتي مثلاً. وحتى ليلي لا يشبه ليل السماء. من الواضح أنّ الظلام هو الظلام ذاتُه في كلّ مكان. لكن كيف يمكن في هذه الحالة أنْ يكون مجالي الصغير لا ينتفع

من الكواكب التي يحدث لي أحياناً رؤيتها لامعةً من بعيد وأن يكون هذا القمر، الذي يشقى تحته قابيل من ثقل حمله، لم يضئ وجهي أبداً؟ باختصار يبدو أنَّ ثَمَّة نوراً في الخارج، نورُ أولئك الرجال الذين يعرفون في أية ساعة تنبثق الشمس وفي أيّة ساعة غيرها تغيب خلف الأفق، ويحسِبونها، وبأنه ينبغي توقّع الغيوم دائماً، لكنها تنتهي دائماً بالتلاشي، آجلاً أم عاجلاً. ونوري أنا، له تبدُّلاته هو أيضاً، نوري أنا، لا أرغب في نكران ذلك، ما بين الغسق والفجر، لكن أنا مَنْ يقول هذا، لأنه كان عليَّ العيش أنا أيضاً، ذلك شيءٌ لا يُغتَفَر. وحينما أنظرُ جَيِّداً نحوَ السقف، الجدران، أرى بأنه ليس هناك من إمكانية لبعث النُّور في مسكني، بطريقة مُصطنعة، كما يفعل الجيران المواجهون لي مثلاً. سيكون من الضروري تزويدي بمصباح، بشعلة، ولا أدري ماذا بعد، لكني لا أعرف إذا ما كان هذا الهواء ناتجاً عن المواد القابلة للاشتعال. يا طويل العمر، لتبحث عن عود ثقاب ما بين أغراضك، ممتلكاتك، وجرّب ما إذا كانت تشتعل. الضوضاء أيضاً، الصرخات، الخطوات، الأبواب تُدمدم، ثم تتعطّل لمدة أيّام كاملة، أيّام الآخرين. حينها يكون الصمت، الذي كنتُ حَذِراً حياله، والذي سأكتفي بالقول عنه بأنه، كيف يمكن قول ذلك، لا ينطوي على أيّ شيء سلبيّ ربما. وبرقّةٍ ملأَت الضوضاءُ مجالي الصغير من جديد. ربما ستقولون بأن ذلك كان في رأسي، وفي أغلب الأوقات يبدو لي واقعياً بأني موجود في رأس ما، وبأنّ تلك الثمانية، كَلّا، الستة منافذ قائمة على كمية من العظام، لكن القول بعد هذا بأن ذلك الرأس هو رأسي، كَلّا، أبداً. كان يدور فيه نوع من الهواء، كان عَلَيَّ قولُ ذلك، وحين يصمت كلُّ شيء كنتُ أسمَعُه وهو يلقي بنفسه من فوق الحواجز، التي ترفضه بطبيعة الحال. حينئذٍ تنعقدُ وتنحلّ، في مكان ما من المركز، أمواجٌ أخرى، هجومات أخرى، من هنا تَقدمُ بلا شك تلك الضوضاء الضعيفة للساحل الهوائي، التي تُشكل صمتي. أو أنَّ العاصفة هي التي تهبّ، كما تفعل في الطقس الأرضي، وتغطّي صرخات الأطفال، الموتى والعشّاق، والذين كنتُ أقول عنهم بسذاجة توقّفوا، فيما أنهم في

الحقيقة لم يتوقّفوا أبداً. من الصعب القول. وفي الجمجمة هل هناك من فراغ؟ لِنَرَ. وإذا أغلقتُ عيني، أغلِقُهما حقّاً، بالطريقة التي لا يستطيعها الآخرون، وإنما بالطريقة التي أقدرُ عليها أنا، ذلك لأنّ لعجزي حدودَه، آنذاك يُحلّق سريري أحياناً، كقشّة، أنا في داخلها. لا يتعلّق الأمر بحسن الحظ، بالبؤبؤين، تماماً مثلما يقول أحدهم الروحُ هي ما ينبغي جعلُه أعمى، تلك الروح التي كان بمقدور الكثيرين نكرانها، الثاقبة، المُراقبة، القلقة، التي تدور وتدور في قفصها الخالي من المرافئ ومن القوارب والمادة والفهم. آه نعم، لديّ تسلياتي وعليها...

يا لها من تعاسة، لا بدّ أنّ قلم الرصاص قد سقط من يدي، لأنّي التقطتُه للتو بعد مرور ثمانٍ وأربعين ساعة (أنظر إلى تحت في مكان ما) من الجهود المتواصلة. ما يعوز عصاي، هو نوع من الخرطوم الأخّاذ كذلك الذي تتمتّع به حيوانات التدابير الليلية. في العمق كان عليَّ فقدان قلمي الرصاص في معظم الأوقات، ذلك ما لا يؤلمني، وإنما يجعل صحّتي أفضل كما أعتقد، وسأكون أكثر انشراحاً، وهو أكثر فرحاً. قضيتُ يومَين لا يمكن نسيانهما، لكنّنا لن نعرف عنهُما شيئاً، ذلك لأنَّ المسافة التي تفصلنا عنهما كبيرة، أو غير كافية، لا أعرف أكثر من هذا، إلّا القول بأنهما سمحا لي بحلّ كلّ شيءٍ وختمِه، أعني كلّ ما له علاقة بمالون (هكذا بالفعل أسمّي نفسي في الوقت الحاضر) والآخر، لأنّ كلَّ الباقي لا يدخل ضمن اهتمامي. وكان ذلك، بإيجاز، كومَتَين من أنقاض الرَّمل الناعم أو ربَّما من الغبار والرَّماد، اللّذان يتمتَّعان قَطْعاً بأهميّةٍ خاصّة، لكنهما يجريان سويّة تقريباً، تاركين إيّاي خلفهما كلّ واحد في محلّه ومكانه، الشيء الغالي الذي هو الغياب. أثناء ذلك الوقت، حاولت الحصول ثانيةً على قلمي الرصاص، على شكل هزّات. كان من ماركة فينوس، ما زال أخضرَ بلا شك، وله خمسة أو ستة جوانب ومَبْرِيٌّ من نهايته، كما كان صغيراً جداً بحيث لا يبقي إلّا على مكانٍ صغير في

الوسط بدِقّة، لوضع إبهامي والأصبعين اللذين يتبعانه، والملتزمين كملزمةٍ. أستخدم نبالتين بالتناوب، وغالباً ما أمصّهما، أحبّ المَصّ. وحينما يتملّسان أستلّهما بأظافري الطويلة والمُسننةِ والتي تنكسر بسهولة، بسبب فقدان الكلس أو الفوسفات ربما. كذلك تقلّصَ تدريجياً قلمي الرصاص، بالضرورة، وسوف يأتي اليوم الذي لن يبقَى منهُ سوى شظيّة صغيرة للغاية بحيث لن أتمكّن من مسكِها. لهذا أضغطُ قليلاً، لكن الرصاصة صُلبة ولن تترك أثراً إذا ما ضغطت أكثر. لكني أقول في نفسي، ما بين رصاصةٍ صلبة ينبغي الضغط عليها بغية أنْ تترك أثراً، ورصاصة ليّنة وشحميّة تسود الصفحة من دون لمسها تقريباً، ما الذي يمكن أن يكون عليه الفارق بينهما، من وجهة نظر الديمومة؟ آه نعم، لديّ بضع تسليات. الأكثر غرابة يكمن في امتلاكي قلمَ رصاصٍ آخر، فرنسيّاً، طويلاً أسطوانيّاً بالكاد استخدمتُه، في جهة ما من السرير كما أعتقد. لذا ليس ثَمّة من حاجة إلى القلق، فيما يتعلّق بهذا الموضوع. وبالرغم من ذلك أنا قلقٌ. الآن وأثناء مطاردتي للقلم قمتُ باكتشافٍ يثير الفضول. ابيضّت الأرضية. ضربتُها عدة مرات بعصاي، وردّت بصوتٍ جافٍّ وفارغ في آنٍ معاً، أيْ مُزيَّف. ولأني صرتُ حذِراً نظرتُ بانتباه إلى السطوح الكبيرة الأخرى، من فوقي تماماً ومن حولي. أثناء ذلك الوقت واصل الرمل جريانه وقلتُ في نفسي، لن أعثر عليه أبداً، أتحدّث عن القلم. كما تمكنتُ من ملاحظة أنّ كلّ تلك السطوح الخصوصية، أو كان عليّ ربما القول السطوح التحتية، بما فيها الأفقية والمستقيمة، مع أنها لا تتمتع بطلعات مستقيمة من هنا، قد ضعفت هي أيضاً، منذ الاستقراء الأخير، التاريخ ذاته الذي لا أعرف متى، وذلك ما هو صاعق مقارنة بميل الأشياء العامة، التي تنزع بالأحرى نحو العتمة كما أظن، مع الزمن، بطبيعة الحال باستثناء الجثة الميتة وأجزاء بعينها من الجسد الذي ما زال حيّاً والفاقد للونه وقد انسحب عنه الدم، في النهاية. هل يعني هذا بأن الوضوح لديّ أصبح أكبر حتى أعرف ما يحدث؟ حسناً، يجدر القول كَلّا، إنه الرماديّ نفسه كالسابق، أيْ أنه يلقي بشراراته في بعض اللحظات

وحرفياً، ثم يرتجف ويضعف، أو يزداد سُمكه لو أردنا، بحيث إنه يغطي كلّ شيء عن نظري ما عدا النافذة التي أصبحت كأنها صرّتي نوعاً ما والتي قلت عنها في نفسي إذا خسفت هي أيضاً، حينها سأتدبر أمري إلى حد ما. كَلّا، كلّ ما أرغب في قوله هو أني عندما أحملقُ بعيني أرى من تخوم هذه الدياجير المُقلقة ما يشبه لمعان العظام، وتلك لم تكن حالي حتى الوقت الحاضر، حسب علمي، كما أتذكر بشكل دقيق السُّجوف وأوراق كساء الجدران التي ما زالت لاصقة بها في بعض أماكنها وهي تتراقص بالزهور، البنفسجيات وغيرها من الورود، بثراءٍ بدا لي حينها كأني لم أرَ شيئاً مثله طيلة حياتي. لكن من كلّ هذا لم يبقَ ولا ملمحٌ في حياتي، في الوقت الحاضر، وإذا لم تكن في السقف زهورٌ لا بدّ أن يكون هناك شيء آخر، أو العشّاق ربما، وهؤلاء قد اختفوا بدورهم. وأثناء متابعتي لقلمي، في لحظة ما كان دفتر طفولتي تقريباً، إذا ما حكمنا على ذلك من خلال بعض العلامات، قد سقط هو أيضاً على الأرض، لكني سارعتُ باختطافه، عبر تعليق شبّاكة عصاي في أحد مِزق غلافه ورفعه برقّة. وأثناء كلّ ذاك الوقت، الثريّ بمصادفاته ومُعاكساته، افترضتُ في رأسي أنّ كلّ شيء ينزلق ويُفرغ وكأن مراوح قد عبرت من خلاله، ذلك ما أفرحني تماماً، لحدّ أنه لم يبقَ أيُّ شيءٍ في النهاية، لا من مالون ولا من الآخر. الأنكى من هذا أنّي تابعتُ المراحل المختلفة من ذلك الخلاص، كذلك لم تُدهشْني رؤية تقدُّم مساره أحياناً وتباطؤها في أحيانٍ أخرى، لأني كنت أعرف بوضوح الأسباب التي تجعل الأشياء غيرَ قادرة على الحدوث بطريقة أخرى. لهذا هنّأتُ نفسي أيضاً على ذلك، بمعزلٍ عن المشهد، ولفكرة أنّي أصبحتُ أعرفُ الآن ما ينبغي عليَّ القيام به فيما بعد، أنا الذي كنتُ أنطلقُ بالتلمُّس، والذي كان سكونه يشكل نوعاً من التلمُّس، نعم، توقّفت كثيراً بفضل التلمّس. ولهذا كنتُ لا أزال قادراً على صنع أوهامي، أعني لاعتقادي بأني كنتُ أرى بوضوح عبر تعثراتي في النهاية، لكن ليس إلى حدٍّ يجعلني في الوقت الحاضر ألوم نفسي. ذلك لأني بالقدر الذي كنتُ أقول فيه مع نفسي: كم هو الأمر بسيط

وجميل! بالقدر ذاته كنتُ أقول لها: سيُظلِم كلُّ شيء من جديد. لكن ليس مع الحزن الكبير في العثور على أنفسنا ثانيةً كما هي، أيْ رفْعها حبَّة بعد حبَّة إلى أنْ تمتلئ اليد، بمساعدة التعب، ثانيةً وتفرغُ في المكان ذاته بطريقة حالمة، كما يُقال. لأني كنتُ أتوقّع ذلك، وأنا أقول لنفسي آه في النهاية! كما ينبغي عليَّ القول بأنّ ذلك الإحساس لم يكن غريباً بالنسبة إليَّ، أنْ تأخذ يدي المُنهكة والعمياء بحفر جُزيئاتي برخاوة وتجعلها تنساب من بين أصابعي. وحدث لي أيضاً، عندما كان كلّ شيء هادئاً، الشعور بها وهي تغوص فيَّ إلى حدّ الكوع، لكن بهدوء، كأني على وشك النوم. لكنها سرعان ما اهتزَّتْ، استيقظتْ، غازلتْني، مُتشنّجة، باحثة وأحياناً مدمّرة، وكأنها تنتقم لنفسها لأنها لم تتمكّن من كنسي. أفهمها. لأني كثيراً ما أحسست بأشياء شاذّة لا أساس لها بالتأكيد، إلى حدٍّ يكون المرء عنده مرغماً على إسكاتها. هل ينفع الحديث عن تلك المراحل التي ذوّبتُ نفسي فيها وجعلتها تصل إلى حالة الطين؟ أو تلك التي كنتُ أغرق فيها حدّ الدخول في خرم الإبرة، لكثرة ما يبّستُ نفسي وقلّصتها؟ كَلّا، كانت تجارب رائعة، لكنها لا تغيّر أيَّ شيء في الأمور. تحدَّثتُ إذاً عن تسلياتي الصغيرة، كنتُ على وشك القول بأنه كان عليَّ بالأحرى الرضا بذلك، بدلاً من رمي نفسي في قصص تجعل المرء يحيا ويموت واقفاً، إذا ما كان الأمر يتعلّقُ بهذه الأسئلة، وأنا أفترضُ كذلك، بأنه لم يكن هناك أبداً أيُّ شيء إلّا تعلّق بهذه الأسئلة، إذا لم تَخُنّي ذاكرتي. لكن أن أقول ما نتيجة ذلك، سأكون من دون شك عاجزاً عن الردّ عن هذا السؤال في الوقت الحاضر. ذلك شيءٌ غامض، الحياة والموت. لا بدّ أنّه كانت لديَّ فكرتي الصغيرة عن ذلك، عندما بدأت، وإلّا لما كنت بدأت، وكنتُ سأبقى هادئاً، كما كنتُ أتمكن من البقاء ثابتاً في ضجري، ومواصلاً اللعب مع الأيقونات والأسطوانات على سبيل المثال، ومع حبوب طعام العصافير وغيرها من حالات الفزع، وأظل مُنتظراً لكي يأتي أحدهم ويأخذ قياساتي. لكنها خرجت من رأسي، فكرتي الصغيرة. لأنها غير ملائمة، لكن لديّ الآن واحدة أخرى. ربما

تكون هي ذاتها، فالأفكار تتشابه للغاية، عندما نتعرف عليها. الولادة، فكرة في الحاضر، أيْ أن يعيش المرء لكي يعرف ما هو غاز الكاربون الحرّ، ومن ثم تقديم الشكر ثانية. ذلك كان حلمي في العمق. كثيرٌ من الأقواس ولا سهماً واحداً. لا حاجة لذاكرة. نعم، هذا هو، أنا جنين شائخ في الحاضر، شائب وعاجز، لم تكن أمي قادرة، جعلتها تتحلّل، وماتتْ، سوف تلد عن طريق الغرغرينا، وربما والدي قد ساهم في ذلك العيد، سأتفتّح مع صرخة الولادة وسط عظام الموتى، لكني لن أصرخ، لا أهمية لذلك. أيّ قصص كنتُ أسردها على نفسي، وأنا محشور بالعفن، منفوخاً، منفوخاً. لقد حصلتُ عليها، أسطورتي. ما الذي تغير بحيث أكون مُثاراً بهذه الطريقة؟ كَلّا، لنقل الشيء، لن ألد وبالتالي لن أموت أبداً، هكذا أفضل. وإذا واصلت السرد على نفسي، ومن ثم على الآخر، صغيري، الذي سآكله كما أكلت الآخرين، وكما هو الأمر دائماً، من حاجتي إلى الحب، خراء إذاً، لم أكن أتوقّع هذا، مسخ، لا يمكنني التوقف. من جانب آخر، يبدو لي بأني ولدت وعشت زمناً طويلاً والتقيتُ بجاكسون وتُهتُ في المدن، في الغابات والصحارى، كما كنتُ على وشك البكاء أمام الجُزُر وشبه الجُزُر حيث كان يقدَّم الليل بلمعان المصابيح الصغيرة والصفراء الصامتة للبشر، وطيلة الليل المشاعل الكبيرة والبيضاء، وبألوان غير حيّة كانت تقدّم نحو الكهوف، التي كنتُ فيها سعيداً، مُتّكِئاً على الرمال لحماية نفسي من الصخور وسط رائحة العَلَق والصخرة النَّديّة مع ضجّة الموجات التي تَسُوطُني بالزَّبَد أو تنوح على الساحل وتنخُر بالكاد الحصاة، كَلّا، ليس سعيداً، لم يحدثْ هذا أبداً، لكن مع تمنّي ألّا ينتهي الليل أبداً وألّا يقدم النهار ثانية بحيث يجعل الناس تقول: هيا بنا، الحياة قصيرة، علينا اغتنامُ الفرصة منها. من ناحية أخرى، ليس ثَمَّة من أهمية إذا كنتُ قد ولدْتُ أو لا، وأنْ أكون عشتُ أو لا، أن أكون متُّ أو على وشك الموت وحسب، سأفعل الشيءَ نفسَه الذي فعلتُه دائماً، بجهل لما أقوم بفعلِه، أو من أكون أنا، وأين أنا، وما إذا كنتُ أنا. نعم، سأحاول القيام بذلك، لكي يكون بين ذراعيَّ كائنٌ صغير،

يتطابق مع صورتي، مهما قلتُ وأقول. وحينما أراه بغموضٍ قادماً، يشبهني تماماً، فسوف آكُلُه. وسيكون للحظةٍ وحدَه، التعيس، وهو لا يعرف ما هي صلاتي، وإلى مَنْ.

استغرقتُ وقتاً طويلاً للعثور عليه، بيد أنّ ذلك قد تمّ. عبر ماذا تعرَّفتُ عليه؟ لا أعرف. وما الذي كان في إمكانه تغييره إلى هذا الحد؟ الحياة ربما، المحاولات، الحبّ ربّما، للأكل، للإفلات من قبضة العادلين. أنزلقُ فيه، على أمل تعلُّم شيء ما بلا شك. لكنها كانت أراضي بلا أنقاض ولا آثار، من الوهلة الأولى. غير أنّي في النهاية سأكتشف فيها على بقايا. في وسط المدينة أضع نقاط استدلالي، جالساً على مصطبة. إنه شائخ تقريباً في الوقت الحاضر. كيف تعرفت عليه؟ بالعينين ربما. كَلّا، لا أعرف كيف تعرفت عليه، لن أُنقص شيئاً. ربما ليس هو. لا أهمية لذلك. إنّه لي الآن. إنّه ما زال كائناً حيّاً ومن غير المجدي القول بأنه من جنس الذّكور، حيّ في هذه الحياة التي توشك على الانتهاء كأنها في طور النقاهة، هذا إذا كانت ذكرياتي هي ذكرياتي، وإذا ما استساغها المرءُ وهو يعدو نحو الشمس، أو تحت الأرض، في أروقة المتروبول. ومن حولي بأسره ليس هناك سوى موجة المزعجين، الذين يشترون البطاقات، يغيرون العفش، ويكونون أبدياً هناك حيث لا ينبغي أن يكونوا في الساعة التي لا ينبغي أن تكون. ما الذي يعوزني بعد؟ نعم، كانت النهارات قصيرة حينها، ومكتظة تماماً، في البحث عن الدفء وعن أشياء ليست سيئة تماماً للأكل. كما يتخيل المرء بأن الحال سيكون دائماً هكذا وحتى النهاية. لكن فجأة يأخذ كل شيء في الهيجان والتأنيب، حيث يضيع المرء بين السرخسيات الضخمة الفارعة أو يقذف بنفسه عبر السهوب التي أحنَتْها العاصفة، ليسأل نفسه ما إذا كان قد مات من دون علمه، أو وُلِدَ ثانية في مكان ما. حينئذٍ تبدأ رحلةُ شكّه في تلك السنوات القصيرة، حيث كان الخبز معذوراً أغلب الوقت، وعند نهاية اليوم، والتفاحات،

كنتُ دائماً أحب التفاح، الذي كان مجّانياً تقريباً إذا عرف المرء كيف عليه تناوله، وحيث كانت هناك شمس وملجأ كان المرء يحتاجها حقاً. بيد أن الأمر يتعلق بي أنا! وها إنّه هادئ فوق مصطبته، ظهره في اتجاه الشاطئ، كما كان يرتدي مثلما سنرى، مع أن أحداً لا يضع الثياب بعين الاعتبار، أعرف ذلك، أعرفه، لكن لن يكون له غيرها، هذا ما أشعر به. وإذا كان يمتلكها منذ زمن طويل سلفاً، إذا ما حكمنا عليها من رثاثتها، فهذا ليس له أهمية، لأنها ملابسه الأخيرة. غير أن المعطف هو ما يستحق الذكر، يعني أنه يغطّيه بأكمله ويحجبُه عن النظرات. لأنه جيّد التزرير، من أعلى إلى الأسفل، بفضل ما يُقارب الخمسة عشر زرّاً في أسفل المفردة، بعيدة بعضها عن الآخر بمقدار ثلاث أو أربع بوصات، لكيلا يترك أيَّ شيء يُرى مما يحدث في الداخل. وحتى القدمين، المطروحتين بحكمة الواحدة قرب الأخرى، فهو يغطي جزءاً منهما، بالرغم من الكسر المزدوج للجسم، في أسفل الجذع أولاً، ثم تحت الركبتين، حيث تأخذ الربلتان شكلاً عمودياً، ذلك لأن اللقطة لا تهمل أيّ شيء، الرّباط لم يكن غائباً. يمكننا الآن الاعتقاد بأنها ممسوكة بروابط، ما دامت اللقطة ساكنة ومُتيبّسة تماماً، وهي مصنوعة أكثر فأكثر عبر مستويات من الأظفار الواضحة، كأظفار النصب الضخم لممنون Memnon، ابن أورور Aurore المحبوب. وهذا معناه أنه عندما يمشي، أو ببساطة عندما يبقى واقفاً، كانت ذيول معطفه تكنس الأرض حرفيّاً وتصنع ضجّة مسموعة للجر، حينما يمشي. وبالفعل ينتهي ذلك المعطف بالطين، كما هو حال بعض الستائر، وفي الأكمام أيضاً تكون اللُّحمة واضحة للعيان وهي مُزوّدة بخيوط مجنونة تتلهّى بالريح. وكذلك اليدان مغطّاتان، إلى حدٍّ كبير، لأن أكمام البؤس تلك المصنوعة بمقاس البقيّة تغطّيها. لكن الياقة ظلت نظيفة، لأنها مصنوعة من المخمل أو ربما من رِفَلٍّ. الآن فيما يتعلق باللون، ذلك لأن اللون له أهميته هو أيضاً، يمكن للمرء نكران هذا، كل ما بمقدورنا القول عنه هو أنّ الأخضر كان طاغياً. بل يمكن للمرء المراهنة بأن ذلك المعطف عندما كان جديداً كان يتمتع بلون أخضر

جميلٍ موحَّد، ولن يخسر، أخضر كيف يمكن قول ذلك، أخضر كعربة خيل، ففي السابق كانت هناك عربات فاخرة تَجُرُّها أربع خيول، عجلاتها مكسوّة بلون القناني الأخضر الجميل، لا بدّ أنّي رأيتُ واحدةً منها، ولن يدهشني أنّي سافرتُ بإحدها حتى. لكن ربما أكون على خطأ بوسمه معطفاً ذلك المَلبس الذي يجعلني أكثر إلهاماً إذا ما أسميته معطفاً طويلاً، أو ما يغطي الكلّ، باستثناء الرأس بطبيعة الحال، والذي ينتصب عالياً، مُتفاخراً ولا يتزحزح، لأنه ظلّ خارج نطاقِ مُغطِّي الكلّ. نعم، كانت الانفعالات قد وسمته، ربما الأفعال أيضاً، لكن في إمكان المرء القول بأنه ما عاد يتألّم، في هذه اللحظة. لكن منْ يعرف. أمّا بالنسبة إلى الأزرار، لا يمكن القول بأنها أزرار حقيقية بالمعنى الحَرفِيّ للمفردة، لكنها بالأحرى أسطوانات صغيرة خشبية، طويلة ببوصتين أو ثلاث، وفي الوسط ثقبٌ يمرّ عبره الخيط، ذلك لأن ثقباً واحداً يكفي تماماً، مهما قيلَ عنه، وذلك بسبب التوسُّع الخارجي المختلفِ عن كلّ قياس للأزرار، بما يتوافق مع الاستهلاك. وحينما قلت أسطوانية، ربما كنتُ قد ذهبت بعيداً إلى حدٍّ ما، لأنه إذا كانت بعض الأزرار أسطوانيةً بالفعل، هناك أيضاً بعضٌ منها لا يتمتَّع بشكل مُحدد. لكنها كلها ذات بوصتين ونصف طولاً، بحيث إنها تمنع العروتين من التباعد الواحدة عن الأخرى، جميعها تتمتع بهذه الخاصية المشتركة. الآن وفيما يتعلّق بخامة نسيج ذلك الملبس، لا يمكننا القول عنه أيّ شيء أكثر مما نقوله عن اللّبّاد. أما الثقوب والحدبات المفروضة عليه بسبب رضوض وتلوّيات الجسد المُختلفة، فيمكن القول بأنها بقيت هادئة، في اللحظة الحاضرة. هذا كلّ ما يتعلق بالمعطف. سأسرد على نفسي فيما بعد قصصاً عن الأحذية، إذا فكرت بذلك. أمّا القبّعة المنفوخة بكبرياء، القاسية كالفولاذ، بحوافّها الضيقة الملفوفة، فتحمل فتحة كبيرة عند مؤخرة الرأس، من المحتمل تماماً أن تكون صنعت هكذا لكي تسهّل استقبال الجمجمة. فالمعطف ذاك وهذه الطاقيّة يتمتَّعان بشيءٍ مُشترك، بمعنى أنه إذا كان الأوّل كبيراً، فعلى الأخرى أن تكون صغيرة تماماً. ومع أنّ ذوبانهما بهذه الطريقة

يجعل الحواف بمثابة فكوكٍ فَخّ، غير أنّه لا بدّ من وجود خيطٍ يربط، من أجل أمان أكبر، الطاقيّة بأول زر من المعطف، انطلاقاً من الأعلى، لأنه، لا أهمية لذلك. لكن لم يبق أيّ شيء يُقال عن بنية تلك الطاقيّة، أيّ قول يهمّ، أنا أتحدث الآن بطبيعة الحال عن لونها، الذي لا يمكننا القول عنه أكثر من أنه يُظهِرُ في عزّ الظهيرة انعكاسات صفراء ضعيفة وما يشبه رماديَّ اللؤلؤة وإلّا فإنّه يميل نحو الأَسْوَد، من دون بلوغه واقعياً. ولن يكون ثَمَّة ما يُدهش لو أن تلك الطاقيّة كانت تعود في الماضي لرياضيٍّ ما، أو لواحد يبحث عن الكمأة أو مُربٍّ للجِداء. والآن إذا ما تأمّلناهما، ليس بشكل منفصل، وإنما ضمن علاقتهما الواحد بالآخر، سوف نفاجأ قليلاً بأنّ هذا المعطف وتلك الطّاقيّة ما زالا متزاوجين بطريقة جيدة. كم بمقدور المرء القول بأنه كان في الإمكان بيعهما، واحدٌ إلى خيّاط، والأخرى إلى بائع قبّعات، في المرحلة ذاتها، وربما في اليوم نفسه، من قبل الداندي dandy نفسه فقد كان هناك رجال وسيمون بطول ست أذرع ومن الأصلين. ذلك ما يولّد لدى المرء لذّةً وهو يرى تلك العلاقات الراسخة بالرغم من شيخوخة الأطراف سويّة، إلى حدٍّ يدفع بالمرء نحو التخلّي، كنتُ على وشك القول عن خلود الروح، لكني لا أرى علاقة ذلك بهذا. لكن إذا كنّا نرغب في المرور بالملابس حرفياً، التحتية والحميميّة حتى، لأن ما رأيناه إلى حدّ الآن هو الظاهر في الهواء، وفي الأماكن العامة، من الصعب أنْ نقول عنه شيئاً يمكنه التقدم بأمان، في هذه اللحظة، يخص موضوعه. لأن سابو Sapo – كَلّا لم أعد أتحمّل تسميته هكذا، بل وحتى مساءلة نفسي كيف تحملت هذا الاسم حتّى الوقت الحاضر. لأنه حينئذ، لِنَرَ، لأن ماكمان Macmann، ليس أفضل أبداً، لكن ليس لدينا وقتٌ نضيّعه، لأن ماكمان سيكون عارياً كدودة تحت هذا الدِّثار الفضفاض، ولن يترك أيَّ شيءٍ يظهر على السطح. المُزعج هو أنه لا يتحرَّك. منذ الصباح وهو هناك، والآن إنّه المساء. وبعد ساعة يحلّ الليل. وفي المرفأ شرعوا في سحب آخر القوارب المسطحة، نحو المداخن السوداء والحمراء، المُكتظّة بالبراميل الفارغة. كما أخذت

المياه في الاهتزاز سلفاً، المنطفئة بطبطباتها، ثم صوت السقوط المُضطرب الذي يعرضُ ثانيةً الشهب البعيدة للغروب، الورديّة والخضراء. يُدير ظهرَه له، لكن الشّاطئ يظهر له ربما عبر صرخات النورس المُرعبة التي تجمَّعت في الليل بحكم ذروة المجاعة، عند أفواه المجاري، مقابل فندق بيلفي Bellevue. نعم، هي كذلك ترغب في التّباهي بنفسها، قبل أن تصل إلى الصخور الليلية، للمرة الأخيرة، فوق المزابل. لكن ما واجهه كان الناس، الذين يملؤون الشوارع في تلك الساعة، بعد انتهاء يوم عملهم، سيظلّون وجهاً لوجه معه طيلة الأمسية. كانت الأبواب، أبواب المكاتب، المخازن، والأبواب الأخرى يتقيّأ كلّ واحد منها بعارضِه. المجاميع التي أصبحت هكذا حرة بقيت للحظة بسماكتها، فوق الأرصفة، في الساقية، كأنهم مصعوقون، ثم تفكّكوا، كلٌّ اقتفى طريقَه المرسوم له. وحتى أولئك الذين كانوا يعرفون بأنهم منذورون للانطلاق في الاتجاه نفسه، لأن عددهم لم يكن كبيراً، شرعوا، في الأخير، في اقتفاء طرق يمكن للمرء سلكها؛ حتى هؤلاء سلّم بعضهم على بعضهم الآخر ثمّ غادروا، لكن بأدب، بعضهم قال إلى لقاء قادم ربّما، وبعضهم الآخر تعلّل بأنّ عليه السّياقة، أو أيّ عذر آخر، أو غادروا من دون أيّ تفسير، لأن كل واحد منهم كان يعرف، في نهاية المطاف، عاداته وعادات الآخرين وما مدى اعتباره لها. ويا لبؤس ذلك الذي كان يرغب في أن يقطع جزءاً من الطريق، في مجال الحرية، مع منْ يشبهه، مهما يكن، اللّهم إلّا إذا كان يتمتّع بحسن الحظ، في هذا المساء بالدقّة، بعد خروجه من الورشة، ثم إلى «كونتوار» البار، ويسقط على واحد آخر يتألّم من الحاجة نفسها. حينئذ يقومان، مع سعادتهما، ببضع خطوات سويّة، بعدها ينفصل أحدُهما عن الآخر، وربما يقول كلّ واحد منهما في نفسه، الآن يعتقد بأنّ كلّ شيء صار مباحاً له، أو من المحتمل أن يقول جملة قصيرة، وحتى غير مكتملة، على غرار تلك الجملة التي يستند المرء عليها وحدها ويرتاح من تفاصيل الحياة والمجتمع. في تلك الساعة إذاً، التي ينفتح فيها طريق الراحة والتسليات، يكون عدد الأزواج،

الذين لا تربط بين غالبيّتهم سوى العلاقات الإيروسية ربّما، قليلاً مقارنةً بالمعزولين، ومن ثمّ يقومون بحرث الشوارع والمفارق من جميع الجهات، ويتناسون الاقتراب من أماكن اللذة، واضعين أكواعهم فوق الحواجز، المتّكِئة من بعيد إلى أبعد على جدران البنايات. لكنهم لن يُضيّعوا وقتاً طويلاً حتى يصلوا إلى هناك حيث ينتظر بعضُ مَنْ في بيوتهم بعضاً آخَر في بيت غيرهم. الآخرون في الخارج كما يُقال، في محلٍّ عام، أو مكانٍ لائق، وغالباً ما يكون ذلك مدخلاً أو مُلحقاً، برفقة المطر كغرض. ومن بين هؤلاء لا يشكّل عدد الأوائل الذين وصلوا غالباً سوى عددٍ صغير، لأن الجميع يتزاحم بعضهم نحو الآخر، وهم يعرفون بأنه لم يبق لهم إلّا الوقت القليل لكي يقول ما يجثم على قلبه، ومعدته ولكي يقوم بالأشياء التي يمكن القيام بها سويّة، تلك التي لا يمكن للمرء فِعلُها وحده. وها إنّهم سيبقون لعدة ساعات في أمان. بعدها سيأتي النوم، ودفتر الملاحظات الصغير الذي يتمتع بقلمه، له وحده، وتصبحون على خير وهو يتثاءب. كما يستأجر بعضٌ منهم عربةً بحصانَين من أجل الوصول إلى موعد اللقاء باكراً، أو، عند انتهاء الطقس الجميل، العودة ثانية إلى بيته، أو إلى الفندق، أو إلى سريره الذي ينتظره بلطف. حينئذ نرى الحصان، يسحبُ تمرينه الصغير ما بين ماضي حصان للمتعة، أو السباق، أو من أجل المال، أو ملمحه، لدى الخواصّ الميسورين، والمسلخ. يقضي معظم وقته واقفاً في الانتظار، الإنهاكُ بادٍ عليه، والرأس منحنٍ إلى الحدّ الذي تسمح به عدّة الركوب، أيْ البلاط تقريباً. لكن السباق يحوّله، في مطلع كلّ شهر، ربما لأنه يوقظ فيه ذكريات، إذ لا يمكن أن يكون الركض والسحب وحدهما ما يُدخل الغبطة على قلبه، ضمن ظروف كهذه. غير أنه عندما تُرفع عنه الثقالات، مُحذرةً إياه بأنهم تمكنوا في النهاية من تبديل الزبون، أو على العكس من هذا عندما يدخل المسند في عنقه تقريباً، وفقاً للطريقة التي يجلس بها الزبون إذا كانت في اتجاه السير، أو عندما يأخذ وضعية أكثر راحة في عمق العربة، آنذاك يرفع رأسه ويُصالب باطني ركبتيه ويأخذ وضعية قانعة تقريباً. نرى

الحوذيّ أيضاً، وحدَه جالساً على مقعده بارتفاع عشر أذرع عن الأرض، مهما كان الطقس والموسم، وساقاه مُغَطّاتان أغلب الوقت بغطاء كستنائيّ بدائيّ، الغطاء نفسه الذي اقتلعه للتو من جسم بهيمته. إنه ساخط في الغالب ولونه يميل نحو اللون البنفسجي، ربما بحكم انتظاره الطويل للرحلة، كما أنَّ أقلَّ سباقٍ مدفوع يثيرُه حدّ الجنون. بيديه الضخمتين الحانقتين يسحب الألجمة، أو ينهض نصفيّاً وينحني إلى الأمام وينهال على عنق الحصان بضربة غاضبة. ومن ثم يطلق مركبه بطريقة عمياء في وسط الشوارع المزدحمة والمظلمة، وفمه يمتلئ بالشتائم. لكن الزبون العابر، بعد أن أعطى العنوان الذي يرغب في الذهاب إليه، وشعوره بأنه عاجز عن القيام بأيّ فعل حيال تطور الأحداث ولأنه محبوس في مقصورته المعتمة، قد يترك نفسه للشعور اللطيف بأنه لا يتحمّل أيّ مسؤولية، أو يحلم بالاقتراب منها، أو بتلك التي يودّ الابتعاد عنها، قائلاً في نفسه لن يكون دائماً الشيء نفسه، ثم يقول لها على الفور، لكن هذا كان دائماً الشيء نفسه، ذلك لأنه ليس هناك أربعمائة نوع من الزبائن العارضين. وهكذا يسرعُ، الحصان، الحوذي والزبون العارض، نحو المكان المُشار إليه، عبر أقصر الأزقّة أو القيام بدورات، أو من خلال جمهور الآخرين غير المرتاحين من جلوسهم. لكلّ واحد أسبابُه، وفي الوقت ذاته يسأل نفسَه عمّا تريد منه تلك الأسباب، وإذا كانت أسباباً جيّدة، لكي يذهب إلى المكان المطلوب وليس إلى مكانٍ آخر، أو بالأحرى ليس لأيّ مكان، والحصان بالكاد أقلّ حلكةً من الآخرين، بالرغم من أنه لن يعرف إلى أين يذهب حينما يتمّ فكّه. وإذا كانت حقاً العربة السمراء، ستكون هناك ظاهرة أخرى جديرة بالملاحظة، ألا وهي عدد النوافذ والزجاج التي تتوقّد للحظة، على شاكلة الغُروب تقريباً، مع أن ذلك يعتمد على الموسم أيضاً. لكن فيما يتعلق بماكمان، أوف، إنه هنا، في أمسية ربيعيّة حقاً، تهجم ريح مُعتدلة على الأرصفة، المحظورة بدِقّة ما بين الشطّ والأبنية العالية الحمراء، التي تشكل غالبيتها مُستودعات. أو ربما كان مساءً خريفياً مع تلك الأوراق التي كانت تحوم

في الهواء، لا أدري من أين أتت، لأنه هنا ليس ثَمَّة أشجار، ولم تعد الأوراق بمثابة طلائع السّنة، بالكاد خضراء، لكنها شائخة، وقد عاشت أيّاماً طويلة من الغبطة أثناء الصيف وفقدت أهميتها الآن، وما عادت تصلح إلّا كسماد، كذلك فإن البهائم ما عادت في حاجة إلى فَيء، على العكس، ولا العصافير إلى الأعشاش التي تبيض وتفرخ فيها، وحتى في المكان الذي لا يخفق فيه أيُّ قلب تظل الأشجار مطالبة بالتسويد، بالرغم من أنّ بعضها يبقى دائماً أخضر، بحيث يتساءل المرء مع نفسه ما هو السبب. أمّا بالنسبة لماكمان، فالأمر سيان إنْ كان ربيعاً أو خريفاً، اللّهم إلّا إذا كان يفضّل الصيف على الشتاء أو العكس، وهذا أقلّ احتمالاً. لكن سيخطِئُ المرء إذا ظنَّ بأنّه لن يتحرَّك أبداً، ولن يغيّر أبداً لا مِن مكانه ولا مِن موقفه، لأن الشيخوخة بكاملها ما زالت أمامه، ثم نوع من الخاتمة التي لا نرى فيها جيداً بما قد يتعلّق الأمر الذي لا يبدو أنه يضيف الشيء الكثير، والذي أصبح مُكتسباً سلفاً وليس بمقدوره حذف أيّ شيءٍ من التباسه، لكن لا بد أن يكون له نفعٌ ما، كما نقوم بتجفيف الحشيش قبل إدخاله إلى الدار. سوف ينهض إذاً، سواء أكان ذلك بموافقته أم لا، ومن ثمّ سيحصل على مكان آخر عبر معابر أخرى، ومن هذه إلى أماكن غيرها، وغيرها ثانية، إلّا إذا كان يفضل العودة ثانية إلى هنا، حيث لا يبدو منهكاً تماماً، لكن ليس هناك ما هو مضمون، وهكذا دواليك، وهكذا دواليك، عبر العديد من السنوات. حتى لا يموت المرء عليه الذهاب والإياب، إلّا إذا كان أحدهم يزوّده بالمؤونة في مكانه نفسه، مثلي أنا. كما بمقدوره البقاء يومين أو ثلاثة أو حتى أربعة من دون أن يتحرك، لكن ما أهمية الأيام الأربعة ما دامت أمامه شيخوخته بكاملها، ثم هناك تباطؤ التبخّر، قشّة. صحيح أننا لم نعرف بعد، ونعتقد الإمساك بالخيط، كلّ واحد منا، لكن هذه ليست النقطة التي يموت فيها الجدي، يموت بالقرب من الناس. إذ لا فائدة ترجى من جهل المرء لهذا الشيء أو ذاك، إمّا أن يعرف كل شيء أو لا يعرف أيّ شيء، وماكمان لا يعرف أيّ شيء، ولا يريد التمعّن في أيّ شيء سوى جهله لأشياء بعينها، من

نوع تلك التي تُفزعه، وهذا ما هو إنساني، بيد أن ذلك يمر بجانبه. بل إنه يقوم بحساب سيِّئ حتى، لأنه في اليوم الخامس عليه أن ينهض، وينهض بالفعل، لكن بأي مقدار من الألم الكبير مما لو أخذ قراره بالأمس، حتى أفضل من ذلك، ما قبل الأمس ولماذا يضيف إلى ألمه آلاماً أخرى، إذا كان حسابه سيئاً، لو كان حقاً قد أضاف، وذلك ليس بالأمر المؤكد. لأن اليوم الخامس، حينما يكون المقصود نهوضه، سيكفّ عن التفكير في اليوم الرابع والثالث، ولا يفكر إلّا بالألم الذي لحق به، وقد فقد نصف رأسه. وأحياناً لا نصل إلى ذلك، أعني وقوف المرء على قدميه، ومن ثم ينبغي أن يسحب نفسه حتى حقل الخضروات الأقرب، مستخدماً من أجل ذلك بضع كمشات من العشب، ويتشبّث بالأرض حتى يتمكن من سحب نفسه إلى الأمام، أو حتى شجيرات العاقول، حيث يكون هناك أحياناً أشياء طيبة تُؤكل، مع أنها حامضة، والتي تتغلّب على حقول الخضروات للسبب التالي: بمقدور المرء إخفاءُ نفسه خلفَها، وهذا ما سيكون شاقّاً مع الأرض المزروعة بالبطاطا على سبيل المثال، خاصة في لحظة نضوجها، وغالباً ما تصادفه هناك أيضاً بعض الحيوانات الشرسة أو الخائفة، لكن قلّما تكون خبيثة، سواء كانت من صنف ذوات الرّيش أو ذوات الشَّعر، تلك غبطة صغيرة. وهذا ما سيكون مختلفاً لو كانت لديه الوسائل التي سيحصل بواسطتها، في يوم واحد، على المؤن التي تكفيه لمدة ثلاثة أسابيع وحتى شهر كامل، وهذاً لا شيء إلى جانب الشيخوخة برمتها، ودون الكلام عن المنشفة، بؤس. لكنها لم تكن لديه، وحتى لو كانت لديه، فلن يعرف كيف يستفيد منها، لكثرة ما كان يظن بأنه بعيد عن يوم الغد. بلا شك ما عاد يؤمن به، لطول انتظاره له عبثاً. وربما كان الأمر كذلك في لحظته هناك حيث يكون العيش والتيه هما الوحيدان الباقيان في عمق لحظة بلا حدود، لا يتغير فيها النور ولا الزبد يشبه ذاته. العينان الزرقاوان لا تكادان تختلفان كثيراً عن بياض البيضة يُثبتان المجال الممتدّ أمامهما، والذي سيصبح حينها الهدوء الأبدي للمهاوي. لكنهما من بعيد إلى بعيد تنغلقان ثانية، بالنعومة المُباغتة للأبدان

المُتراصة بلا غضب، وتنطوي على نفسها. حينئذ نرى البؤبؤين الشائخين، الحمراوين والمدعوكين، اللّذَين يجدان صعوبة بالاتصال الواحد بالآخر، لأن هناك أربعة منهم، اثنان لكل lachryme. وربما سيرى حينها سماء حلمه القديم، الرحلات البحرية والأرض أيضاً، وتشنجات الأمواج التي لا تتحرك من دون تحرك الأمواج الأخرى بالقدر ذاته، وحركة البشر المُختلفة تماماً على سبيل المثال، غير المشدودين بعضهم بالآخر، لكنهم أحرار في ذهابهم وإيابهم، كلّ واحد وفقاً لطريقته. ولا يرتكبون خطأ وإنما يذهبون ويعودون، ضمن ضجة ثرثرتهم بصوت الانفصال بتفاصيله الضخمة، كلّ واحد من جهته. وإذا مات أحدهم سيواصل الآخرون، وكأنه لم يحدث أيّ شيء.

أشعرُ

أشعرُ بها تأتي. كيف الحال، شكراً، هذا يأتي. كنتُ راغباً في التأكد من ذلك، قبل تسجيله. بدقّة حتى النهاية، ذلك هو مالون، فوق حصان على شعر الرأس. بالتأكيد أرغب في قول الشعور الوشيك، لأنني لم أشكّ يوماً بأن ذلك سيأتي عاجلاً أم آجلاً، ربما باستثناء الأيام التي بدا لي فيها كأنه وصل سلفاً. لأنه كان بمقدوري سردُ القصص، لكن في العمق لم أكف عن الاعتقاد بأني حيٌّ بفضل حياة هواء الأرض، حتى في الأيام المليئة ببراهين ما هو عكس هذا. عما قريب، يعني من هنا إلى ثلاثة أو أربعة أيّام، لكي أتكلم مثلما علّموني أسماء الأيام التي تدهشني قلة عددها، ورفعت أصابعي الصغيرة صارخاً، بعد! بعد! ودلالة قيمة الساعات، ما معنى هذا، يومين أو ثلاثة، في نهاية المطاف، أكثر أو أقل، مزاح. لا شيء، لكن ينبغي اللعب كخاسر، للحفاظ على الصحة، ومن ثم كان عليَّ المواصلة كأنه كان عليَّ البقاء حتى عيد سانت جون –Saint Jean، لأني أعتقد بأني وصلت إلى ما يسمونه شهر ماي، لا أدري لماذا،

أعني لماذا كنتُ أظن بأني وصلت إليه، لأن ماي متولد عن مايا car mai vient de Maia، الخراء merde، احتفظت بهذا أيضاً في ذاكرتي، إله الخصوبة والغزارة، نعم، كنت أعتقد بأني وصلت إلى موسم الخصوبة والغزارة، مجرد اعتقاد بسيط، بالخصوبة على الأقل، لأن الغزارة لا تأتي إلّا فيما بعد، مع الحصاد. الهدوء إذاً، الهدوء، ليس هذا سوى شعاع، سأكون هنا حتى عيد توسانت Toussaint، وسط الخزاميات، كَلّا، هنا أبالغ قليلاً، هذه السنة لن أسمعها وهي تنوح في مدافنها. ومع ذلك، أن يشعر المرء نفسه مَعروضاً هكذا، شيء مُغرٍ. كلّه يسحب نحو البحر الأقرب، خاصة قدمي، سلفاً في الأوقات العادية أشعر بهما بعيدتين تماماً عنّي مقارنة بالباقي، عن رأسي أقصدُ، ففيه كنتُ قد التجأتُ، من دون أيّ خطأ، تجعلني قدمي أحسّ كأنهما في أماكن عديدة، ولكي أسحبها نحوي، من أجل العناية بهما أو تنظيفهما، يبدو لي بأنه لا بد من شهر للانتهاء من المهمة، انطلاقاً من اللحظة التي أكون قد حددت فيها مكانهما. شيء غريب، ما عدت أشعر بقدمي، لقد تركهما الإحساس بطريقة رحيمة، وبالرغم من ذلك أشعر بأنهما بعيدين أبعد من متناول التلسكوب الأكبر قوة. أم سيكون هذا ما يسمونه وَضْعَ قَدَم في القبر؟ وكلّه إلى الأمام، ذلك لأن الأمر لا يتعلق إلّا بظاهرة محلّية لم ألاحظها أنا نفسي، لكثرة ما كانت تتابع أو تتلاحق مجموعةٌ من الظواهر المحلّية، رغم أنها لم تؤدِّ إلى شيء. لكن أصابعي أيضاً تكتب من فوق ذرى أخرى، والهواء الذي يشمه دفتري بقلبه للصفحات من دون علمي، حينما كنت أنعسُ، بحيث يبتعد الفاعل عن الفعل والمفعول به يأتي لكي يطرح نفسه في الفراغ، فذلك الهواء ليس هواء المسكن ما قبل الأخير، وهكذا هو الأمر. ومن فوق يدي ربما لمعان ظل الأوراق والزهور واللطخات الواضحة للشمس المَنسيةِ. الآن عضوي الجنسي، أعني أنبوبه بالذات، وبالخصوص رأسه، الذي انزلق حينما كنتُ صبياً بكراً في رزم صادمة، ضربتني على وجهي فوراً، الواحدة بعد الأخرى، لكنها كانت متقاربة جداً من بعضها بحيث

يحسبها المرء ضربة واحدة متواصلة، طيلة الوقت الذي أخذه ذلك ومعه قليل من البول، من حين إلى آخر، وإلّا لكنت متّ من تسمّم الدم بالبول، ولم أعد راغباً في رؤيته بالعين المجردة، ليس لأن ذلك يهمني، وإنما لأني رأيته بما يكفي، ولأننا رأينا بعضنا كثيراً، العين في العين، قلت كل ذلك لكي تعرفوا. لكن هذا ليس كلّ شيء فليست أطرافي وحدها من يغادر، كلّ واحدة وفقاً لقطبها الخاص، بل أبعد من ذلك. فمؤخّرتي، على سبيل المثال، لا يمكن اتهامها في مطلق الأحوال بأنها نهاية لأيّ شيء، إلّا إذا لم يرغب أحد في رؤية نهاية الشفرتين، إذا ما شرعت في التغوّط في الساعة الحالية، وهذا ما سيدهشني، أعتقد حقاً بأن نشارتهما ستصل حتى أستراليا Australie. وإذا كان عليَّ الوقوف ثانية، وهذا ما يقيني الله شرّه، فسوف أملأ الجزء الأكبر من الكون، كما يبدو لي، أوه ليس وأنا ممدّد، بيد أن ذلك سيكون ملحوظاً أكثر. فقد لاحظتُ دائماً بأنّ الوسيلة الأفضل في تجنب الملاحظة تكمن في تمدّد المرء على بطنه وعدم التحرّك هناك. لكن ها إنّي، أنا الذي كان يفكر دائماً بأنّه سيرحل يوماً متعفّناً وجسدهُ مُقلّصاً حتى الشذرة الصغيرة التي سيدفن فيها، أتمدّد. ذلك لأن ما هو جوهري، حتى أتكلم مثل جاكسون، أصبح من الصغر بمكان يبدو معه العابر كأنه بلا حدود، وما أعنيه بالجوهري لا بد أن يكون ذلك الرأس الخنزيري الصغير، المدفون في رأسي الحقيقي كما أعتقد، الذي لم ينحنِ بعد، عبر حطام رأسي المُنحني، الصغير حقاً، مع أنّي لا أرى ما الذي جاء لأجله الجوهري والعابر هنا، لا أفهم حقاً، وربما يكون هذا الأخير هو ما تقلص بحجم فراشة، فيما تمدّد الآخر كظل، وذلك ما كان عليه قوله ربما. لا أهمية لذلك، فالجوهري هو الآن بين أيدينا، أعني بأنّه بالرغم من قصصي ما زلت متمسكاً بهذه الغرفة، لنُسمِّها غرفة، ألوذُ بها، وأشعر بالهدوء فيها، بالقدر الذي يسمح به الوقت. وإذا ما وافتني المنية يوماً، لن يكون ذلك في الشارع، ولا في المستشفى، لكن هنا، وسط ممتلكاتي، وإلى جانب هذه النافذة التي أقول عنها أحياناً بأنها مجرَّد ذرِّ رمادٍ في العيون كسقف

تيبولو Tiepolo في فرتسبيرغ Würzburg. أيَّ سائح كُنتُ! وحتى نقطة الفصل ما تزال لديّ، لكنها ليست نقطة فصل حقيقيّة. لو كان بمقدوري التأكد من ذلك وحسب، لتحدثتُ من جديد عن سرير موتي. مع ذلك، كم عدد المرات التي رأيت فيها، عبر تطلعي من الباب، ذلك الرأس الصغير وهو على وشك الخروج، في مستوى الركبتين، لأنّ وزني ثقيل، مع أني كنتُ عظيماً، والباب مُنخفضاً، ويزداد انخفاضه من وجهة نظري. وفي كل مرة كان يصطدمُ بإطار الباب، ذلك لأني طويل وقُرص الدرج صغير، كذلك لم يكن بمقدور الشخص الذي كان يحملُ قدمي الانتظار، ويحشر نفسه في السلم، وأكون متمدداً على طولي، أعني فوق قرص الدرج. وهكذا كان يصطدم رأسي بإطار الباب، حتمياً. غير أن الأمر ظل بالنسبة إلى رأسي سيان، في النقطة التي كان فيها، لكن ليس لمن يحمله والذي صرخَ، آه يا بوب على مهلك Eh Bob doucement! وربما كان ذلك بسبب الاحترام، لأنه ما كان يعرفني، ولم يعرفني، أو خشيةً منه أن يؤذي أصابعه. بان Pan! على مهلك! انطلق! الباب! ها إنّ الغرفة فارغة وجاهزة في نهاية المطاف، بعد تعقيمها، ومن يعرف قد تستقبل عائلة كبيرة العدد أو عاشقين شابّين. نعم، لقد حدث هذا في السابق، ولم يكن هناك سوى انتظار اللحظة السانحة لاستخدامها، ذلك ما قلته مع نفسي. لكني أقول لنفسي العديد من الأشياء، هل ثَمَّة ما هو حقيقي في برج بابل هذا؟ لا أعرف. لكني أعتقد وحسب بأنه لا يمكنني قول أيّ شيء إن لم يكن حقيقياً، أعني أنّه حدث لي سابقاً، وهذا ليس الشيء نفسه تماماً. نعم، ما أحبه في نفسي، أو واحداً من الأشياء التي أحبها في داخلي هو أن أقول في الأخير عاشت الجمهورية Up the Republic! على سبيل المثال. أو يا عزيزتي! ودون سؤال نفسي إن لم يكن من الأجدر السكوت أو قول شيء آخر، أجل، لم أفكر، لا من قبل ولا من بعد، وما كان عليَّ سوى فتح فمي لكي يشهد على قصتي القديمة وعلى الصمت الطويل الذي جعلني أخرسَ في النهاية، بحيث تمر كلّ الأشياء عبر صمت عظيم. وإذا ما صمتُّ يوماً، فذلك لأنه لم يعد هناك

ما يُقال، حتى وإن لم يُقَلْ كل شيء، أو لم يُقَلْ أيّ شيء حتى. لكن لندع هذه الأسئلة المرضية هنا ولنعد إلى تلك المتعلّقة بوفاتي، من هنا إلى يومين أو ثلاثة إن لم تخنّي ذاكرتي. في تلك اللحظة، سننتهي من مورفي، مرسيه، مولوي، موران وغيرهم من مالون، لكيلا يستمر ذلك حتى في القبر. لكن ليس هناك ظهر في الساعة الثالثة والعشرين، لنتوفَّ أولاً ثم سنفكر في الأمر. كم عدد الأشخاص الذين قتلتهم بضربهم على رؤوسهم وبإطلاق عيار ناري عليها. هكذا فوجئت بأني لا أرى سوى أربعة من الغرباء، ولم أعرف غيرهم أيّ أحد. أرغبُ في الرؤية، كما حدث لي هذا سابقاً، رؤية أيّ شيء، واحد من تلك الأشياء التي لم أتمكن من تخيلها. كان هناك أيضاً العجوز، في لندن أعتقد، وها إنّ لندن ثانية، نحرتُ عنقه بسكين. أصبحوا خمسة. نعم، أحتاج الآن إلى ما هو غير متوقع، بالألوان إذا كان ذلك ممكناً، سيفرحني هذا. ذلك لأني لن أقوم ربما إلّا برحلة واحدة، عبر القاعات الطويلة التي أعرفها، مع شموسي الصغيرة وأقماري التي أعلقها وجيوبي التي سأملؤها بالحصى لترميز البشر وفقاً للفصول التي يعيشونها، والتي لم يبق منها سوى واحد فقط، ذلك ما تمنيته. ثم سأعود إلى هنا، هذا شيء غامض، بعدها سوف أسأل نفسي عمّا يعوزني. سنعود جميعاً ربما، لكيلا نفترق بعد، ولا يتجسس بعضنا على بعضنا الآخر، في هذه الغرفة الصغيرة، المائلة نحو البياض والمقوّسة كأنّها حفرة من عظم العاج، وأيّ عاج كأنّه من شجر السبخ. أو أعود أنا ثانية، وحدي، وحيداً كما غادرت، لكني لا أعير هذا الأمر أهمية، لأني أسمعهم من الآن وهم يصرخون خلفي في الأروقة، متعثّرين بالحجارة ويتوسّلونني لكي آخذهم معي. ذلك ما قرّرته. لم يبقَ لديَّ من الوقت، إذا كانت حساباتي صحيحة، وإذا لم تكن صحيحة فلا بأس أيضاً، فأنا لا أطلب أكثر من ذلك، من جانب آخر، لم أقمْ بأيِّ حساب، ولم أطلب أيَّ شيء أيضاً. كان لديّ من الوقت ما يكفي لكي أقوم بدورة أخيرة، والعودة ثانية حتى أفعل كلّ ما ينبغي عليَّ فعله هنا، ذلك لأن ثَمَّة شيء هنا يتوجّب عليَّ القيام به، لكنّي لم أعد أعرف ما هو

على سبيل المثال، آه نعم، وضع نظام ما في ممتلكاتي، ثم شيء آخر غيره، لا أعرف ما هو، لكن ليس لذلك أهمية لأني سأتذكّره، في اللحظة اللازمة. قبل أن أغادر فقط بودّي العثور على ثقب في الجدار، تحدث خلفه أشياء خارقة للغاية، بلا توقّف، وغالباً ما تكون ملوّنة. يبدو لي بأنّي إذا ألقيت نظرة صغيرة أخيرة فسوف أرحل قانعاً نحو – كنت على وشك القول نحو سيتار Cythère، إذ من المؤكد بأن الوقت قد حان لكي يتوقّف كل ذلك. ففي نهاية المطاف هذه النافذة هي ما أرغب أن تكون، إلى حدّ ما، هذا هو بالضبط، لا تفسد نفسك. ألاحظ أولاً بأنها مُستديرة تماماً، إلى درجة تشابهها مع عين ثور، أو كوة سفينة. لا أهمية لهذا، إذا كان هناك شيء ما في الطرف الآخر. أرى أوّلاً الليل، وهذا يُدهشني، أتساءل في نفسي لماذا، لأني أرغب في أن أكون مُندهشاً، مرة أخرى إضافية. لأنه في بيتي ليس هناك ليل، أعرف هذا، هنا ليس ثَمَّة ليل على الإطلاق، مهما كانت مقدرتي على القول، لكن السّماء تكون غالباً أقل وضوحاً عمّا هي عنه الآن، فيما يكون الليل برمّته في الخارج، مع قليل من النّجوم، لكن بما يكفي لكي تشير إلى أن هذه السّماء السوداء هي بدقّة سماء البشر وليست مرسومة وحسب فوق الواجهة الزجاجيّة. كأنّ ذلك لم يكن كافياً لكي يُطمئنني بأن الأمر يتعلّق حقاً بالخارج، أضاءت النافذة المُقابلة، لأني لست من أولئك الذين يستطيعون رؤية كل شيء في لمحة واحدة، لكن عليَّ النظر طويلاً وترك الوقت للأشياء حتى تقطع المسافة الطويلة التي تفصلني عنها. وهذا ما يُشكّل في الحقيقة حظاً سعيداً وفألاً طيّباً، إلّا إذا كان هناك شيء قد صنعَ متعمّداً لخداعي، فقد كان في الإمكان عدم عثوري على أيّ شيء نافع، لكي يُعينني على ترك هذا المكان في عالم ما يزال مُغلقاً بطريقة سيئة، والسماء الليليّة حيث لا يحدث أيّ شيء، مع أنها مُكتظّة بالضوضاء والعنف. وإلّا ينبغي أن يكون الليل بأسره أمام المرء، لكي يقتفي السقوط البطيء ونهوض عوالم أخرى، إذا كان هناك منها، أو انتظار النيازك، إنّما أنا ليس لديّ الليل برمته أمامي. كذلك لا يهمني أمر معرفة ما إذا كانت قد

نهضت عند الفجر أو لا تزال صاحية ولم تنمْ بعد، أو أنها نهضت في منتصف الليل، لكي تعاود الغطس في النوم ثانية، وهذا يكفيني كي أراها تنهض الواحدة مقابل الأخرى خلف الستارة، المُعتمة، بحيث كان نورها معتماً هو أيضاً، إذا كان بمقدورنا قول ذلك، وخلق لها ظلّاً غير مُحدد المعالم، لأنها كانت مُلتصقة بشدة الواحدة بالأخرى، لحدٍّ يصحّ فيه القول بأنها كانت جسداً واحداً، وبالتالي ظلّاً واحداً. لكن عندما كانت تتمايل رأيت بأنهما كانا اثنين، كما كان بمقدورهما الالتصاق الواحد بالآخر قدر ما يشاءان، سيراهما المرء بالرغم من ذلك كجسدين مُتميزين عن بعضهما، ومنفصلين، كل واحد منهما مُغلقٌ ضمن حدوده، ومن ثم ليس لديهما أيّة حاجة أحدهما إلى الآخر، لكي يذهبا ويعودا، أو يظلّا على قيد الحياة، لأنَّ كلّ واحد منهما كان حيّاً كفاية، لكنه في معزل عن الآخر. وربما كانا يشعران بالبرد، لشدّة احتكاكهما الواحد بالآخر بهذه الطريقة، ذلك لأنّ الاحتكاك يؤدي إلى الدفء ويجعله يعود إذا غادرَ. كلّ هذا جميل ويُثير الفضول، أيْ ذلك الشيء الضخم والمُعقّد المصنوع من عدّة أشياء متمايلة ومهزوزة، لأنّهم ربما ثلاثة، لكنهم فقراء من ناحية اللون بالأحرى. بيد أنَّ الليلة كانت دافئة، لأنه ما إنْ رُفِعَت الستارة، إذ بباقة كاملة من الألوان الساحرة تنفجرُ، الورديّ الشاحب وبياض الجسد، ومن ثم ورديّ أكثر تألّقاً لا بدّ أنّه قد انبثق من إحدى الملابس، كما كان هناك من الذهب أيضاً والذي لم يكن لديّ الوقت لمعرفة من أين أتى. إنهم لا يشعرون بالبرد إذاً، ما داموا يقفون بهذه الملابس الخفيفة في وجه تيار هواءٍ كبيرٍ كهذا. آه، كم أنا غبي، لأني أدرك الآن بمَاذا يتعلق الأمر، لقد كانوا على وشك حبّ أحدهما الآخر، لا بد أن يكون الأمر كما يفعلون. طيب، لقد أراحني ذلك. سأنظر ما إذا كانت السماء ما تزال في مكانها دائماً، بعدها سوف أُغادر. كلّهم الآن أمام الستارة، ما عادوا يتحرّكون. هل من الممكن أن يكونوا قد انتهوا؟ كانوا يجامعون بعضهم وقوفاً، كالكلاب. سيكون بمقدورهم عما قريب الانفصال عن بعضهم. ولم يفعلوا ربما سوى التصفير، قبل

أن يهجموا على القطعة الضخمة. من الأمام، من الخلف، لا بد أن يكون ذلك شيئاً لذيذاً. يبدو أنهم يتألّمون. اذهبوا، اذهبوا، وداعاً.

حين باغته المطر وهو بعيد عن كلّ ملجأ، توقف ماكمان Macmann وانبطح على الأرض، قائلاً في نفسه، ما دام السطح مُلتصقاً هكذا بالأرض سيكون جافّاً، فيما لو بقيت واقفاً سوف أكون مُبلّلاً من كل مكان، كأنّ المطر مسألة بضعة قطرات في الساعة كما هو الأمر بالنسبة إلى الكهرباء. ركعَ إذاً، بعد لحظة من التردّد، كان في إمكانه أن يبقى مُعلقاً، أو كالإجاصة المشطورة إلى نصفين، على أحد جانبيه. لكن بدا له بأن العنق والظهر وحتى الربلتين أقل هشاشة من الصدر والبطن، لكن دون أن يأخذ بعين الاعتبار أنّ كلّ تلك الأجزاء، تماماً كقفص من البندورة، مشدودة بقوة ولا يمكن فصل بعضها عن بعضها الآخر، حتى قدوم الموت بطبيعة الحال. كما لم يكن لديه أقل تصور عن أمور أخرى، أنْ تُحدِثَ قطرةُ ماء واحدة على سبيل المثال في عظمِ الذَّنَب تشنُّجاتٍ في عضلة الفكّ لسنوات عديدة، ذلك ما يتمّ ملاحظته عندما يقطع المرء حافيَ القدمين مستنقعاً ما، إذ يشرعُ ببساطة في البداية بالسعال والعطاس، ولا يشعر بأيّ شيء في ساقيه ما عدا الوضع المريح، الناتج ربّما عن رطوبة العَلَق المخلوط بالمياه. كان مطراً ثقيلاً، بارداً وشاقولياً، وربما هذا ما جعل ماكمان يفترض بأنه سيكون قصيراً، كأن ثَمَّة علاقة بين العنف والديمومة، ومن ثم سيتمكن من النهوض ثانية بعد عشر دقائق، أو ربع ساعة، وسيكون صدره مغطى بالغبار فقط. في الحقيقة إنّه نوع القصص الذي كان يسرده على نفسه طيلة حياته، قائلاً إنّه من المستحيل أن يدوم الحال هكذا لزمنٍ طويل. كان ذلك في ساعة ما بعد الظهيرة، يستحيل تعيينها بالدقّة، إذ سبقتها ساعات وساعات في ذلك اليوم الكئيب، كان إذاً ما بعد الظهيرة، على الأرجح، تماماً. كان الهواء ساكناً، مع أنه لم يكن بارداً كما هو الحال في الشتاء، لم يكن ينطوي على أيّ

وعود أو ذكرى عن الدفء. ولأنه لم يكن مرتاحاً من الماء الذي ملأ قُبّعَته، بمروره عبر الفتحة، رفعها ماكمان ووضعها على صدغه، أيْ أدار رأسه وأراحَ وجنته على الأرض. كانت يداه مشدودتين، ومتباعدتين عن بعضهما عند نهاية الذراعين، وكل واحدة منهما تقبض على كتلة من العشب، بقوة كأنه كان محشوراً في هاوية ما بين جبل وبحر. لنواصل هذا الوصف. دكَّ المطر أولاً وبضجّة جلد ظهره، وبعد قليل غسله، كما جعل الملابس ترقص في الغسالة، بضوضاء تشبه الغرغرة والامتصاص، ورأى بوضوح واهتمام كيف أن المطر مختلف، من زاوية نظر الصوت، عند سقوطه من فوقه وعلى الأرض، لأنه يتمتع بأذن كانت على مستوى خده نفسه تماماً أو تقريباً، ومُلتصقة بالأرض، وذلك ما هو نادر، عندما ينهمر المطر، كما سمع ذلك النوع البعيد من نواح الأرض التي تمتص أنين الأعشاب المطويّة والنديّة. مرت فكرة العقاب في ذهنه، في الواقع لقد أصبح معتاداً على ذلك الشبح الخرافي وربما يكون وضع جسده وأصابعه المتشنجة كما يحدث في حالة التعذيب قد أثّر فيه. ودون معرفته بدقّة ما هو ذنبه، شعر بأنّ الحياة لم تكن ألماً كافياً أو أنّ ذلك الألم في حدّ ذاته هو خطيئة، تستدعي خطايا أخرى، وهكذا دواليك، كأن هناك شيئاً ما غير الحياة، بالنسبة إلى الأحياء. وسوف يسأل نفسه بلا أدنى شك ما إذا كان على المرء أن يكون مُذنباً حقاً حتى تتم معاقبته، ودون أن تُخامر ذهنه الذكرى، التي لم تكفّ عن إيلامه أكثر فأكثر، بأنه كان عليه القبول بالعيش في بطن أمّه، ثمّ مغادرته. لكن هنا أيضاً لم يكن في إمكانه رؤية خطئه الحقيقي، إنما ألما آخر بالأحرى، لم يعرف كيف يتخلّص منه، بل ويجعله يغطس فيه بعمق أكبر يوماً بعد آخر. ولأقول الحقيقة، لقد اختلطت أفكار الخطيئة والعقاب في عقله كما تختلط في الغالب أفكار السبب والنتيجة في عقل أولئك الذين ما زالوا يفكّرون. كذلك كان يرتجف من الألم وهو يقول لنفسه، سيكلفني ذلك غالياً. لكنه بدلاً من أن يتعلم كيف ينبغي عليه تدبير حاله، لكي يفكر ويحيا بطريقة مقبولة، صار يبتسم بلا سبب، مثلما يفعل الآن، أو كما فعل في

السابق، ذلك لأنه مضى وقت على فترة ما بعد الظهيرة تلك، في شهر مارس ربما، أو نوفمبر، كَلّا، في شهر أكتوبر بالأحرى، في اللحظة التي باغته فيها المطر، بعيداً عن أيْ ملجأ، صار يبتسم ويشكر المطر المُنهمر ويُمنّي نفسه برؤية النجوم عما قريب، لكي تضيء له دربه وتخوله بتوجيه مساره، في حال رغب في ذلك. لأنه لم يكن يعرفُ بالدقة أين هو، ما عدا كونه في الوادي، وبأن الجبل لا يبعد كثيراً عنه، ولا البحر ولا المدينة، وبأن الأمر سيكون كافياً مع قليل من غبار الوضوح وبضعة نجوم ساكنة لكي يقترب أكثر من هذا الشيء أو ذاك، أو الثالث، أو أن يبقى في الوادي، تبعاً لما كان قد اتخذ قراره في شأنه. لأنه إذا أراد البقاء في المكان الذي يجد نفسه فيه من الضروري أن يكون هناك وضوح أيضاً، إلّا إذا آثر الدوران حول نفسه، وهذا مستحيل تقريباً في الظلمة، أو التوقف بحسم وعدم التحرك قطعاً بعد ذلك، إلى أن يعود ثانية الضوء، حينها سيموت المرء من البرد، إلّا إذا كان الجو غير بارد. غير أن ماكمان كان أكبر مما هو إنسانيّ، بعد أربعين أو خمس وأربعين دقيقة من الانتظار الواثق، رأى بأن المطر واصل الهطول بالقوة نفسها التي مضى بها النهار، لو لم يكن قد شرع بتوجيه اللوم لنفسه عمّا قام به، أيْ تمدّده على الأرض بدلاً من مواصلة دربه، بخط مستقيم قدر الإمكان، مع أمل سقوطه آجلاً أو عاجلاً على شجرة أو بقايا حطام. وعِوَضَ أن يندهش من ذلك المطر الطويل العنيف، اندهش من عدم قدرته على الفهم، منذ سقوط القطيرات الأولى وبأن الجو سيستمرّ بمطر طويل عنيف، ومن ثم ما كان عليه التوقف والتمدّد، ولكن العكس، هو مواصلة المشي إلى الأمام، بطريقة عمياء، وبتسريع خطواته قدر الإمكان، لأنه لم يكن سوى إنسان، ابن وحفيد بشر. لكن ما بينه وبين الرجال الجدّيين القساة، ذوي اللّحى أولاً، ثم الشّوارب، ثَمَّة فارق، يكمن في أنّ مَنِيَّهُ لم يُؤذِ أحداً في يوم من الأيّام. لأنه لم يحتفظ من جنس أسلافه إلّا بالصفات السامية، مع أنهم كلهم ماتوا، مُتخيِّلين بأنّهم سيواصلون البقاء. والحصول على الأحسن وإن كان مُتأخراً أفضل من عدم الحصول عليه أبداً، لكي يسمح الرجال

الحقيقيون، والحلقات الحقيقية، بالتعرف على خطاهم، النهوض مبكراً والرّكض مباشرةً نحو الخطأ التالي، كلّ ذلك لم يكن ماكمان قادراً على تحمله، هو الذي كان يظن أحياناً بأنه في حاجة إلى الأبدية لكي يمارس نشاطه، والتمرّغ في أخلاقه. وحتى لو لم يذهب إلى هذا الحد، الذي انتظر طويلاً وسينتظر دائماً، وإذا تجاوز مدة زمنية بعينها، فلن يحدث أيّ شيء، ولن يقدم أحد، ولن يلوح له سوى ذلك الانتظار الذي يعرف بأنه عبثيّ. ربما كانت تلك حالته. وحين يموت المرء (على سبيل المثال) سيكون ذلك مُتأخراً، فقد انتظر طويلاً، ومن ثم لن يكون قادراً على العيش أطول لكي يتوقف. ربما كان عند هذه المستوى. لكن يمكننا القول كَلّا، مع أننا لا نحسب أبداً حساب الأفعال، أعرف، أعرف، ولا حتى ما يمرّ في الرأس. نعم، سوف نقول حقاً كَلّا. لأنّه عندما آخذَ بلوم نفسه على ما قام به، وعلى خطئه المُفزع فيما يتعلق بالتقييم، الذي جعله، بدلاً من أن ينهض ويواصل سيره، يدير ظهره، وهذا ما عرَّضَ كلّ مقدمة جسده إلى فيضان المطر. حينئذ ظهرت بوضوح، للمرة الأولى شعرات رأسه بخصلاتها العارية، في قريته الضاحكة، فيما بقيت قبّعته في المكان الذي غادره فيه رأسه. لأنه إذا ما انبطح المرء على بطنه في مجال وحشي وبلا حدود تقريباً، حينها يستدير على ظهره، أيْ أنه قام بحركة موضوعية لكل جسده، انطلاقاً من الرأس حتى البقية، إلّا إذا تعمّد تجنّبه، حينئذ يأتي الرأس لينطرح في X من البوصات التي كانت قريبة من المكان الذي كان فيه، إنّ X هو بمثابة عرض الكتفين مقاساً بالبوصات، فالرّأس قائم في مركزه بين المتنين. لكن إذا وجد نفسه في سرير ضيِّق، أعني واسع بما يكفي لكي يستقبله أيّ بائس، آنئذٍ يمكنه الاستدارة حول ظهره كما يُشتهي، ثم على البطن، وهكذا دواليك، بيد أنَّ الرأس سيظلُّ دائماً في محلّه، إلّا إذا جعله يتمايل عن قصد، تارة نحو اليمين، وتارة أخرى نحو اليسار، ومن المؤكد أنَّ هناك أناسٌ يحمّلون أنفسهم مشقة القيام بذلك، على أمل العثور على القليل من الرّطوبة. حاول النظر إلى تلك الكتلة السوداء الراشحة، التي كانت كلّ ما بقي من السماء والهواء، لكن

المطر كان يؤذيه فأغلق عينيه. حينها فتح فمه وبقي وقتاً طويلاً هكذا، الفم مفتوح وكذلك اليدين، متباعدتين الواحدة عن الثانية بالقدر الممكن. لأننا نميل قليلاً، وهذا شيء غريب، على التشبث بالأرض حينما يكون المرء منبطحاً على ظهره مما لو كان عليه وهو منبطحٌ على بطنه، تلك ملاحظة تثير الفضول كما يمكنها السماح بتطوير خصب. وكما فعل من قبل ساعة، شمَّرَ رُدنَيه ليمسك بكل قوته بالعشب، وبالطريقة ذاتها شمَّرَ عنهما ثانية، حتى يشعر بأن المطر يجلد الراحتين، اللتين نسميهما حفرة اليد أيضاً، أو المسطحين، نحن والظّرف. في الوسط تماماً – لكنّي كنتُ على وشك نسيان الشعر الذي كان من زاوية نظر اللون الأبيض تقريباً كسواد لون الساعة، التي كانت طويلة للغاية من الخلف، ومن الجانبين. وفي مناخ جافّ وعاصف كانت ستذهب لمداعبة العشب وكأنها العشب ذاته. غير أن المطر ثبتها على الأرض وعجنها مع العشب والتربة وجعلها عجينة طينية. وفي صميم عذابه، لأنه لا يمكن للمرء البقاء في تلك الوضعية وقتاً طويلاً من دون الشعور بعدم الراحة، شرع بالتمني في ألّا يتوقف المطر أبداً وبالنتيجة ألّا يتوقف عذابه أو ألمه، إذ من المؤكد تقريباً بأن المطر كان هو ما يعذِّبه، أما وقفته الطويلة، لم تكنْ تنطوِ في حدّ ذاتها على ما هو مزعج بصورة خاصة، كأنّ علاقة كانت بين العذاب وما يُسبب العذاب. ذلك لأنه كان في إمكان المطر التوقف من دون أن يتوقف عذابه، كما كان من الممكن أن يتوقف عذابه هو، لكن على الرغم من ذلك لن يتوقف المطر. كان قد لمحَ نصف الحقيقة المهمّة هذه. لأنه لم يكن بعيداً، مع ندمه على عدم قدرته قضاء الوقت الذي بقي له في الحياة (والذي كان في الإمكان اختصاره بطريقة لطيفة) تحت ذلك المطر الثقيل، البارد (لكن غير المُتجمّد)، العمودي الذي دفعه تارة إلى الركوع وتارة أخرى على ظهره؛ لم يكن بعيداً عن مساءلة نفسه إن لم يكن قد أخطأ في اعتقاده بأنه كان سبب عذابه. وإذا لم يكن هناك أسباب أخرى مختلفة تماماً لشعوره بالضيق. فهذا لا يكفي لإقناع الناس بالعذاب، لأنه من الضروري لهم أن يكون بسبب الحرّ

والبرد معاً، المطر وعكسه الذي هو الجو الجميل، مع الحب، والصداقة، البشرة السوداء والعجز الجنسي المتعلّق بالقنوات البولية مثلاً، باختصار حالات فزع وجنون مفرطة، لحسن الحظ كثيرة كي يتمكن المرء من إحصائها في الجسد بما فيه الجمجمة وحدودها، أتساءل ما الذي تعنيه قَدمٌ عوجاء مثلاً، لكي يتمكنوا من معرفة ما الذي يمنعهم من السعادة الصافية. ذلك لأن هذا واحدٌ من الأشياء التي لا يمكن للمرء تحمُّل الجهل بها بسهولة. كما رأينا بعض المتشدّدين الذين لم يتوقفوا عن البحث إذا كان عصعصهم في مقدمة مطلع المعدة، أو على العكس في المعي الاثني عشري. لكن هذه لم تكن سوى تهويمات لم يكن لدى ماكمان أجنحة للتحليق نحوها، فقد كان بالأحرى مخلوقَ أرضٍ أرضِيّاً بطبيعته، ويصعب عليه فهم العقل المحض la raison pure، ولا سيّما في الظروف التي تم تحدّده فيها لحسن الحظ. ولقول الحقيقة كان مزاجه أقرب للزواحف منه للعصافير كما كان بمقدوره تحمُّل حالات بترٍ واسعة من دون السقوط، كذلك كان يشعر بالراحة في الجلوس أكثر من الوقوف وبالتمدّد أكثر من الجلوس، بحيث كان يتمدّد ويجلس تحت أيّة ذريعة، ولا ينهض ويغادر إلّا إذا ما أشعل الـ struggle for life [الصراع لأجل الحياة – المترجم] أو الاندفاع الحيويّ élan vitale إلى مؤخرته. لا بد أن الجزء الأكبر من وجوده قد انقضى بالسكون الذي يشبه سكون الحجر، لكيلا نقول ثلاثة أرباع وجوده، وحتى أربعة أخماسه، سكون سطح في الأزمنة الأولى لكنه صار يتقدم تدريجياً حتى شملَ لا أقول الأعمال الحيّة إنما الفهم والحساسية. كذلك علينا أن نصدق بأنه تلقّى، عبر أمّه وأبيه، حصّته من أسلافه الكثيرين، وبمحض الصدفة السعيدة، منظومة نباتية تتحدّى أيّ امتحان، وذلك لأنه بلغ العمر الذي بلغه، والذي هو مهزلة بالنسبة إلى ما يمكنه بلوغه مستقبلاً، أنا من أقول هذا لنفسي، من دون بذور جدّية، أعني طبيعة تشطُبُه نظراً لكثرة الأموات. ذلك لأنه لم يأت أحدٌ أبداً لكي يعينه، حتى يساعده على تحاشي الأشواك والفخاخ المُنتشرة على طول طريق البراءة، لكنه لم يستخدم سوى قواه

ووسائله الخاصة لأجل الذهاب من الصباح إلى المساء، ثم من المساء إلى الصباح من دون جرح مميت. وبشكل ملحوظ لم يتلقَّ أبداً سوى القليل من العطايا، ذات القيمة الضئيلة، على شكل دراهم مدوّية، وهذا ما لا يجعلنا نستنتج بأنه عرف كيف يحصل عليها، من عرق جبينه أو باستعمال ذكائه. لكنه تلقى مهمّة عزق مربّع جزر طريٍّ مثلاً، أو فجل، بسعر ثلاثة أو حتى ستة بنسات للساعة الواحدة، كما كان يحدث له غالباً اقتلاع كل شيء، بسبب السهو، أو حتى سطوة لا أعرف أيّة حاجة مخبولة تقبض عليه ما إن يرى الخضروات، وحتى الزهور، والتي كانت تعميه حرفياً وتبعده عن مصلحته الحقيقية، حاجة تنظيف المكان وعدم الإبقاء تحت ناظريه سوى على قطعة من الأرض الكستنائية التي تخلصت من طفيلياتها، كان ذلك الأمر أقوى أحياناً من إرادته. أو حتى إذا لم نذهب إلى ذلك الحد، كله يصبح مضبّباً أمام عينيه ببساطة، أيْ أنه غير قادر على التمييز ما بين النباتات التي تستعمل لتجميل الدار أو تلك التي تُغذّي البشر والبهائم من الحشائش الضارة التي يُقال إنّها غير صالحة لأي استخدام، والتي لا بد أن تكون لها منفعة ما هي أيضاً، ما دامت الأرض قد منحتها الأفضلية، كالنجيل بالنسبة إلى الكلاب والتي تمكن البشر من الوصول إلى استخراج مشروب ما منها، ومن ثم سقطت الأداة من بين يديه. وحتى عندما رمى بنفسه مرة على أحقر أشغال تنظيف الطرق، قائلاً في سره قد تكون طبيعتي طينية من دون علمي، لم يوفق بصورة أفضل مُطلقاً. ومن ثمّ كان مرغماً على الاعتراف بأن المكان الذي كان قد كنسه صار أكثر وساخة عند مغادرته له مما كان عليه من قبل، كأن ثَمَّة شيطان كان يستخدم مكنسته، من مسحاته ومذراته، التي وضعت البلدية بلطف بين يديه، وطلبت منه الذهاب للبحث عن المزابل حيثما ألقت بها الصدفة وأخفتها عن نظر دافعي الضرائب ولكي يُضيفها إلى المزابل الأخرى المرئية، وبالتالي تتحدّد مهمّته في جعلها تختفي. لحدٍّ كانت فيه قشور البرتقال والموز وأعقاب السجائر، في نهاية نهاره، مرئية، وكذلك أوراق لا حصر لها، وسِرْجِينُ الكلاب والخيول وغيرها من الفضلات

مكوَّمة بعناية على طول الأرصفة، أو منقولة بحذر إلى أعلى الطريق، وذلك ربما لجعل الذين يمرّون من هناك يشعرون بأكبر قدر ممكن من التقزّز ولخلق العدد الأكبر من الحوادث، وبعضها مميت، بسبب الانزلاق. ومع ذلك، بذل بإخلاص جهداً كبيراً لكي يحصل على القناعة مع نفسه، وهو يتطلّع إلى عمل زملائه الأكثر خبرة منه، والعمل مثلهم. لكن الأمر برمته مرَّ وكأنه لم يكن قادراً على السيطرة على حركاته ولم يكن يعرف ما يقوم به، ما إنْ ينتهِ من فعله. إذ كان من الضروري أنْ يقولَ له أحدهم، لكن لتنظر إلى ما تفعله، وذلك بحشر أنفه فيه تقريباً، وإلّا ما كان قادراً وحده على الانتباه لذلك، لأنه كان يعتقد بأنَّه باشرَ عمَلَه كأيّ إنسان آخر ذي إرادة طيبة، وبأنه وصل إلى النتيجة ذاتها تقريباً، بالرغم من عَوَزِه للتجربة. في المقابل، الأشياء الصغيرة التي كان يفعلها لأجْلِه هو مثلاً عندما يقوم بتغيير أزراره التي تشبه العصا الصغيرة، والتي لم يكن عمرها طويلاً، لأنها كانت مصنوعة من أخشاب خضعت لكلّ مُتطلبات المناخ المُعتدل، كان كما يُقال بارعاً فيها، وذلك في غياب أيّ أداة. كما كان الجزء الأكبر من وجوده، يعني نصف أو ربع وجوده يشتمل على حركات تتلاءم مع جسده، الذي أمضاه في أشغال غير مدفوعة كهذه وإعادة فعلها ثانية بنوع من العبقرية. لأنه كان عليه القيام بذلك إذا ما كان يرغب في الذهاب والإياب، لأسباب غامضة لا يعرف بها الله وحده، مع أنّه ليس في حاجة لأسباب كي يفعل ما يفعله ويهمل ما يهمله، بدرجة مخلوقاته نفسها. لكن، منْ يعرف. هكذا بدا ماكمان Macmann، إذا ما تأمَّلناه من زاوية نظرٍ بعينها، عاجزٌ عن الحرث إلّا إذا دمّر كل شيء في روضة الأفكار أو الهموم، لكنه يعرف، مع كل هذا، كيف يُلمّع جزمته بالأعشاب الضالّة، لكي يتمكَّن من الذهاب والإياب من وقت إلى آخر على الأرض أنْ يجرح نفسه، بالحصى، بالأشواك وكتل القناني القادمة من الإسطبل أو خبث البشر، مُعبِّراً عن ذلك بنوع من التذمُّر، كان ضرورياً. ولأنه لا يعرف كيف ينتبه لطريقه واختيار الأماكن التي يضع فيها قَدَمَيه الواحدة بعد الأخرى (وذلك ما كان سيسمح له بالذهاب

عاري القدمين). كما كان بإمكانه تعلّمه، لو لم يكن يعرف بأنّ ذلك لن ينفعه في شيء، لكثرة ما كان عاجزاً عن السيطرة على حركاته. وما نفع اختيار الأماكن الطينيّة الناعمة ما دامت القدم تسقط جانباً، من فوق الصوّان والشُّدَف الزجاجية، أو الغطس حتى الركبتين في روث البقر. لكن الآن ولكي نمرَّ نحو اعتبارات أخرى، يمكننا أن نتمنّى لماكمان، ما دام التمني لا يكلّف شيئاً، الشلل الكامل ما عدا الذراعين إذا لزم الأمر ذلك، ويمكن تصوره، في مكان لا تخترقه الرياح قدر الإمكان، ولا المطر، ولا الضوضاء، ولا البرودة، ولا القيظ كما حدث ذلك في القرن السابع، ويمنع نور الصباح، مع وسادتين يمكن استخدامهما لمقاصد نفعية، مع روح مشفقة، لِنَقُلْ محمّلة أسبوعياً بالتفاح، ومعها سكّين وعلب سردين بالزيت مُخصّصة لدفع الموعد المُحتم إلى أبعد ما يكون من حدوده القصوى، وسيكون ذلك مُذهلاً. لكن أثناءَ الانتظار، لم يغير واقع تمدُّده على ظهره أيّ شيء، ولم يتوقَّفْ عنفُ المطر، لكن في الأخير تحرَّك ماكمان، بقذف نفسه نحو اليمين واليسار، كأنه تحت طائلة الحُمَّى، نازعاً تارةً أحذيته، لابساً إيّاها أخرى، أيْ أنه في النهاية صار يدور حول نفسه بالاتجاه ذاته دائماً، ليس من المهم معرفة أيّ اتجاه، مع وقفة قصيرة بعد كلّ دورة في البداية، ثم من دون توقف. من حيث المبدأ يُفترض بأنّ طاقيّته كانت تتبعه، ما دامت مربوطة بمعطفه، وخيطها يتلوّى فوق عنقه، لكن لم يكن الأمر كذلك، ذلك لأنّ النظرية شيء والواقع شيءٌ آخر، فيما بقيت الطاقيّة حيثما كانت، أعني في مكانها، كأنها شيء مهجور. لكنها قد تعود في يوم ما، يوم عاصف سيجدها يابسة وخفيفة ثانية، تركض وتتقافز في الوادي، وقد تصل إلى تخوم المدينة أو البحر، لكن ليس بالضرورة. الآن لم تكن المرة الأولى التي يتكوّر فيها ماكمان من على الأرض، لكنه كان يقوم بذلك دائماً بلا خلفية حركية. حينئذٍ، ومع ابتعاده عن المكان الذي فاجأه فيه المطر، بعيداً عن ملجئه، الذي جعله يواصل سيره على الحدّ الملائم من المجال بفضل الطاقيّة، أدرك بأنه كان يتقدم بانتظام وحتى بنوع من السرعة، وفقاً لقوس ضخم ربما،

لأنه كان يظن بأن أحد الطرفين كان أكثر ثقلاً من الآخر، من دون معرفة أيّهما، لكن قليلاً بالرغم من ذلك. وأثناء تدحرجه تصور ولمع مشروع مواصلة الدحرجة طيلة الليل إذا اقتضى الأمر، أو على الأقل حتى يستنفد كل قواه، وبالتالي اقترابه من حدود ذلك الوادي الذي لم يتوانَ، عن قول الحقيقة، عن مُغادرته، لكنه غادره بالرغم من ذلك، لو كان يعرفه. ودون أن يتباطأ في مشيه صار يحلم ببلدٍ مستوٍ تغيب عنه أيّ حاجة للنهوض أو الوقوف متوازناً، في الأول على القدم اليمنى مثلاً، وبعدها مباشرة على القدم اليسرى، وحيث سيكون بمقدوره الذهاب والإياب بمثل طريقة البقاء على قيد الحياة هذه، على شكل أسطوانة تتمتع بالذكاء والإرادة. ودون أن يذهب بالدقّة نحو أيّ مشروع مستقبلي...

بسرعة، بسرعة، ممتلكاتي. لتهدأ، لتهدأ، مرَّتين، لديّ الوقت، كلّ الوقت، كالعادة. قلمي الرصاص، قلماي الرصاص؛ ذاك الذي لا يبقى منه بين يديّ سوى النبالة، وقد خرجت تماماً من خشبه، والآخر، طويلٌ ومدور، في ناحية ما من سرير نومي، احتفظت به كاحتياط. لا أرغب في البحث عنه، أعرف أنه هناك، سيكون لديّ الوقت للبحث عنه ما إنْ أنتهي، وإذا لم أعثر عليه ثانية، لن يكون عندي، سأقوم بالتصليحات مع الآخر، إذا بقي منه شيء. هدوء، هدوء. دفتري، لا أراه، لكني أشعر به بيدي اليسرى، لا أعرف من أين جاء، فهو لم يكن معي عندما وصلت إلى هنا، غير أني أشعر بأنه يعود إليَّ. وهو كذلك، وكأن عمري ستّون عاماً. وقد يكون السرير أيضاً يعود لي، والمنضدة الصغيرة، الصحن، المزهريات، وخزانة الملابس، والأغطية. لكن كَلّا، لا يعود لي أيّ من هذه الأشياء. لكن الدفتر يعود لي، لا يمكنني تفسير ذلك. القلمان إذاً، الدفتر والعصا، التي لم تكن معي حين وصلت إلى هنا، ومع ذلك أمرها يعود لي. لا بدّ أنّي وصفت ذلك من قبل. أنا هادئ، لدي الوقت، غير أني سأصف هذا بأقصر طريقة ممكنة. إنه معي في السرير، تحت الأغطية،

في السابق كنتُ أحك نفسي به، قائلاً في سرّي إنه امرأة صغيرة. لكنه طويل جداً بحيث يخرج من تحت الوسادة، ويذهب بعيداً من خلفي. أواصل من الذاكرة. ظلام. بالكاد أرى النافذة. لا بدّ أنّها تركت الليل يمرّ ثانية. سيكون لديّ الوقت للصيد في أعمالي، وسأذهب بها إلى غاية سريري الواحدة بعد الأخرى، أو مجموعة منها في الوقت ذاته، فهي مُتعلقة الواحدة بالأخرى، كما يحدث ذلك في أغلب الأوقات للأشياء المهجورة، وقد لا أراها ثانية. في الواقع لدي الوقت ربما، لنتظاهرْ بأنّ لديّ الوقت، وأنّنا لا نعمل أيّ شيء. بيد أني كنت قد فحصتها ثانية وضبطتها منذ وقت ليس بالبعيد، في لحظة واضحة بالأحرى، وذلك كاحتياط لأجل هذه الساعة. لكن لا بدّ أنّي نسيتُ كل ذلك. كَلّا، ليس الكل، إذ من النادر نسيان كل شيء. إبرة لسع في سدادتين، لكيلا تلدغني أنا، لأنه إذا كانت النقطة المدبَّبة تلسع أقلّ من سمّ الإبرة، كَلّا، هذا لا يصلح، لأنه إذا كانت نهاية النبالة تلسع أكبر من عين الإبرة، فهذه الأخيرة تلسع بدورها؛ كَلّا، هذا لا يمشي أيضاً. حول الساق، بين السدادتين، ما زالت تتلوى بقايا خيط أسود مرئي. إنّه مادة صغيرة جميلة، تشبه – كَلّا، لا تشبه أيّ شيء آخر. خرطوم غليون، مع أني لم أستخدم أبداً غليون تبغ. لا بد أنّي عثرت عليه في مكان ما، على الأرض، أثناء تنقلّي. كان هناك، بين الأعشاب، مرمياً لأنه ما عاد يؤدّي أيّة خدمة، كما كان أنبوبه مكسوراً، تلك تفصيلة يستحضرها ذهني الآن، في النقطة التي يمتدّ منها الخرطوم. كان في الإمكان تصليح هذا الغليون، لكن لا بدّ أنّ أحدهم قال في نفسه، أوه، سأشتري واحداً آخَرَ. فقط لأني لم أعثر منه إلّا على الخرطوم. غير أنّ كلّ هذا ما هو إلّا فرضيات. ربما وجدته جميلاً، أو قد يكون لأنّي شعرت نحوه بنوع من الشفقة القذرة التي غالباً ما أشعر بها إزاء الأشياء، ولا سيّما الأشياء الصغيرة القابلة للنقل من الخشب أو الحجر، التي تولّد لديّ رغبة حملها معي والاحتفاظ بها دائماً، بحيث كنت ألتقطها من الأرض وأضعها في جيوبي، مع هطول دموعي غالباً، لأني واصلت البكاء حتى في عمري المتأخّر، ذلك لأنه لم يطرأ عليَّ أيّ

تطور من جانب العواطف، والانفعالات، حينما كنت أتجوّل بالصدفة، كما كنتُ أقول في نفسي غالباً ربما هي أيضاً في حاجة لي، وإلّا بقيت مُخالطاتي محصورة بالأفراد الطيّبين وبالتعزيات الناتجة عن اعتراف ما، لكني لا أعتقد ذلك. ولم أحاول أبداً، كما أتذكر، أثناء سيري، ويداي غاطستان في جيوبي، لأني أحاول وصف المرحلة التي كنتُ أمشي فيها بلا عصاً وبلا عكازات حتماً؛ لم أحاول أبداً لمس أو ملاطفة الأشياء الصلبة المُحدّدة القائمة في عمق جيوبي، كانت تلك طريقتي في الكلام معها طمأنتها. كما كنتُ أنام عن طيب خاطر ممسكاً حصاةً بيدي، أو حبّة كستناء هنديّة، أو تفّاحة من الصنوبر، وأظلّ ممسكاً بها حتى بعد يقظتي، وأصابعي معقوفة عليها، بالرغم من النعاس الذي تحوّل إلى خرقة، كي يستريح. وتلك التي تعبث أو أخريات قدمن لكي يَحُزْنَ على عاطفتي، فكنتُ أرميها، أعني كنتُ أبحث لها عن مكان آمنٍ وأتركُها هادئة هناك إلى الأبد، وحيث لا يمكن لأيّ شخصٍ العثور عليها إلّا عن طريق صدفة خارقة، لأن أماكن كهذه نادرة، كما كنت أضعها بعناية. وأحياناً كنت أدفنها، أو ألقي بها في البحر، بكل قواي إلى أبعد ما يمكن في الأرض، أيْ تلك التي كنتُ واثقاً من أنها لن تطفو حتى لوقت قصير. لكن حتى الأصدقاء المصنوعين من الخشب، رميتُ بعضهم إلى العمق مع ثقل حجارة. بيد أني فهمت بأنه ما كان عليَّ القيام بذلك. لأنه إذا ما اهتراً الخيط، فسوف يصعدون ثانية إلى السطح، إذا كان هذا الفعل قد تم إنجازه سلفاً، ومن ثم سيعودون من جديد إلى الأرض، عاجلاً أم آجلاً. هكذا كنتُ أصنع لنفسي أشياء محبوبة لم أعد قادراً على الاحتفاظ بها، بسبب علاقات عشق جديدة. وغالباً ما كنت أندم عليها. لكني كنتُ أخفيها بعمق بحيث لا أتمكن من العثور عليها ثانية. تلك هي الطريقة التي ينبغي العمل بها، ما دام لديّ وقت لأقتله. من جانب آخر، كانت هذه هي الحالة، وكنتُ أعرفها في العمق. وربما يكون الأمر طارئاً في نهاية المطاف. كان هذا هو انطباعي قبل ساعة. لكنها انطباعاتي. وإذا لم أكن قد أعرْتُ أهمية لذلك، أيْ لتذكّرُ ما بقي لي من الأشياء التي كانت

في حوزتي، عشر حاجات في أسفل الكلمة؟ إذاً، إذاً، لا بد مطلقاً من ذلك. حينئذ سيكون شيئاً آخَرَ. أين كنتُ؟ خرطومي. لم أتخلص منه إذاً أبداً. انتفعت منه كوعاء، وضعت فيه كومة من الأشياء، أتساءل ما الذي كان بمقدوري وضعه فيه، في مجال صغير كهذا، كذلك صنعت له غطاءً من الحديد الأبيض. إلى الشيء التالي. هذا ماكمان البائس. لم يُؤازرْني الحظ قطعاً في إنهاء أيّ شيء، ما عدا التنفس. لا ينبغي أن أكون طمّاعاً. لكن هل هذه هي الطريقة التي يختنق بها المرء؟ ينبغي الإيمان بذلك. وحشرجة الموت، ما الذي عليَّ فعله معها؟ ربما لم تكن صارمة في النهاية. مُستهلّ الصراخ، ثم عدم التوقف عن الحشرجة. ذلك ما يمكن للحياة تمريره باعتباره احتجاجات. لننطلقْ، ما هذه إلّا تفصيلة. أتساءل في نفسي ما الذي يمكن أن تكون عليه كلمتي الأخيرة، مكتوبة، والبقية تطير، بدلاً من بقائها. لن أعرف ذلك أبداً. ولن أكمل حتى هذه اللائحة، عصفور صغير قال لي هذا، روح القدس ربما، باسم البَبَّغائيّة. آمين. خرطوم على أيّ حال، لا دخل لي في الأمر، ينبغي قول ما هو كائن il faut dire ce qui est، من دون البحث عن الفهم، وحتى النهاية. هناك لحظات أشعرُ فيها بأني كنت هنا منذ الأزل، وربما ولدتُ فيه. وذلك ما يُفسر أشياء عديدة. أو العودة هنا بعد غيبة طويلة. بيد أن العواطف والفرضيات قد انتهت. هذا الخرطوم لي، مرة وإلى الأبد. إنه مُلطّخ بالدم، لكن ليس كفاية، ليس بالشّكل الكافي. دافعت عن نفسي على نحو سيِّئ، لكني دافعت عنها. ذلك ما أقوله في سرّي أحياناً. فردة حذاء صاعدة، لونها الأصلي يميل إلى الأصفر، لا أعرف لأيّ قدم، اليسرى من دون ريب، واحدة من نتوءاتي. الأخرى رحلتْ. أخذوها مني، في البداية، قبل أن يعرفوا بأني عاجز عن تحريك نفسي. وتركوا لي الأخرى، على أمل إذا ما رأيتها وحدها سوف أحزن. كذلك هم النّاس. أو قد تكون فوق خزانة الملابس. لقد بحثتُ عنها في كل مكان، مع عصاي في الواقع، لكني نسيت ما هو تحت الخزانة. ولأني توقفت نهائياً عن البحث عنها، لا فوق الخزانة ولا في أيّ مكان غيرها، لا هي ولا أيّ شيء آخر،

فهي إذاً لا تعود لي. لأنه لا يعود لي سوى الأشياء التي أعرف وضعيّتها جيّداً، أيْ التي أعرف وضعيّتها ما يجعلني قادراً على التقاطها ثانية، إذا ما اقتضى الأمر، ذلك هو التّحديد الذي اخترتُه، لكي أتمكن من تحديد ممتلكاتي، وإلّا لن أنتهي منها، لكن على أيّ حال لن أنتهي أبداً. لكنها لم تكن تشبه كثيراً – أُخطِئُ في الحديث عنها — أعني عن تلك التي كانت دائماً في حوزتي، الصفراء، والمُتميزة بكثرة عقدها، لم أرَ في حياتي أحذيةً بمثل كثرة العقد هذه، لا نفع في معظمها، بعد أن تحولت إلى شقوق، بعد أن كانت مجرَّد ثقوب. كل تلك الأشياء مركونة معاً في الزاوية، بطريقة عشوائية. كان بإمكاني الهجومُ عليها، حتى في هذه العتمة، وما كان عليَّ سوى الرغبة في القيام بذلك. وكنتُ قد حدّدت مكانها باللمس، وسالت الرسالة على طول عصاي، وهكذا كنت أصطاد الشيء الذي أرغب فيه، وأجلبه حتى حافة السرير، وسأصغي له منزلقاً أو قافزاً نحوي على طول أرضية البيت، أقرب فأقرب، وأقل فأقل قيمة، سأجعله منتصباً في السرير، لكن بانتباهي للنافذة والسقف، وفي النهاية سيكون بين يدي. وإذا ما كان ذلك الشيء طاقيّتي فسأضعها فوق رأسي، لأن هذا يذكرني بالأزمنة الطيبة القديمة، مع أني أحتفظ بذكرى كافية عنها. فقدت حافتها، وأصبحت تشبه جرساً على هيئة بطيخة. ولكي أضعها وأخلعها، على الإمساك بها بكلتا يدي، وأنا أشد عليها. ربما تكون الحاجة الوحيدة التي ما زالت لي، فأنا أتذكر جيداً تاريخها، أعني في اللحظة التي صارت فيها ملكيّتي. وأعرف ضمن أيّة ظروف فقدت فيها حافتها، لأني كنتُ هناك. كان ذلك لكي أنظر إليها في نومي. أحبُ أن يدفنوها معي، هي نزوة غير مؤذية، لكن كيف السّبيل للقيام بها؟ سيضعها Mémorandum كيفما يكون، ويغرزها بقوة، قبل تأخر الوقت تماماً. أتساءل ما إذا كان عليَّ المواصلة. أشعر بأني أنسب لنفسي أشياء ما عادت لي، وبأني ألبس أشياء خلّفها الراحلون، وهناك في النهاية أشياء أخرى غيرها مكوَّمة في الزاوية، وهي من الطراز الثالث كما يبدو، والتي أجهل كل شيء عنها، والتي في الأخير لا تدفعني نحو خديعة نفسي أو

التيقّن منها. كذلك ينبغي عليَّ القول بأنه منذ التدقيق الأخير لممتلكاتي مرَّت مياه كثيرة تحت جسر «بت برجد» Butt Bridge، ومن الجانبين. لأني بقيت حتى الهلاك في هذه الغرفة ومن ثم صرت أعرف أيّ أشياء تدخلها، وتلك التي تغادرها، لا أعرف بفضل أيّة وكالة. ومن بين تلك التي تخرج يعود بعضها، بعد غياب طويل نوعاً ما، وبعضها الآخر لن يعود أبداً. ومن بين تلك التي تعود، أشعر بأني مُتآلف مع بعضها، ولكن ليس مع بعضها الآخر. لا أفهم. ثَمَّة ما هو أكثر غرابة من ذلك، هناك سلسلة من المواد التي تبدو ظاهريّاً كأنّها لا تتمتع بأية علاقة مشتركة بعضها مع بعضها الآخر، والتي لم تغادرني أبداً، منذ أن جئت إلى هنا، وظلت هادئة في مكانها، في الزاوية، كأنها في غرفة مهجورة. أو أنهم دبّروا ذلك على عجل. كم هو زائف كلّ هذا. ومع ذلك، لا شيء يبرهن لي بأنّ الحال سيبقى دائماً هكذا. لا أفسر لنفسي بطريقة أخرى تغيير ممتلكاتي. ولا حتّى بهذه الطّريقة. لحدٍّ يستحيل عليَّ، إذا ما تكلمنا بدقة صارمة، معرفة، من لحظة إلى أخرى، ما يعود لي ولا ما لا يعود لي، وفقاً لتحديدي. حينئذٍ أتساءل ما إذا كان عليَّ المواصلة، أيّ تقديم لائحة ربما لن يكون لها سوى صلة ضعيفة بالواقع، أو ما إذا كان من الأفضل لي قطع كل ذلك، والبحث عن نوع آخر من التسلية، لا يعبأ كثيراً بالعاقبة، أو الانتظار ببساطة، وعدم فعل أيّ شيء، أو بالأحرى الشروع بالعدّ، واحد، اثنين، ثلاثة، وهلم جرا، بحيث لن أضجر في النهاية. ذلك هو معنى أن يكون المرء مُدقّقاً. ولو كنت أملك فلساً واحداً لأعطيته له لكي يتّخذ القرار. لسوء الحظ الليلة طويلة وبائسة من ناحية تقديم النصيحة. وإذا ما أصررت حتى طلوع الفجر؟ بعد أن أكون قد حسبت كل شيء. فكرة جيدة، ممتازة. وإذا ما بقيت حتى الفجر، سأعيد النظر بكل هذا. أنا نعسان. لكني لا أجرؤ على النوم. بعد كل هذه التصحيحات المتطرفة، إذا كانت تطرفات كهذه ممكنة. لكن ما الذي لم أتمكن من الوصول إليه؟ هيا، يا مالون، لن تبدأ بكل شيء من البداية. وإذا ما جعلت كل ممتلكاتي تأتي معي هنا في السرير مثلما هي عليه؟ هل سيكون هذا في

منفعة شيء ما؟ أفترض كَلّا. لكني ربما سأقوم به. أنا أتمتع دائماً بمثل هذا المصدر. حينما سأتمكن من الرؤية بشكل أفضل. حينها ستكون جميعها حولي، فوقي، تحتي، إلى جانبي، سأكون وسط ممتلكاتي، ولن يكون هناك أيّ شيء في هذه الزاوية، الكلّ سيكونون في السرير، معي. وسوف أمسك بصورتي بيدي، وأحجاري لكيلا تغادرني. وسأضع طاقيّتي. وربما سيكون شيء ما في فمي، دفتر اليوميات ربما، أو أزراري، وسوف أستلقي على كنز آخر. صورتي. إنها ليست صورة لي، ولكن ربما قريبة منها. إنها صورة حمار، مُلتقطة من الأمام وعلى قرب كبير منه، على ساحل البحر، إنه ليس البحر، لكن بالنسبة إليّ هو كذلك. لقد حاولوا جعله يرفع رأسه، بطبيعة الحال، لكي تنطبع عيناه الجميلتان على شريط التصوير، لكنه أصرّ على إبقائه مُطأطأ. وإذا نظر أحدهم إلى أذنيه، فسيعرف بأنه لم يكن راضياً. الساقان الهزيلتان والمتصلّبتان، المتوازيتان، وأظلافه الصغيرة التي تمس الأرض. أما الجوانب، فهي غير واضحة، لأن ضحك المُصور جعل الآلة تهتز. كما لا يبدو البحر طبيعياً، بحيث يمكن القول بأن الصورة التُقطت في الأُستديو. لكن ألا يمكنني قول عكس ذلك. اختفاء كل أثر للملابس، على سبيل المثال، ما عدا فردَتَي الحذاء، الطاقيّة، وثلاثة أزواج من الجوارب، كنتُ قد عدَدْتُها. أين ذهبت ملابسي، معطفي، سروالي من قماش الفانيلا الذي أعطانيه السيد «كِن» M. Quin، الذي جعلني أشعر بأنه لم يعد يحتاج إليه؟ ربما أحرقوها. غير أن الأمر لا يتعلق بما لم يعد لي، فكلّ هذا لا أهمية له في لحظة كهذه، مهما قال المرء. من جانب آخر، أعتقد بأني سأتوقف. أحتفظ بما هو أفضل لأجل النهاية، لكني لا أشعر بأني على ما يرام، سوف أغادر ربما، مع أن ذلك سيدهشني. إنه انهيارٌ مُفاجئ، الجميع يعرف هذا. ضعف، وسوف يمرّ، ستعود القِوى وسنستأنف. ربما ذلك ما حدث لي. أتثاءب، هل كنت سأتثاءب لو كان الأمر جدّياً؟ لم لا. وقد أكل طواعيةً قليلاً من العصيدة، كما يبدو لي، لو بقي منها شيء. كَلّا، حتى لو بقي منها، لن آكله. لا [على طريقة الأطفال – المترجم] Na. إنهم لم يغيّروا

عصيدتي منذ بضعة أيام، هل قلت ذلك؟ كان في إمكاني رفس طاولتي حتى الباب، سيعدونها بالقرب مني، جعلها تذهب وتأتي ضمن أمل سماع أحدهم لتلك الضجة، وتأويلها بشكل صحيح، منْ له الحق في ذلك، إذا ما تعلق الأمر بالنسيان، وبقاء الصحن فارغاً. بالمقابل، سيكون الوعاء ممتلئاً والآخر يمتلئ ببطء. إذا توصلت لملئهما معاً فسوف أفرغ كليهما على الأرضية، لكن حظوظي في ذلك ضعيفة. إذا لم آكل أيّ شيء سيكون خطر تسمُّمي أقلّ، وسيتحَّجر خروجي. لا يبدو أنَّ الوعاءَين يعودان لي، أنا أحظى بهما وحسب. ويدخلان ضمن التحديد الذي وضعتُه لما يعود لي وما لا يعود لي، لكنهما ليسا لي. ربما يكون التحديد هو السيِّئ. لكلّ واحدٍ منهما عروتان، تتجاوزان الحواف، وذلك ما سمح لي بتحريكما كما أشاء عن طريق زلق عصاي، رفعهما ووضعهما ثانية. كلّ شيء كان محسوباً. أو أنها الصدفة السعيدة. لن يكون صعباً عليَّ إذاً قلبُهما، إذا اضطررت إلى ذلك، وانتظارهما وهما يفرغان، مهما كان الوقت المطلوب. حديثي عن وعائي أعادَ لي شهيَّتي للأكل ثانيةً. إنّهما ليسا لي، مع ذلك أقول وعائي، مثلما أقول سريري، نافذتي، وكما أقول أنا comme je dis moi. بالرغم من هذا سأتوقف. ممتلكاتي هي التي جعلتني أنهار، وإذا استأنفت بعدها ثانية سأنهار من جديد، لأن الأسباب نفسها تولّد النتائج نفسها. كان بودّي الحديث عن غطاء طابع الدراجة الهوائية، عن نصف عكازي، النصف مع الوسادة، يمكن للمرء القول بأنه عكّاز رضيع. من ناحية أخرى، بمقدوري فعل ذلك، ما الذي يمنعني، لا أدري، لا يسعُني. لنقل بأني سأموت من الجوع، من الهزال بالأحرى، بعدما صارعت طيلة حياتي بنجاح هذه الكارثة. لا يمكنني تصديق ذلك. فهم يُقدِّمون للشيوخ العلف، حتى النهاية. وحينما لا يستطيعون تذوّقه، يقحمون في بلعومهم أنبوباً، أو في العصعص، ويسكبون فيهم حساء يحتوي على الفيتامين، حتى لا يتحمَّلوا مسؤوليّة موتهم. سأموت إذاً بحكم شيخوخة خالصة وبسيطة، مُشبعاً من الأيام كما كان ذلك قبل الطوفان، والبطن ممتلئ. ربما يعتبروني ميتاً سلفاً. أو

أنهم هم من مات. أقول هم، مع أني لا أعرف أيّ شيء في العمق. في البداية، لكن هل كانت البداية، لمحتُ امرأةً عجوزاً، ثم بعد مرور الوقت، رأيتُ ذراعاً صفراء شائخة، لكن من المحتمل ألّا يكون كل ذلك سوى تنفيذاً لأوامر إحدى الجمعيات. في الحقيقة، كان الصمت للحظات مطبقاً تماماً بحيث بدت الأرض كأنها خالية من قاطنيها. هذا ما يؤدّي إليه النّزوع إلى التعميم. إذ يكفي المرء عدم الإصغاء، وهو في ثقبه، خلال بضعة أيام، لضجّة أخرى غير ضجّة الأشياء، حتى يشرع في الاعتقاد بأنه آخر ما تبقّى من الجنس البشري. وإذا شرعتُ في الصراخ؟ فذلك ليس لأجل لفتِ الانتباه حولي، إنما لكي أعرف إن كان هناك أحدهم. غير أني لا أحب الصراخ. تكلّمتُ بهدوء، كما ذهبت بهدوء، دائماً بالطريقة ذاتها التي تليق بذلك الذي لا شيء لديه ليقوله ولا يعرف إلى أين هو ذاهب. لأنه في ظروف كهذه من الأفضل للمرء ألّا يلفت الأنظار من حوله. إذ من الممكن ألّا يجد المرء شخصاً في أحد المفترقات على بعد عشر خطوات، ثم يلتقي بكتلة كبيرة من الناس يَطأُ بعضُهم بعضَهم الآخر. لا يجرؤ المرء على الاقتراب منهم. في هذه الحالة أتعب رئتي من الصراخ والنتيجة خاسرة. لكني سوف أحاول. حاولت. لم أسمع أيّ شيء متهوّر. بلى، نوعٌ من الصرير الحارق في عمق أنبوب التنفس حينما يشعر المرء بالحموضة. مع مزاولة التمرين قد أنتهي بجلب انتباه أحدهم حيال نحيبي. النوم أفضل. لسوء الحظ غادرني النعاس. من جانب آخر، لا ينبغي عليَّ النوم. أيُّ ضجر. فاتني المضجع. هل قلت بألّا أقول سوى جزء ضعيف من الأشياء التي تعبر رأسي؟ لا بد أنّي قلت ذلك. اخترتُ من بينها تلك التي تبدو على صلة ببعضها. ذلك ليس بالأمر الهيّن دائماً. آمل أن تكون الأكثر أهمية منها. أتساءل مع نفسي هل سأكون قادراً على التوقف. لو كنتُ أنا منجمي. لن يكون لي أبداً من جديد. كما يمكنني الندم على ذلك فيما بعد. منجمي الصغير. كان من المجازفة ألّا أكون مستعدّاً للركض في تلك اللحظة. حينئذٍ كيف العمل؟ سألتُ نفسي ما إذا كنت قادراً على الوصول، باستخدام عصاي

ككمّاشة، زحزحة سريري. من الممكن تماماً أن تكون له عجلات، مثل الكثير من الأسرة. أمرٌ لا يصدق بأني لم أطرح على نفسي يوماً هذا السؤال، منذ الوقت الذي أصبحت فيه هنا. وقد أوفّق في جرّه حتى الباب، لأنه ضيّق تماماً، وحتى دفعه على النزول من فوق الدرج، فهناك درجٌ ينزل. وأرحل. يعيقني الظلام، بمعنى ما. لكن في إمكاني دائماً سؤال السرير ما إذا كان يدعُ نفسَه يُقتاد في حالة كهذه. يكفي الضغط بالعصا على الجدار ووزن ذلك. وها إنّي أرى نفسي سلفاً، إذا سارت الأمور، على وشك القيام بدورة صغيرة في الغرفة، في انتظار انقشاع العتمة قليلاً لكي أشرع في المغامرة. أثناء ذلك الوقت على الأقل سأكفّ عن سرد أكاذيب على نفسي. ثم بعد ذلك، من يدري، يمكن للجهود الجسدية القضاء عليَّ، بفضل سكتةٍ قلبيّة.

فقدتُ عصاي. أوّل حصيلة واضحة لهذا اليوم، لأن السماء أشرقَتْ من جديد. لم يتحرَّك السرير. أخطأت في اختياري نقطة الارتكاز، في الظلمة. بيد أن كل شيء بقي في مكانه، وهذا ما يعطي الحق لأرخميدس Archimède. كان في إمكان العصا، لو لم تنزلق، حملي خارج السرير، لو لم تفلت من يدي. كان يجدر بي التخلي عن السرير بدلاً من فقدان العصا. لكن لم يكن لديّ الوقت للتفكير في ذلك. لقد تسبّبت بالخشية من السقوط في حالات الجنون هذه. إنها كارثة. أن أعيشها ثانية، والتفكير فيها ثانية واستخلاص عبرة منها، ذلك ما أعتقد بأنه أفضل ما يمكنني فعله في الوقت الحاضر. تلك هي الطريقة التي يُميز بها الإنسان نفسه عن الكائنات البدائية ومن ثم يذهب، من اكتشاف إلى آخر، صاعداً دائماً نحو النور. الآن أدركُ، بعدما ضيعتها، ما الذي كانت عليه عصاي وما كانت تمثله بالنسبة إليّ. ومن هنا أنطلق، بمشقة، حتى فهم ما هي العصا Bâton، حينما تتخلص من كل الحوادث التي لم أتوقعها أبداً. وها إنّ وعيي يتسع بصورة استثنائية. لحد ما عدتُ فيه بعيداً عن رؤية

الشر، ضمن الكارثة التي حدثت لي للتو، كخير. ذلك ما يُعزّي المرء به نفسه. كارثة بالمعنى القديم أيضاً وبلا شك. بقاء المرء بارداً كالمرمر تحت الحِمَم، ومن هنا ندرك عن أيّ حطب يتدفّأ. إدراك معنى التمكن من فعل ما هو أفضل، إذا ما أخطأ المرء، في المرة القادمة، لن تكون هناك مرة قادمة، لحسن الحظ لن تكون ثَمَّة من مرة ثانية، ومن هنا يمكن للمرء التمتع للحظة. أعتقد بأني استخلصت الجزء الأكبر من رأس الذئب هذا، كالقرد، وهو يحتك بمفتاح قفصه. ذاك ما يجدر بالأحرى فعله. لأنه أصبح لديّ الآن واضحاً بأني كنتُ قادراً على سحب نفسي من السرير وربما حتى العودة إليه، بعد أن أكون قد تعبت من الجرجرة والسحب ومن ثم التدحرج على الأرض أو من فوق الدرج. وهذا قد يدخل شيئاً من التنوع على تحلّلي. كيف لم أحلم بذلك؟ في الحقيقة لم أكن راغباً في مغادرة سريري. لكن هل يمكن للحكيم عدم الرغبة في القيام بشيء إذا كان يرى ذلك ممكناً؟ لا أفهم. ربما الحكيم كَلّا. لكن أنا؟ ما زال ثَمَّة نور آخر، أو ما يسمونه كذلك هنا. لا بد أنّي قد غفوت بعد أزمة صغيرة من هبوط العزيمة، التي لم تحدث لي منذ وقت بعيد. إذ ما نفع هبوط العزيمة لدى المرء، هناك لصّ ينبغي إنقاذه، وهذا ما يخلق نسبة مئوية جميلة. أرى العصا مطروحة على الأرض، كَلّا، بعيدة عن السرير. أيْ أني أرى طرفاً منها، مثلما لا نرى من كل الأشياء إلّا ذلك. كأنها تقع على خط الاستواء. كَلّا، ليس بمثل هذه الدقة، لأني قد أعثر على وسيلة لالتقاطها ثانية، لفرط عبقريتي. لم يتم إذاً بعد فقدان كل شيء مرة وإلى الأبد. أثناء الانتظار، لا شيء يعود لي، وفقاً لتحديدي، إذا لم تخنّي الذاكرة، إلّا دفتري، منجمي وقلم الرصاص الفرنسي، إذا ما افترضنا وجوده واقعياً. حسناً فعلت بإيقافي للائحتي، كنتُ مُلهماً. أشعر بأني أقل ضعفاً، ربما كانوا قد غذوني أثناء نومي. أرى الوعاء أيضاً، ذلك الذي يمتلئ بعد، لم يعد بمقدوري القبض عليه. سيكون من المحتَّم عليَّ قضاء حاجتي في فراشي، مثلما كنتُ رضيعاً. على الأقل لن يكون هناك منْ يوبخني. لكن كفى كلاماً عني. قد يُقال بأن ذلك يُريحني أن أكون

بلا عصاً. لديّ فكرة أحاول ثانية تبصّرها. للتو فكرت في شيء ما. وإذا كانت نيّتهم، حرماني من الحساء، تقديم عون لي لكي أموت؟ نحكم بسرعة على الناس. لكن في هذه الحالة، ما فائدة إطعامي أثناء نومي؟ بيد أن هذا غير مؤكد. لكن إذا كانوا يرغبون في مساعدتي، ألن يكون من المنطقي إعطائي حساءً مسمَّماً، كثيراً من الحساء المسمَّم؟ ربما لأنهم يخشون التّشريح. إنهم من نوع الأفراد الذين يرون بعيداً، وهذا واضح. هذا يُذكّرني بأنه كان من بين ممتلكاتي قارورة لا تحمل ماركة وفيها عدّة حبوب طبّية. من المُسهّلات؟ أو المُعقّمات؟ ما عدتُ أذكر. أن أطلب منهم القليل من الهدوء ولا أحصل سوى على الإسهال، سيكون الأمر مزعجاً. من ناحية أخرى، السؤال لا يطرح نفسه. أنا هادئ، لكن ليس كفاية، ما زال يعوزني شيء من الهدوء. ثم كفى كلاماً عنّي. سأرى ماذا تريد، فكرتي عن رؤية عصاي ثانية. الحقيقة هي أنْ كنتُ ضعيفاً، ضعيفاً للغاية. إذا ما كانت لها قيمة شيء ما، سأحاول الخروج من السرير، لكي أشرع من جديد. وإلّا لن أعرف ما الذي عليَّ فعله. الذهاب لرؤية ما حل بماكمان Macmann ربما. يبقى لدي دائماً هذا المصدر. لماذا هذه الحاجة إلى التحرُّك؟ أصبحتُ عصبيّاً.

في يوم ما، بعد وقت طويل من ذلك، استعاد ماكمان إدراكه، إذا حكمنا عليه من ظاهره، في إحدى المصحّات. في البداية لم يكن يعرف بأنها مصحّة، لأنه كان منغمساً فيها، لكنهم أخبروه ما إن أصبح قادراً على تلقي معلومة ما. قالوا له ما معناه، أنت هنا في مصحّة سانت جان دو دييه Saint-Jean-de-Dieu، ورقمك هو ستمائة وستة وسبعون. لا تخشى أيّ شيء، أنت مع أصدقاء لك. هل تتخيلون! لا تنشغل بأي شيء، نحن منْ سيفكر ويعمل نيابة عنك من الآن فصاعداً. نحن نحب هذا. إذاً لا تشكر أحد. ما عدا وجبات الطّعام التي تبقيك على قيد الحياة، بل وتحافظ بفضلها على صحتك، سوف تتلقى، في كل يوم سبت، على

شرف رئيسنا، نصف بنتة [وحدة قيس تساوي 1.07 لتر - المترجم] من الجعة الملكية المحمولة مع شيك [قِطعُ تبغ للمضغ - المترجم]. كما عليه أن يكون مطّلعاً على حقوقه ووجباته، لأنهم كانوا ما يزالون يعترفون له ببعض الحقوق، بالرغم من طيبتهم إزاءه. اندهشَ من مخاطبتهم له باسمه الصغير كأنها شلال، ولأنه كان قد أفلت من يد جماعة البرّ والإحسان، لم يفهم ماكمان في البداية بأنهم يخاطبونه هو. الغرفة، أو الزنزانة التي وجد نفسه فيها، كانت تمور بالرجال والنساء بملابسهم البيضاء. سارع بخطواته نحو سريره، وأولئك الذين كانوا في الصف الثاني وقفوا على أطراف أصابعهم، ومدّوا أعناقهم لكي يروه بطريقة أفضل. ذلك الذي تحدّث كان رجلاً، بطبيعة الحال، في زهرة شبابه وقوة عمره، بملامحه التي توازن بين الرقة والقسوة، كما كانت له لحية جرباء، مكرسة من دون شك لتشديد التشابه بينه وبين المسيح. في الحقيقة، كان يُفصح عن نفسه بصورة أقلّ عبر الكلام الشفهي منه عن طريق القراءة، أو الاستشهاد، إذا حكمنا عليه من خلال الورقة التي كان يمسك بها في يده والتي كان يلقي عليها من حين إلى آخر نظرة قلقة. في النهاية مدّ تلك الورقة في اتجاه ماكمان، مع قلم رصاص لا يُمحى والذي وضع نبالته للتو في فمه، وطلب منه أن يضع توقيعه عليها، مع تأكيده على أن كل ذلك لم يكن إلّا شكليات. وحين رضخ ماكمان لأوامره، إما لأنه خائف من عقوبة الرفض، أو لأنه لم يفهم جدّية ما قام بفعله، ثم أخذ الآخر الورقة، فحصها وقال، ماك ماذا؟ Mac quoi؟ في تلك اللحظة، سُمعَ صوت امرأة، حاداً وقبيحاً معاً، قائلةً، مان، اسمه ماكمان. كانت تلك المرأة تقف خلف ماكمان، لحد لم يكن معه بمقدوره رؤيتها، كما كانت تشدّ بكلتا يديها على حاجز السرير. من أنتِ؟ قال المُلتحي. ردَّ أحدهم، لكن إنّها مول Moll، انظر، اسمها مول. استدار الملتحي نحو ذلك الذي تكلم، حدّقَ فيه للحظة، ثم خفض عينيه. أنا مريض، بطبيعة الحال، مريض. بعد لحظة من الصمت أضاف، إنه اسم جميل، لكن من دون معرفة ما إذا كان المقصود الاسم الجميل لمول، أو الاسم الجميل

لماكمان. يكفي، يا إلهي! قال، بانزعاج. ثمّ استدار فجأة بنصف التفاتة، بعدها صرخ: ما الذي يجعلكم جميعاً تتدافعون! وبالفعل كانت الغرفة قد امتلأت أكثر فأكثر بتيار القادمين الفضوليين. شخصياً، سأغادر، قال الملتحي. حينها تراجع الكلّ، وتدافعوا فيما بينهم على الخروج الواحد قبل الآخر، ما عدا مول التي بقيت ثابتة في مكانها. لكن بعدما خرج الجميع، توجهت نحو الباب وسدّته، ثم جاءت لكي تجلس على كرسي بالقرب من السرير. كانت عجوزاً قصيرة، بوجه وجسد غاية في القبح. يبدو أنها منذورة للعب دورٍ في الأحداث القادمة التي ستتيح لي في النهاية إمكانية استنتاجي الأخير. كانت ذراعاها نحيلتين صفراوين وملتويتين من تشوّهٍ عظميٍّ ما، أمّا شفتاها، فكانتا واسعتين ودهنيّتَين كأنها كانت تأكل نصف وجهها، أيْ أنهما أقبح ما فيها (في المقام الأول). كما كانت تحمل في أذنيها حلقتين على شكل صليب عاجيّ، وكانتا تتأرجحان لأدنى حركة من رأسها.

أتوقّف لكي أذكر بأنّي كنتُ أشعر بالراحة بشكل مَهول. ربما كان ذلك هذياناً.

بدا لماكمان أنّ هذه المرأة كانت مكلّفة بحراسته وخدمته. صحيح. وبالفعل صدر مرسومٌ، من الجهة العليا، يُفيد بأن اسم تلك المرأة هو مول. إنّها هي التي طلبت منهم ذلك، وفقاً للأشكال السائدة. كانت تحمل إليه وجبات طعامه (صحن كبير لكل يوم، ينبغي أكله أولاً وهو ساخن، وثانياً عندما يكون بارداً)، كما كانت تفرغ وعاء الغرفة في كل صباح، وتعلّمه كيف ينظف كل يوم وجهه ويديه، والأعضاء الأخرى من جسده كلّ بدوره، على طيلة الأسبوع، القدمين يوم الإثنين، الساقين حدَّ الركبة يوم الثلاثاء، الفخذين يوم الأربعاء، وهكذا دواليك، حتّى الوصول إلى الرقبة والأذنين يوم الأحد، كَلّا، ليس يوم الأحد لأنه يوم

راحته. كانت تكنس الغرفة، وتضرب السرير من حين إلى آخر، كما بدت كأنها تحصل على لذّة كبيرة أثناء حكّها وتلميعها زجاجَ النافذة الوحيدة، التي لم تُفتح أبداً. كذلك جعلت ماكمان يعرف، إن كان فعل شيئاً ما، ما إذا كان ذلك مسموحاً أم لا، وبالطريقة ذاتها، إذا لم يعمل أيّ شيء، إذا كان هذا من حقه أو لا. هل يعني ذلك بأنها كانت إلى جواره دائماً؟ كَلّا، إذ مما لا شك فيه أنّ التزامات أخرى كانت لديها غير ذلك، بتعليمات مغايرة. لكن في الأزمنة الأولى، حين كانت تنتظر تناوله حصّة سعادته التي كانت ما تزال فتية، ولم تكن تبارحه إلّا فيما ندر، بل وتسهر معه جزءاً من الليل. كم كانت مُتفهِّمة ومن طينة طيبة، ذلك ما يمكن استنتاجه من الحكاية التالية. في يوم ما، بعد الموافقة على إيوائه، أدرك ماكمان بأنه يرتدي، إلى جانب لباسه المُعتاد، قميصاً طويلاً وواسعاً من نسيج غليظ، قد يكون من الكتان. على الفور طالب بضجة كبيرة أن يعيدوا إليه ثيابه، وربما بما تحتويه الجيوب أيضاً، ثم أخذ بالصراخ: أشيائي! أشيائي! لمرات عديدة وهو يتحرّك من فوق السرير ويضرب الأغطية بيديه المفتوحتين على وسعهما. حينذاك جلست مول على حافة السرير مستخدمةً يديها بالطريقة التالية: واحدة من فوق يد ماكمان، والثانية من فوق جبهته، مرة له ومرة لها. كانت قصيرة تماماً بحيث لم تكن قدماها تصلان إلى الأرض. بعد ذلك، هدّأ ماكمان من روعه قليلاً وأخبرته بأنّ ملابسه لم تعد بالتأكيد موجودة، وبالتالي لا يمكن إعادتها له، أما فيما يتعلق بالأشياء التي جُمعت منها، فقد تم الحكم بأنها لا قيمة لها، ولا تستحق أكثر من رميها في المزبلة، ما عدا مقبض صغير لسكّين، وهم جاهزون لوضعه في حوزته. غير أن هذه التصريحات ألقت بماكمان في حالة اضطراب شديد بحيث عجّلت من أمرها لتضيف، وهي تضحك، أنّه كان من الأجدر النظر إلى كلّ ذلك باعتباره مزحة، وبأن ملابسه كانت قد غُسلت وتمّ كَيُّها، ورُتِّبتْ ووُضعَ فوقَها النفتالين، وفي الأخير تمّ طيُّها وحفظُها في خزانة الملابس التي تعود إليه وتحمل رقمَه، فهي إذاً محفوظة في مكان أمين يشبه بنك إنكلترا Banque de l'Angleterre. لكن ولأن

ماكمان ظَلَّ يطالب بأغراضه، كأنه لم يفهم أيّ شيء مما أخبرته عنه للتو، كانت مجبرة على تذكيره بالاتفاقات، التي لا تسمح في جميع الحالات للمقيم في المستشفى، الذي لا مكان آخر له، بالاتصال بكيس ملابسه إلّا عندما تنتهي استضافته في المستشفى. لكنه واصل مطالبته بملابسه وهو يصرخ، ولا سيّما الطاقيّة، تركته قائلة، هذا ليس معقولاً. لكنها ظهرت بعد بعض الوقت، حاملة على أطراف أصابعها تلك الطاقيّة، التي ذهبت ربما للبحث عنها في المزابل، في عمق حديقة الخضروات، لأن معرفة كلّ شيء تتطلب الوقت، ولأن حوافّها كانت مغطّاة بالقاذورات. بدت كأنها في ذروة تفكّكها، بالإضافة إلى ذلك كانت تتألم وهي تناوله إياها، بل وحتى ساعدته، أيْ مدّت يد العون له لكي يضعها فوق رأسه بتعديلها على أذنيه بطريقة تجعلها تثبت في مكانها من دون عناء. ثم أخذتْ تتمعَّن برقة في وجه الرجل العجوز الفزع، الذي استرخى بعض الشيء، كما حاول فمه الممتلئ بالشعر صنع ابتسامة، كذلك استدارت عيناه الصغيرتان الحمراوان بحياء نحوها كأنهما ترغبان في شكرها، واليدان اللتان تمّ غسلهما لكي تُجلَسَا بطريقة جيدة في مكانهما، وتعودا وهما ترتعشان للاستقرار فوق الغطاء. في النهاية، تبادلا نظرة طويلة، انفتح فم مول وانتفخ بابتسامة مرعبة، وهذا ما جعل عينَيْ ماكمان تتمايلان كعين ذلك الحيوان المثبّتة على سيده الذي يرغمهما في الأخير على الاستدارة عنه. نهاية الحكاية. لا بد أن تكون الطاقيّة نفسها التي تركها في قلب الوادي، أو أنها تشبهها تماماً كما بدت له، آخذاً بعين الاعتبار الاستهلاك الكبير الذي تعرضت إليه. ألا يمكن أن يكون من الصدفة أنه الـ«ماكمان» نفسه في نهاية المطاف، ورغم التّماثل الجسدي الكبير، والروحي، منْ يعرف ما الذي يمكن أن يؤدي إليه مرور السنوات. في الحقيقة، تشكل جماعة ماكمان les Macmann الأكثرية في الجزيرة وغالباً ما يتبجَّحون بذلك، ومهما كانت الظروف، أيْ أنّهم خرجوا جميعاً، في نهاية المطاف، من الخصية الشهيرة ذاتها. إنهم متشابهون بالضرورة من حين إلى آخر، بعضُهم مع بعضِهم الآخر، لحدٍّ يلتبسون فيه حتى في عقل ذلك الذي

يتمنّى لهم الخير، ويسعده بإخلاص أن يكون قد خرجَ هو أيضاً من نقطة البدء تلك. بالمناسبة، يمكن لأي بقايا من الجسد والوعي إنجاز المهمة، ليس علينا إذاً اقتفاء آثار الناس. فمن اللحظة التي نلتقي فيها بما لا يزال يُسمى كائناً حيّاً، لن يخطئ المرء، فقد عثر على المُذنب. لوقت طويل لم يتحرك من سريره، في حال عدم اليقين التي وجدَ نفسه فيها بأنه سيكون قادراً على المشي، أو حتى الوقوف، وفي حالة الخوف التي وجد نفسه فيه، إذا افترضنا بأنه كان قادراً على الشعور به، وما يمكن لهذا جَلْبُه من حالات ضجرٍ تتولّد عن اختيار الاتجاه. لنتأمّل في البدء المرحلة الأولى من إقامة ماكمان في جزيرة سانت جان دو ديه. ثم نعبر إلى الثانية، وحتى الثالثة، إذا اقتضى الأمر.

واحدة من الأشياء الصغيرة التي يجب الإشارة إليها، والمُثيرة للفضول تماماً، إذا أخذنا موقفي بعين الاعتبار، وإذا أوّلتُها بطريقة صحيحة. لكن لملاحظاتي ميلٌ مزعج، وذلك ما أدركته في الأخير، أيْ جعل كل ما يمكنه أن يُشكل مادة يختفي. ابتعدتُ إذاً بحيوية عن ذلك الحرّ الخارق للعادة، حتى لا أشير إلى سواه، والذي استحوذ على بعض من أجزاء ماكينتي ma machine، ولن أقول ما هي تلك الأجزاء. مع الآخر، هذا لا أهمية له. وإنْ يُقَلْ بأني كنتُ أنتظر بالأحرى البرودة ثانيةً!

كانت المرحلة الأولى، مرحلة السرير، فقد تم تشخيصها بتطوير العلاقات ما بين ماكمان وحارسته. كما تأسّس تدريجياً بينهما نوع من الحميمية، التي جعلتهما، في لحظة من اللحظات، يذهبان للنوم في السرير ذاته ويتزاوجان بأفضل طريقة يستطيعانها. لأنه نظراً لعمريهما وعدم خبرتهما في الحب الجسدي، كان من الطبيعي أنهما لم يوفّقا من الدفعة الأولى بتوليد الانطباع بأنهما كانا مخلوقين الواحد للآخر. حينئذٍ رأينا كيف أن ماكمان كان يبدي شراسة في إقحام عضوه الجنسي في

عضو صاحبته، كما يدخل المرء وسادة في الغطاء الذي يحميها، وذلك بطيّها على جزئين وجعلها تملؤه بأصابعه. ولأنه كان أبعد من أن يكون محبط العزيمة، فاللعبة قد أعجبته، يمكننا القول بأنهما انتهيا بشكل مُقنع، بالرغم من أن كليهما كان عاجزاً تماماً على جعل شيء ما ينبثق من عناقهما الغبي العقيم، نوع من اللذة الغامضة، وذلك بمناشدتهم لكل ما في البشرة من مصادر، والغدد اللزجة والمتخيّلة. لحدٍّ صرخت فيه مول، التي كانت الأكثر خصوبة بين الاثنين (في تلك المرحلة): آه لو كنا قد التقينا قبل ستين عاماً! لكن قبل الوصول إلى هنا، أيّ لطافة مصطنعة، أيّ ملامسات شرسة ومُفزعة، التي لا تكمن أهميتها إلّا فيما يلي. لقد علّمت ماكمان ما هي دلالة التعبير عن كائنين اثنين. حينها تقدم بطريقة لا تُدحض في ممارسة الكلام، كما عرف بعد وقت قصير أين يضع النعم وأين لا يجوز، وكذلك كانت مرةٌ أخرى كافية، لتدعم علاقات الصداقة. وبالطريق ذاته دخل في العالم السحري للقراءة، لأن مول كانت تكتب له رسائل مُلتهبة وتضعها بيد نظيفة بين يديه. كذلك كانت ذكريات المدرسة قوية تماماً، لدى أولئك الذين دخلوها، وعمّا قريب لن يحتاج لشرح مراسلاته وفهم كلّ شيء على حِدَة، وذلك بإبقائه على الورقة بعيداً عن عينيه بالقدر الذي تسمح به ذراعاه. أثناء القراءة، كانت مول تجلس على مسافة ما، وعيناها منخفضتان، كما كانت تقول مع نفسها، لقد وصلَ، إنه هناك، وصلَ، وتبقي على وضعيتها إلى أن تسمع ضجة الورقة وهو يضعها ثانية في المغلف والتي تعلن بأنه انتهى من قراءته. حينها كانت تستدير بحيوية نحوه، وتنتظر حتى لحظة رفعه للرسالة قرب شفتيه، أو وهو يرصّها على قلبه، ذكرىً أخيرةً تدلُّ على الطمأنينة. بعد ذلك يعيدها ثانية إليها وتقوم هي بوضعها تحت الوسادة مع الأخريات الموجودات هناك من قبل، مرتّبة حسب تواريخها اليومية والمشدودة بقوّة بعضُها للآخر. قلّما كانت تلك الرسائل مختلفةً عن بعضها من ناحية الشكل والمضمون، وذلك ما سهل على ماكمان الأمور كثيراً. مثال. يا عزيزي، لم يمر يوم من دون أن أشكر الله، وأنا راكعة، على

مِنَّتِه التي جعلتني أعثر عليك، قبل أن يأتي الموت. لأننا سنموت عما قريب نحن الاثنين، وهذا شيء واضح. أنْ يحلّ في لحظته بدقّة، ذاك كل ما أتمناه. بالمناسبة، لديّ مفتاح الصيدلية. لكن لنتمتع الآن بغروب الشمس، التي لم نتوقع حضورها بعد ذلك اليوم الطويل من العواصف! أليس هذا هو رأيك أيضاً؟ يا عزيزي! آه لو كنا قد التقينا قبل ستين عاماً! كَلّا، كل شيء على ما يرام، إذ ربما ما كان ليتوفر لنا الوقت الكافي كي يشمئز أحدنا من الآخر، ونحن نرى شبابنا يرحل، وربما ما كان بمقدورنا تذكر ثمالتنا الأولى ونحن نتقيأ، ومن ثم البحث عند شخص ثالث ما لم نكن نستطيع العثور عليه سوية، كل واحد من طرفه، وباختصار أن يألف أحدنا الآخر. يجب رؤية الأشياء كما هي، أليس كذلك يا كلبي الصغير لولو loulou؟ عندما تأخذني بين ذراعيك، وأنا آخذ ذراعيك، بطبيعة الحال هذا ليس بالشيء الكبير، مقارنة بالحالات المجنونة للشباب، وحتى للعمر البالغ. لكن كل شيء نسبي، هذا ما ينبغي قوله، للزرافات وللوعول فيما يتعلق بحاجاتهم وقوله لنا فيما يتعلق بحاجاتنا. بل وحتى من المدهش بأنك ما زلت تدبر نفسك، لن أنكر ذلك، ما دامت عشت بهذا الصفاء والطهر! وأنا أيضاً، لا بد أنّي قد لاحظت ذلك. لتفكر كذلك بأن الجسد ليس كل شيء، ولا سيّما في عمرنا، ولتبحثْ عن العشاق القادرين على الحصول على شيء ما بعيونهم، مثلما نفعل نحن بعيوننا، التي عما قريب تكون قد رأت كل شيء، والتي تعاني أغلب الوقت من بقائها مفتوحة، ومن رفتها، وقد حُرمت من مصادر العاطفة، وذلك ما يُقلِّص من إنجازاتنا اليومية إلى مجرد وسيلة، حينما تفصلني عنك التزاماتي الأخرى. من ناحية أخرى، عليك أن تضع بعين الاعتبار، ما دامنا نتصارح بهذه الطريقة، بأني لم أكن يوماً جميلة ولا معتنية بنفسي بطريقة جيدة، إنما بالأحرى قبيحة حدّ التشوه تقريباً، إذا نظرت إلى الأمر من جانب الشهادات التي تلقّيتها. كان بابا Papa خاصة يقول لي بأنّي كنت سيئة كعقب سيجارة، لقد حافظت على هذا التعبير. أما فيما يتعلق بك، يا حبّي، عندما كنتَ في عمر يجعل قلوبَ الجميلات

تدقُّ بصورة أسرع، هل كنتَ تؤلّف بين كلّ الشروط؟ أشك في ذلك. لكن في شيخوختنا ها نحن قد أصبحنا بالكاد أكثر قبحاً من معاصرينا الأكثر حظاً، وأنت، أنت خاصة، لقد حافظت على شعرك. ولأننا لم نؤدِّ أيّة خدمة، ولم يتم إفسادنا أبداً، لذا فإننا غير محرومين تماماً من بعض الطراوة والبراءة، كما يبدو لي. استنتاج، لأجل قدوم موسم العشاق ثانيةً، لنستثمر ذلك، فهناك إجاصات لا تنضج إلّا في شهر ديسمبر. بالنسبة إلى ما ينبغي علينا اتّباعه، لتدعْ لي حق التّصرف، فنحن سنقوم من جديد بأشياء مُدهشة، سترى ذلك. أمّا فيما يخص رأس القدمين، أنا لا أشاطرك رأيك، لأني أعتقد بأنه ينبغي الإصرار. لتدعْني أعمله بدلاً عنك، وسأسمع منك أخباره. انطلق، أيها الولد العفريت! ليست العظام ما يُضايقنا، إنما الأمر الواقع. في النهاية، علينا قبول أنفسنا كما هي عليه. وأن نمتنع بشكل خاص عن ضرب أحدنا الآخر، فهذه ليست سوى تسليات. لنفكر في الساعات حيث تشتاق قلوبنا، وهي تتدافع، منهكة، في الظلمة، للاتحاد، إذ علينا أن نخبر الرياح ما الذي يعنيه البقاء في الخارج، في الليل، في الشتاء، وما الذي يعنيه أننا كنا ما كنا عليه، ولنغطس سوية في تعاسة لا اسم لها، وواحدنا يشد الآخر. هذا ما يجب عمله. لتتشجع إذاً يا طفلي العجوز المؤدَّب الذي أعبده، قبلة كبيرة على خديك الممتلئين كدُمية. ملاحظة: طلبت من المخزن أن يبعثوا لنا بالمحار، مع أمل كبير بأنهم سيرسلونه. تلك هي الخفة الخطابية في تصريحات مول، مُخيّبة بلا شك حين يتعلق الأمر بإمكانية إشباع عواطفها بطرق عادية، والتي تبعثها كلّ ثلاث أو أربع مرات في الأسبوع إلى ماكمان، الذي لم يرد عليها أبداً، أعني أسودَ على أبيض، لكنه كان يُظهر بكل الوسائل التي تحت سيطرته لذّته في استلامها. لكن في نهاية هذا الغرام الريفيّ، أيْ بعد مدة قصيرة، وبالدقة عندما بدأت الرسائل تقلّ، جمع ماكمان كلّ قوى لغته وشرع في تأليف كتابات قصيرة مقفّاة بصورة غريبة، لكي يعطيها لصديقته، لأنه شَعر بأنها تبتعد عنه.

مثال:

Poupée pompette et vieux bébé
C'est l'amour qui nous unit
Au terme d'une longue vie
Qui ne fut pas toujours gaie
C'est vrai
Pas toujours gaie

مكتبة
t.me/t_pdf

دميتي المنتشية وصغيرتي العجوز
إنّه الحبّ ما يوحّدنا
على امتداد حياةٍ طويلة
ليست مرحة دائماً
نعم ليست دائماً مرحة

***

مثال آخر:

C'est l'amour qui nous conduit
La main dans la main vers Glasnevin
C'est le malheur du chemin
A mon avis au tien aussi
Mai oui
A notre avis

إنّه الحبّ ما يقودنا
إلى چلاسن [مدينة شمال دبلن في إرلندا]
إنّه مأساةُ الطّريق حسب رأيي ورأيك
أوه نعم حسب رأينا

***

لقد مرَّ زمنٌ كان يكتبُ فيه عَشْراً أو اثنتي عَشَرة من هذه النوعية، المميّزة للحبّ باعتباره نوعاً من اللّاصق المميت، وهي فكرةٌ غالباً ما نلتقي بها في النصوص الصُّوفية، ومن المدهش أنْ يكونَ ماكمان قد ارتقى بنفسه إلى مثل هذا العُلُوّ، بعد مِضيّ وقتٍ قصير وبدايات شاقّة بالأحرى، ويكون لديه تصوّرٌ راقٍ كهذا. وسوف يتعاظم اندهاشنا من فكرة أنّه ماذا كان لينجِز لو عرف العلاقات الجنسية الحقيقية، في عمر أقل تقدُّماً.

لقد ضِعتُ. ولا كلمة.

بدايات عسيرة حقاً، أوحتْ إليه فيها مول صراحة بالابتعاد. شفتاها بشكل خاص كانتا تفزعانه، الشفاه ذاتها تقريباً التي جعلته بعد مِضيّ بضعة أشهر يمصّ بنقمة لذّتها، لحدٍّ كانت رؤيتهما العادية لا تدفعه إلى غلق عينيه وحسب، وإنما إخفائهما تحت يده لكي يكون على يقين أكبر. كانت هي إذاً مَنْ استنفد نفسه في تلك المرحلة بتوقّدها الدائم، وهذا ما يجعلنا نفهم لماذا، في النهاية، خمدتْ همّتها وأصبحت هي أيضاً في حاجة إلى من يُشجّعها. إلّا إذا ما كان الأمر يتعلق بشأن الصحة. لكن ذلك لا يُلغي فرضيّة أنّ مول كانت قد ثمنت، انطلاقاً من لحظة معيّنة، قيمة ماكمان بطريقة خادعة لنفسها، ولم يكن في الأخير ما كانت تعتقده، ومن ثم رغبت في وضع خاتمة لعلاقتهما، ولكن بهدوء، لكيلا تُثير انتباهه. لسوء الحظ لا يتعلق الأمر هنا بمول، التي ما هي إلّا أنثى، إنما بماكمان ذاته، كما لا يتعلق بنهاية علاقتهما، بل بالأحرى بدايتها. أمّا بالنسبة إلى فترة الامتلاء القصيرة ما بين هذين الطريفين البعيدين عن بعضهما، وحيث أقحمت الحرارة المتعاظمة نفسها من جانب أحدهما، فيما نقصت الحرارة الموجودة سلفاً لدى الآخر، ومن ثم تأسّس نوع من التعادل في الدرجة، فسوف نتركه جانباً. لأنه إذا كان من الضروري أن يمتلك المرء ما لم يكن يمتلكه ومن ثم لن يمتلكه، فليس هناك أيّة حاجة إلى استعراض كل ذلك. لكن ينبغي علينا ترك الوقائع تتحدث

عن نفسها. مثال: في يوم ما، وبعدما أصبح ماكمان معتاداً على أنه محبوب من قبلها، مع أنّه لم يكن قادراً بعد على الاستجابة كما ينبغي عليه القيام بذلك مباشرة، كان يُبعد وجه مول عن وجهه، تحت ذريعة أنه كان يرغب في مداعبة قرطَي أذنيها. لكن ولأنها كانت مستعدة لإعادة الكرّة أوقفها من جديد، وسألها ما إذا كانت تعرف بالصدفة لماذا هناك مسيحان اثنان Pourquoi deux Jésus؟ وقد بدا عليه كأنّه يعتقد بأنّ واحداً يكفي تماماً. ردّت عليه بطريقة عبثية: ولِمَ هناك أذنان؟ لكنها بعد لحظة اعتذرت مُبتسمةً (تبتسم دائماً)، بالمناسبة، الأمر يتعلق بلِصَّين، فالمسيح في فمي. حينها باعدت بين فكيها ومطّت ما بين الخنصر والبنصر شفتها السفلى في اتجاه حنكها، وظهرت لثتها القذرة، بعدها أخرجت ناباً طويلاً وممتلئاً يمثل مشهد الصليب، من فاكهة الفراولة ربما. أنا أغسلها بالفُرشة خمس مرات في اليوم الواحد، قالت، ومرة واحدة لكلّ جرح. ومن ثم مدّت يدها الحُرة لكي تلامسه. إنه يهتز، قالت، أنا أخشى خلال أربعة الأيام القادمة أنْ أكون بلعته، من الأفضل لي قلعه. تركت نابها الذي أخذ مباشرة مكانه بضجّة. لقد تركت هذه الحادثة انطباعاً حاداً لدى ماكمان، كما جعل مول تتقدم في عواطفها، قفزة إلى الأمام. أما عن اللذة التي سيشعر بها عندما يُدخل لسانه في فمها ويمرّره على لثتها، فهي ليست غريبة عن الشوكولا-صليب. لكن ما هو الحب باستثناء تلك الإضافات؟ تارةً يكون مادّة، ربطة الساق في الغالب كما يبدو أو ما تحت الذراع. وتارة أخرى ليس إلّا صورةً لشخص ثالث. ما هي الكلمات التي ينبغي قولها أثناء انحدار تلك العلاقة؟ كَلّا، لا أستطيع.

مُنهكٌ من تعبي، قمر أبيض في المؤخرة، ندم واحد، ولا حتى هذا. أن أموت، قبلها، فوقها، معها، وأصير ميتاً فوق ميتة، وسط الناس البؤساء، وألّا أموت أبداً، بين الأموات. ولا حتى، ولا حتى ذلك. قمري كان هناك في الأسفل، في الأسفل تماماً، في المرات القليلة التي رغبت فيها

برؤيته. وفي يوم ما، عمّا قريب، سيكون ليل الأرض، عمّا قريب، تحت الأرض، كما يقول أحد الفانين، مثلي، تحت ضوء الأرض، ولا حتى، ولا حتى هذا، وسأموت، من دون العثور ولو على فرصة ندم واحدة.

مول. سأقتلها. ظلت دائماً في خدمة ماكمان، لكنها لم تعد كذي قبل. صارت ما إن تُنهي خدمتها، تجلس وسط الغرفة، على الكرسي، ولا تتحرك بعد. وعندما يناديها تنطلق لكي تنتصب فوق السرير وتتركه يدغدغها. لكن من الواضح بأنها كانت تفكر في شيء آخر، كما كانت متعجّلة لتجلس ثانية على كرسيها وتقوم بالحركة ذاتها التي أصبحت مألوفة لديه، أيْ فركها البطيء لبطنها، وبكلتا اليدين. من ناحية أخرى، بدأت رائحتها تخرج. ولم تكن رائحتها في يوم ما طيبة، لكن بين الرائحة غير الطيبة والرائحة التي تخرج منها، في تلك المرحلة، ثَمَّة فارق عالم بأكمله. بالإضافة إلى ذلك، كانت كثيراً ما تتقيّأ. حينئذ، تستدير لكيلا يرى عشيقها سوى ظهرها الذي تهزّه حركات مُرتعشة، وتظل تتقيّأ فترةً طويلة فوق الأرضية. كما كانت تلك التقيُّؤات تبقى ساعات بأكملها، في المكان ذاته الذي سقطت فيه، في انتظار أن تكون لها قوة الذهاب للبحث عن شيء ما لرفعها عن الأرض وتنظيف المكان. لو كانت بعمر أقلّ من نصف قرن، لبدتْ مكتنزة. وفي الوقت ذاته، لفقدت الكثير من شعر رأسها، واعترفت لماكمان بأنها لم تعد تجرُؤ على تمشيطه، حتى لا تجعله يسقط بسرعة أكبر. إنّها تقول لي كل شيء، قال في نفسه برضا. غير أنَّ كلَّ ذلك لا شيء حيال تغيّر لون بشرتها، التي مرَّتْ من لونها الأصفر إلى الزعفرانيّ، كما تراه العين. بيد أن ماكمان الذي رآها وقد تقلَّصتْ إلى هذا الحجم، لم يتوانَ عن أخذها بين ذراعيه، بالرغم من رائحتها العفنة وقَيْئها. وكان سيقضي حاجته لو لم تعترض هي على ذلك. يتفهّمها (هي أيضاً). لأنه عندما يكون الحب الوحيد في متناول اليد، الحب المتبادل طيلة حياة بكاملها، يكون من الطبيعي أن يميل

المرء لاغتنام الفرصة، ما دام الوقت لم يفُتْ بعد، ولا يتركها تدير ظهرها له بسبب الاشمئزاز أو البرود الذي لا يعيره الحب أيّة أهمية، إذا كان حقيقياً. وبالرغم من كل العلامات التي تُظهر بأن مول لم تكن على ما يرام، ولم يتمكن ماكمان من منع نفسه عن التفكير في موقفها كأنه برودة منها تجاهه. ربما كان هناك شيء من هذا أيضاً. وعلى أيّة حال، بالقدر الذي كانت تنزل فيه، بالقدر ذاته كان ماكمان يرغب في ضمِّها إلى صدره، وذلك شيء نادر ومثير للفضول جعلنا نشير إليه بالرغم من كلّ شيء. وحينما كانت تستدير وتنظر إليه (كانت ما تزال تفعل ذلك من حين إلى آخر) بعينيها اللتين كان يظن بأنه يقرأ فيهما علامات الحب والندم الذي لا حدود له، حينها يستولي عليه نوع من الجنون ويشرع في توجيه لَكَمَاتٍ على حوضِه، وعلى رأسه أيضاً وحتى على السرير، كلّ ذلك وهو يتلوّى ويصرخ، ربما على أمل أن تشفق عليه ومن ثمّ تأتي لتُعزّيه وتمسح دموعه، كما حدث ذلك في اليوم الذي طالب فيه بالطّاقيّة. ومع ذلك كَلّا، إذ واصل ضرب نفسه، وكان يتلوّى ويصرخ بلا حساب، فلأنها تركته يفعل هذا، كما كانت تخرج من الغرفة إذا دام ذلك طويلاً. لذا استمر وحده خارج طوره، وهذا يُشكّل برهاناً، أليس كذلك؟ على عدم اكتراثه، إلّا إذا تولّد لديه شكّ بأنها كانت تقف وراء الباب، لكي تصغي. هدأ في النهاية، أو أنه ما عاد يتحمل، وندم على الحصانة الطويلة المفقودة، وعلى الصدقة والرقة الإنسانيتين. بل ودفع بنزقه بعيداً حدّ التّساؤل بأيّ حق يقدّمون له الرعاية. وباختصار، أيّاماً سيئة لماكمان. ولمول أيضاً، إذا لزم الأمر، بطبيعة الحال، وإذا شئنا. في تلك المرحلة فقدت كلبها الصغير، الذي خرج وحده من وِجاره، وسط النهار لحسن الحظ، بحيث تمكّنت من استقباله ووضعه في مكان آمن. قال ماكمان في نفسه، عندما أخبرته بذلك، كان في إمكانها منذ فترة تقديمه لي، أو على الأقل التظاهر به. لكنه ردَّ على نفسه مباشرة، كان في إمكانها، أولاً، ألّا تقول لي أيّ شيء عن ذلك، هذه علامة للعاطفة التي تحملها نحوي، إذاً. ثانياً، لكن على أيّ حال كان في مقدوري معرفة هذا، حينما ستفتح

فمها إمّا لتقول شيئاً ما أو لكي تضحك. لكنّها، في الأخير، لم تتكلم ولم تضحك. في صباح أحد الأيام الجميلة، قدم نحوه رجلٌ لم يكن قد رآه من قبل وأخبره بأن مول قد ماتتْ. وها إنّ واحدة أخرى تتمّ تصفيتُها. أنا اسمي لمويل Lemuel، قال، مع أنّ والديَّ ينحدران من الجنس الآري، سأتولّى أنا من الآن فصاعداً العناية بك. هذا هو حساؤك من الشعير، لتأكلْه ما دام ساخناً.

قليل من الجهد ثانية. يترك لوميل انطباعاً بأنه كان نوعاً ما أكثر غباء عن كونه خبيثاً، لكن مَكْرَه كان عظيماً للغاية. وعندما صار ماكمان، شيئاً فشيئاً، قلقاً ظاهرياً على موقفه، وفي الوقت ذاته قادراً بصورة أكبر على عزل القليل الذي كان في رأسه والتعبير عنه بوضوح؛ حينما كان ماكمان، كما قلت، يطلب منه معلومة ما، لم يكن يردّ عليه أبداً مباشرة. على سبيل المثال، حين كان يسأله إذا ما كانت سانت جون دو ديه مؤسسة خاصة أو تخضع للجمهورية، إذا كانت ملجأ للعجائز والمُعاقين، أو ما إذا كانت معزلاً للمجانين، وإذا أصبح المرء عاجزاً تماماً هل يبقى لديه، بالرغم من ذلك، أملٌ في الخروج منها في يوم ما، وبأيّ وسائل كان لوميل يبقى حالماً لمدة عشر دقائق وحتى ربع ساعة أحياناً، ويظلّ ساكناً، أو ما إذا كانت لديه رغبة في حكّ رأسه أو إبطه، كأنّ تلك الأسئلة لم تخطر يوماً على باله، أو يفكّر في أشياء أخرى. وإذا كان صبر ماكمان قد نفد أو يظن بأنه لم يعبّر عن نفسه بوضوح، ومن ثم يخوّل لنفسه الكلام ثانيةً، كان الآخر بإشارة تسلّط يخرسه. ذلك هو لوميل، إذا رأيناه من زاوية نظر خاصة. ويشرع إمّا في الصراخ وهو يضرب الأرض بقدميه بعصبيّة لا يمكن وصفها، اتركْني أفكر، أيّها المزبلة! وغالباً ما كان ينتهي بالقول لا أعرف أيّ شيء عن ذلك. لكنه كان عرضة لنوبات من المزاج الرائق ما فوق العصابيّة. حينها يُضيف: سوف أسأل عنه. ومن ثم يخرج دفتر ملاحظاته الذي يشبه بأبعاده سجلّ الشؤون البحرية، يُسجّل فيه ملاحظة، ويدمدم، خاص أم

للدولة، مجنون أو مثلنا نحن، كيف يمكن الخروج، إلخ... حينئذ، يوقن ماكمان بأنّه لن يحصل على أيّة إجابة أبداً. هل يمكنني الوقوف؟ تساءل في يوم ما. منذ فترة مول كانت لديه الرغبة في معرفة ما إذا كان بمقدوره الوقوف والخروج لاستنشاق الهواء، لكن بحياء، كالذي يطلب القمر. في الواقع، هذا ما كان عليه تعلُّمُه، لو كان حكيماً، بأنّه قد يتمكّن يوماً من النهوض وحتى الخروج، لاستنشاق الهواء النقيّ للسطح، وفي ذلك اليوم، في الصّالة الكبيرة حيث يجتمع طاقم العاملين في الفجر قبل شروعهم في العمل، أو يذهبون لكي يناموا، وفقاً للحالة، سنرى، مثبّتةً في لوحة الخدم، ملاحظةً مُصاغة كالآتي: على رقم مائة وستة وسبعين النهوض والخروج. ذلك لأن مول لم تكن تتشي أبداً عندما يتعلق الأمر بنظام الخدمة، وكان صوتها يُغطّي صوت الحب في قلبها، في كل مرّة يتمكن فيها هذا الأخير من إسماع نفسه في الوقت ذاته. فعندما كان الأمر يتعلق، على سبيل المثال، بالمحار الذي رفضته إدارة المجلس مذكّرين إيّاها بالفقرة التي تحجّره، بيد أنه كان من السّهل عليها الحصول عليه، عبر بعض تواطؤاتها الخارجية، لم يرَ ماكمان في يوم حتى لونها. غير أن لوميل كان من عجينة أخرى، في ضوء هذه العلاقة، ومع أنه لم يكن موزّعاً ما بين المناصب، لم تكن معرفته بها كاملة. كذلك يمكننا التساؤل، إذا وضعنا أنفسنا في نقطة أعلى، إذا كان يتمتع بعقله. وعندما لا تجعله عذابات التفكير ملتصقاً بمكانه، كان يذهب ويرجع بلا توقف، بمشيته الثقيلة، المُفزعة المهزوزة، وهو يومئ ويقطّع بحدّة مفردات لا يمكن فهمها. ولأن الذكرى الحيّة تسلخه، كان عقله يمور بأفاعي الكوبرا، ولم يكن بمقدوره لا الحلم ولا التفكير، وفي الوقت ذاته عاجزاً عن الدفاع عن نفسه، كان صراخه من نوعين، ذلك الذي سببه الوحيد هو الآلام الأخلاقية، وتلك التي تتقاطع معها في أيّة نقطة، والتي كان يأمل بفضلها توقع هذه الأخيرة. في المقابل، كان الألم الجسدي يبدو له مصدراً ثميناً، وفي يوم ما، برفعه لساقه خارج سرواله، أظهر لماكمان عظم ساقه الذي تغطيه البقع الزرقاء، الندوب وانسلاخات الجلد. ومن ثم فجأة أخرج

من جيبه وبحذق معولاً وناول نفسه ضربة، في وسط الجروح القديمة، ضربة من العنف أنّها جعلته يسقط إلى الخلف. بيد أن الجزء الذي لم يكن يفضل ضربه، بالمعول نفسه، هو الرأس، وذلك ما يمكن فهمه، لأن ذلك الجزء عظمي أيضاً، وحسّاس، ويسهل الوصول إليه، وفي داخله كل القاذورات والعفونات، لذا يضربه المرء طواعية أكثر من ضربه لساقه مثلاً، وإن لم يكن ذلك مجدياً، فهذا ما هو بأمرٍ إنسانيّ. هل لديّ الحق بالنهوض؟ صرخ ماكمان. ثبت لمويل في مكانه. ماذا؟ صاح. انهض! صرخ ماكمان. أريد أن أغتسل! أرغب في أن أغتسل!

رجعنا. كان ذلك أمراً جيداً تماماً. نسيتُ نفسي، ضيَّعتُها. هذا ليس صحيحاً. كان على ما يرام. كنتُ في مكان آخر. شخصٌ آخر كان يتألم. رجعت إذاً. كي أتذكر النزاع مع الموت. إذا كان ذلك يُسلّيه. في الواقع إنّهم لا يعرفون ذلك، ولا أنا أعرفُ، لكنّهم يعتقدون بأنهم يعرفون. تمرّ طائرة، على علوٍّ منخفض، بضجيج رعد. ضوضاء لا تنطوي على أيّ رعد، لكنّنا نقول ذلك من دون أن نفكر فيه، إنها ضوضاء عابرة وقوية هذا كلّ ما في الأمر، ولا تشبه أيّ شيء آخر. هذه المرة الأولى التي أسمعها فيها هنا، حسب ظنّي. لكنّي سمعت الطائرات في مكان آخر ورأيتها وهي تحلق حتى، شاهدتُ الأولى محلّقةً وفي النهاية أحدث النماذج، أوه ليست النماذج الأخيرة تماماً، لكنّها أولى ما قبل الأخيرة، الكلّ السابق. كما كنتُ واحداً من أوائل الشهود على انقلاب الطائرة، أقسم على ذلك. لم أكن خائفاً. كانت فوق أحد حقول سباق الخيل، وكانت أمي تمسك بي بيدها. قالت، هذا مسرف، مسرف. آنذاك، غيرتُ رأيي. مع أني كنتُ في الغالب غير موافق. في يوم ما ارتقينا سوية شاطئاً حجريّاً تماماً، من المحتمل أن يكون قرب دارنا، تختلط الشواطئ الحجريّة في ذاكرتي. أتذكر اللّازورد. أقول بأنّ السماء أبعد مما يُقال عنها، أليس كذلك يا ماما؟ قلتُ ذلك بلا أيّ مكر، ببساطة كنت قد فكرت بحرية في

آلاف الأميال التي تفصلني عنها. ردَّتْ عليَّ، إنها بدقّة بعيدة كما تظهر عليه. كان معها الحق. لكن ذلك صعقني في لحظته. ما زلت أرى ذلك المكان، بمواجهة بيت تايلر Tyler. ماراشه Maraîcher، كان أعورَ ويحمل ضلوع خروف. هذا هو، ثرثرة. من هناك، كان المرء يرى البحر، الجزر، ورؤوس الجبال الشامخة، والبرزخ، والشاطئ الذي يبتعد نحو الشمال والجنوب والأرصفة المكوّرة على الميناء. جئنا إلى بيت الجزار. أمي؟ ربما كان ذلك قصة سمعتها من أحدهم وأعتبرها جيدة. فمنذ فترة، قصّوا عليّ قصصاً جيدة دائماً، دائماً جيدة. وعلى أيّ حال، ها إنّي في الخراء ثانيةً. أمّا الطيارة، فربما مرّتْ بسرعة مائتي ألف مرة. وهي سرعة ملائمة في تلك المرحلة. إنّ قلبي معها، وهو أمرٌ مفروغٌ منه. لكن قلبي كان مع أشياء عديدة أخرى. والجسد كَلّا. ذلك ليس غبياً. ومهما يكن، هذا هو البرنامج، نهاية البرنامج. إنّهم يظنُّون أنفسَهم قادرين على إحداث اضطراب لديّ وجعلي أنسى برامجي. إنّهم أغبياء حقاً. وها هي أمامكم. زيارة، ملاحظات مُختلفة، بعد ذلك ماكمان، تذكير بنزاع الموت أكبر ما يمكن. هذا لا يعتمد عليَّ، فمنجمي ليس من نوع المناجم التي لا تنضب، وكذلك دفتري، ولا على ماكمان، ولا حتى عليّ أنا، بالرغم من المظاهر. أن ينتهي كلّ ذلك، هذا ما أتساءل عنه، في هذه اللحظة. إلّا إذا حدث طارئ. بطبيعة الحال. وها إنّنا حُذِّرنا. زائر. شعرتُ بضربة قوية على رأسي. ربما كان هنا منذ البداية، منذ بعض الوقت. نحن لا نحبّ الانتظار، ونشير نحو وجودنا بالطريقة التي نقدر عليها، وهذا ما هو إنساني. لا بدَّ أنه استخدم فذلكاته. لا أعرف ما الذي كان يرغب فيه. لقد رحل في الوقت الحاضر. أيّ فكرة بالرغم من ذلك أوصلته إلى رأسي. ثَمَّة نور مُضحك هنا في هذه اللحظة، أوه لن أستنتج أيّ شيء من هذا، ضوء ضعيف ومتّقد في الوقت ذاته، وربما قضى عليَّ نصفياً. كان فمه مفتوحاً، وشفتاه مضطربتان، لذا لم أسمع منه أيّ شيء. كأن لم يكن لديه ما يقوله. مع ذلك أنا لست أصمَّ، الطّائرة هي الدليل على سلامة سمعي، وإذا لم أكن قد سمعت شيئاً، فذلك لأنه ليس هناك ما يُسمع. لكنّي ربما

أصبحت قليل التأثّر بالأصوات الإنسانية على وجه الخصوص. أنا على سبيل المثال، لا أقوم بأيّة ضجة، لا بأس، أيَّ ضوضاء. وبالرغم من هذا ما زلت أتنفس، أسعل، أنوح، أبلع، بالقرب تماماً من أذني، أنا مُقتنع بذلك تماماً. وهذا معناه أني لا أعرف من عليَّ شكره. كان يبدو مُنزعجاً. هل عليَّ وصفه؟ لم لا. بدلة سوداء من طراز قديم، أو ربما عاد ثانية إلى الموضة؛ ربطةُ عنق سوداء، قميصٌ أبيضُ بلون الثّلج، رُدْنَا مُهرِّج يغطّيان بصورة كاملة ذراعيه، شعرٌ أسودُ مُجعَّد، وجهٌ طويلٌ، أمردُ، مُعتّمٌ وكأنه مُغشّىً بالدقيق، عينان مظلمتان ومنطفئتان، طولٌ وبدانةٌ متوسطة، طاقيّةٌ على شكل بطيخة مضغوطة برقّة في اتجاه مقدّمة البطن أولاً، ثم في لحظة ما مبطوحة على الجمجمة بحركةٍ مُباغتة وواثقة بطريقة خارقة للعادة. مترٌ يطوي ويتجاوز، في آن معاً، زاوية المنديل الأبيض وحافة جيبه الصغير. ظننتُ في البداية بأنه يعود إلى عامل في طقوس الدفن، كثيب لأنه أزعج نفسه بطريقة سابقة لأوانها. بقي للحظةٍ طويلة، سبع ساعات على الأقل. ربما كان يأمل في الحصول على القناعة وهو يراني أودع روحي قبل رحيله، فذلك كان سيجعله يتفادى القيام بدورة أخرى. اعتقدتُ للحظةٍ أنه سيقضي عليَّ. برنيك Bernique. قد تكون جريمة. كما كان عليه المغادرة في الساعة السادسة، عند انتهاء عمله اليومي. منذ ذلك الوقت وأنا أعيش في ضوء مضحك. أيْ أنه غادر في المرة الأولى، ثم عاد ثانية بعد ساعة متأخّرة، ثم رحل إلى الأبد. كان عليه البقاء هنا من الساعة التاسعة حتى الثانية عشرة ثمَّ من الثّانية حتى السادسة مساء، هذا كلُّ ما في الأمر. غالباً ما كان يحدّق في ساعته، التي على شكل بصلة. ربما سيعود ثانيةً غداً. ضربَني في الصّباح، ومن المحتمل أنْ يكون ذلك على الساعة العاشرة. في ساعة ما بعد الظهر لم يفعلْ لي أيّ شيء، مع أنني لم أرَه مباشرةً، كان يحتلّ مكانه حين رأيته، مُنتصباً بالقرب من السرير. أتحدّث عن الصباح وما بعد الظهر وعن هذه الساعة أو تلك، لكن ينبغي أن يكون هناك أشخاصٌ إذا كان المرء يرغب في الكلام، وذلك ليس صعباً. الشيء الوحيد الذي ينبغي عدم الحديث عنه، هو

سعادته، لا أرى أيّ شيء آخر في هذه اللحظة. من الأفضل حتى عدم التفكير في ذلك. وهو واقف قرب السرير نظرَ نحوي. عندما رأى شفتيَّ تتحركان، لأني كنت أوشك على الكلام، انحنى فوقي. كنتُ أرغب في أن أطلب منه بضعة أشياء، على سبيل المثال إعطائي عصاي. كان سيرفض. حينها سأقوم بشبك يديّ والدمعة معهما، وأتوسَّل إليه لتلبية هذه الخدمة الصغيرة. رَفض إذلال نفسه لأجلي، بفضل عجزي الصوتيّ. خمدَ صوتي، وسيلحقه الباقي. كان بمقدوري كتابةُ ذلك في دفتري، وجعلُه يقرؤه، أرجِعْ إليَّ عصايَّ من فضلك. أو لتكن لطيفاً مرِّرْ لي عصاي. لكني كنتُ أخفيتُ الدفتر تحت الأغطية، على آمل ألّا ينتزعه مني. قمتُ بذلك دون التفكير في أنه كان هناك منذ وقت (وإلّا لما كان قد ضربني) وهو يراني أكتب، لأنه لا بدّ أنّي كنتُ أكتب حينما وصلَ، وبالنتيجة كان في إمكانه بسهولة الاستحواذ على دفتري إذا كان راغباً في ذلك، ولم أفكّر أيضاً بأنّه كان يراقبني في لحظة الإخفاء، وبالتالي لم أقمْ في الواقع سوى بجلب انتباهه نحو الشيء الذي كنتُ أرغب في إخفائه. ذلك ما هو قياسيّ. لأنه لم يبقَ لي من كل ما كنت أملكه غير دفتري، لذا أتمسّكُ به، وهذا ما هو إنساني. وكذلك الأمر بالنسبة للمنجم، بطبيعة الحال، إذْ ما قيمة المنجم دون ورق؟ لا بدّ أنّه قال في نفسه، وهو يتناول غداءه، اليوم بعد الظهر سآخذ منه دفتره، ومن ثم كان يظهر بأنه عازم على ذلك. لكن عند عودته لم يكن الدفتر في المكان نفسه الذي رآني أضعُه فيه، فإذا كان هو عفريت، فأنا عفريت ونصف. مطريَّتُه، هل تحدثت عنها؟ مطريَّةٌ مُدبَّبة. كان ينقلها من يدٍ إلى أخرى بعد بضع دقائق، كما كان يتّكِئ عليها، بوقوفه قرب السرير. حينئذٍ طواها. أستخدمها لرفع أغطيتي. كنتُ أظن بأنّه سوف يقتلني بها، برأسها الطويل المُدبب، وما كان عليه سوى غرزها في قلبي. قتلٌ إراديّ، ذلك ما يمكن قوله. ربما سيعود ثانيةً غداً، وهو مجهَّز بصورةٍ أفضل، أو مع مساعد، بعد أنْ أصبح مُتآلفاً مع المكان. لكن إذا ما حدّق بي سأحدق به. أعتقد أننا بقينا حرفياً لساعات دون رَمشة جفنٍ تقريباً. من المحتمل أنّه يتخيّل بأني سأخفض

عيني، لأني عجوز وسقيم. يا للغبيّ البائس. مرَّ زمن طويل على عدم رؤية واحد من تلك المسدّسات بحيث قدحتُ ضوءاً، كما يُقال، خشية أن أقوم بخطأٍ ما. قلتُ في نفسي، في يوم ما ستظهر مُجترّة للأغصان. وهذه الطلعة! كنتُ نسيتها. في لحظة ما، ومن المحتمل أن تكون الرائحة قد ضايقتني، أندسّ بين السرير والجدار لكي يفتح النافذة. لم يستطع. فمن الصباح وعيناي تُراقبانها. لكني نمتُ قليلاً بعد الظهر. لا أعرف ما الذي فعله أثناء ذلك الوقت، ربما فتّش أغراضي، بمطرتِه راح يُبعثر الأشياء الآن على الأرضية. اعتقدت للحظة أنّه جاء نحوي من لدن وكالةِ طقوس الدَّفن. هؤلاء الذين جعلوني أعيش هنا حتى اللحظة سوف يتجشّمون عناء دفني مع القليل من الأبّهة. هنا يرقد مالون في النهاية، مع التواريخ التي لا تقدّم سوى فكرةٍ ضعيفة عن الوقت الذي استغرقه كي يعتذر ويميّز نفسه عن أولئك العديدين الذين يحملون الاسم نفسه في الجزيرة والمقبرة. أمرٌ غريبٌ أني لم ألتقِ أبداً بأيّ واحد حسب ما أعرف. لديّ الوقت. هنا يَرقدُ غبيٌّ بائس، كل ما صادفه كان من الريح الشمالية. لكن لحظة فقط، أعني خلال نصف ساعة على الأكثر. بعدها سأضيف عليه وظائف أخرى، كلها مُخيِّبة الواحدة كالأخرى. شيء غريب هي تلك الحاجة إلى معرفة من هم الناس وما يفعلونه في الحياة وماذا يُريدون منكم. لكن من اليسير أن يحمل معه ملابس الحداد بطريقته في تدوير مظلّته والعادة الصارخة في لبس طاقيّته البطيخيّة، بدا لي مع مرور بعض الوقت كأنه مُتنكِّر، لكن حيال ماذا لو تجرّأت على السؤال، كيف؟ في لحظة ما، واحدة أخرى، كان خائفاً، كما كان تنفّسه السريع قد دفعه للابتعاد عن السرير. آنذاك، رأيت بأنّه كان يلبس حذاءً أصفرَ، وذلك ما خلّف لديّ انطباعاً تعجز الكلمات عن تقديم ولو فكرة ضعيفة عنه. كان زوج أحذيته ممتلئاً للغاية بالغَرِيْنِ الطريّ وقلتُ في نفسي، من أيّ مستنقع قدمَ نحوي؟ تساءلتُ في نفسي ما إذا كان قد جاء للبحث عن شيء ما بعينه، إذ سيكون ذلك مُثيراً للاهتمام. نزعتُ ورقة من دفتري وأعدت إنتاج الآتي، من الذاكرة، لكي أظهره له غداً، أو اليوم، أو من

الآن إلى أيّ وقت آخر، إذا ما عاد ثانية: 1) من أنت؟ 2) ما الذي تعمله؟ 3) ما الذي تريده مني؟ 4) هل تبحث عن شيء ما بعينه؟ وماذا أيضاً؟ 5) لمَ أنت غاضب؟ 6) هل عملتُ لكَ شيئاً ما؟ 7) هل لديك أيّة معلومةٍ عنّي؟ 8) ما كان عليك ضربي. 9) أعطِني عصاي. 10) هل تعمل لحسابك الشخصيّ؟ 11) وإلّا مَنْ الذي أرسلك؟ 12) لتنظِّمْ أشيائي. 13) لماذا حرموني من حسائي؟ 14) لماذا لا يُفرِغُ أحدُهم وعائي؟ 15) هل تعتقدُ بأني سأبقى هنا وقتاً طويلاً؟ 16) هل يمكنني أنْ أطلب منك القيام بخدمةٍ ما؟ 17) ظروفُك هي ظروفي نفسها. 18) لماذا أحذيتُك صفراء وفي أيّ مكان لوّثتَها هكذا؟ 19) هل لديك قطعةٌ من قلم الرّصاص لتعطيني إيّاها؟ 20) لترقّم ملاحظاتك. 21) لتغادرْ، ما زالت لدي أشياءُ أسألك عنها. هل تكفي ورقة؟ لا بدّ أنّه لم يبقَ منها الكثير. يمكنني طلب مساحة، بالقدر الذي أحتاجُ إليه. 22) هل في إمكانك إعارتي ممحاةً مطّاطية؟ بعد مغادرته، قلتُ في نفسي، بأني رأيتُها من قبل في مكانٍ ما. والناس الذين رأيتُهم أنا يمكنني أنْ أضمن بأنهم هم أيضاً رأوني. لكن مَنْ لا أستطيع القولَ أعرفُه. فكّرت فيه، حاولتُ الفهم، إذ لا يمكننا القيام بذلك والنظر في الوقت ذاته. لم أرَه حتى وهو يغادر. آه إنه لم يُغمَ عليه، على طريقة الدعموص، سمعته، وكذلك ضوضاء السلسلة وهو يخرج ساعته، وارتطام المَطريّة الواثقة من نفسها على الأرضية، والدَّورة النصفيّة، والخطوات المُتسارعة نحو الباب، وقد انغلق هذا الأخير في النهاية، هل أجرؤ على قول ذلك، تصفيرٌ حادٌّ ومُغتبِط ثم أبتعد. ما الذي تغافلتُ عنه؟ أشياءُ صغيرة، لا قيمة لها، ستعود لي في وقت لاحق وتجعلني أرى بشكل أوضح ما حدث للتو، ومِن ثمّ جعلي أقول، آه لو كنتُ أعرف في حينها، الآن أصبح الوقتُ متأخّراً تماماً. نعم، شيئاً فشيئاً سوف أراه مثلما كان عليه للتوّ، أو كما كان يجب عليه أن يكون لكي أتمكّن من القول في نفسي، مرةً أخرى، مُتأخّراً تماماً، مُتأخّراً تماماً. ذلك هو الإحساس. أو ربما لم يكن سوى أوّل زيارة في سلسلة من الزيارات، كل واحدة مختلفة عن غيرها. وستحلّ إحداها محلّ الأخرى وهي

عديدة. غداً سيضع ربما كساءً من الجلد أو القماش على ساقه، مع «شورت» خيّال و«كاسكيت» بمربّعات، ويحمل سوطاً في يده بدلاً عن المَطريّة وحصاناً حديديّاً في عروة سترته. كلُّ الناس الذين لمحتُهم من قريبٍ أو بعيد يمكنهم الانسلال منذ الآن، ذلك ما هو واضح. وربما سيكون هناكُ نساءٌ وأطفال، فأنا لمَحتُهم هم أيضاً، وسيكون لديهم ما يمكنهم الاستناد عليه والشروع بالنَّبش في حاجاتي، وسيناولني كلُّ واحدٍ منهم ضربةً قويّة على رأسي كبداية، ومن ثمّ سيقضون نهارهم بالتطلُّع إليّ بغضبٍ وقَرَف. وسيكون عليَّ وضع قائمة جديدة بالأسئلة بطريقة مفهومة من قبل الجميع. وربما سيكون واحد منهم، في يوم ما، قد سهى عن التعليمات، ومن بعد سيُرجِع لي عصاي. أو ربما سأتمكّن من القبض على أحدهم، وبخيطٍ رفيع أخنقه على سبيل المثال، ماذا أقول، أو ثلاثة أرباع منه، لكي يقبل بإرجاع عصاي لي، وتقديم الحساء، وكذلك إفراغ أوعيتي، تقبيلي، وملامستي، والابتسام لي، وإعطائي طاقيّتي، والبقاء بالقرب مني، وتعقُّب جنازتي وهو يبكي في منديله، سيكون ساحراً. أنا طَيِّبٌ في العمق، غايةٌ في الطّيبة، كيف لمْ يستطِع أحدُهم أنْ يلمَح ذلك؟ أيُّ بنتٍ صَبيَّة في إمكانها قضاء حاجتي، قد تتعرَّى أمامي، وتنام معي، لن يكون هناك أحدٌ غيري، ومن ثمّ سأدفع السرير ليسدّ الباب ويمنعها من الهروب، لكن حينئذٍ قد تلقي بنفسها من النافذة، وعندما سيعرفون بأنها معي، سوف يحملون لنا صحنين من الحساء، وسوف أعلّمها الحبّ والتقزّز، كما أنها لن تنساني أبداً، وقد أموت وأنا فرحٌ، وربما ستغلق عيني وتضع ختماً على مؤخرتي، وفقاً لوصيّتي. لا تحتدم يا مالون، لا تحتدمي أيتها الجيفة. في الواقع، إلى أيّ مدى يمكن للمرء الصوم دون عقاب؟ دام محافظ كورك Cork زمناً لانهائيّاً، لكنه كان شابّاً، ثم كانت له معتقداته السياسية أو ببساطةٍ الإنسانية على وجه الاحتمال. كان يسمح لنفسه من حين إلى آخر بقطرة تشبه الدمعة، من المحتمل أن تكون مُحلّاةً بالسكّر. أن يشرب المرء بشفقة. كيف حدث أنّي لم أحس بالعطش؟ لا بدّ أنّي كنتُ أشرب من داخلي،

من سوائلي. نعم، لنتحدث قليلاً عني، فذلك سيريحني من كلّ هذا الغباء. أيّ نور. هل يمكن استشعار مذاق ما قبل الموت؟ رأسي، مُلتهبٌ ناراً، ممتلئٌ بالزيت المَغلي. مِن أين سأنطلق في النهاية؟ بالانتقال إلى المخ؟ سيكون ذلك الذُّروة. والألم، يا إلهي، لا يمكن تحمُّله تقريباً. صداعٌ نصفيّ مُتناغم. على الموت أخذي باعتباري آخر. القلب هو المُذنب، كما في صدر ملك العيدان الكبريتية، شنايدر Shneider، شنايدر، لم أعد أعرف. من جانب آخر، يُدفّؤ هو أيضاً، يحمرُّ، من تلقاء نفسه، مني، منهم، إنه يخجل من كلّ شيء، ما عدا الخفقان كما يبدو. هذا لا شيء، نوعٌ من العصبية وحسب. ومن يعرف قد يكون النَّفَس هو أوّل ما فقدته، في نهاية المطاف. بعد، قبل أيّ اعتراف، وعلى الطول، أيّة دوخة. قالتْ لي النافذة في مطلع الصباح، غيومٌ ممطرة مربوطة كخِرَق الضّماد التي تتفكّك. لتتسلّوا جيداً. بعيداً عن هذا الظل المُحمرّ. نعم، أتنفس بصعوبة، وصدري يبقى فاغراً، يختنقني الهواء، ربما ينقصُه الأكسجين بعضَ الشيء. ماكمان القزم تحت أشجار الصنوبر الضخمة السوداء التي تومئ وهو ينظر من بعيد إلى البحر نازلاً. الآخرون هناك هم أيضاً، أو عند النافذة، مثلي، لكنهم واقفون، لا بدّ أنّهم من النقّالين المتجوّلين، لا بُدَّ، أو من المنقولين على أقلّ تقدير، كَلّا، مثلي، كَلّا، إنّهم لا يستطيعون عملَ أيّ شيء لأيّ شخص، معلّقين بأشجار الحور المُرتعشةِ أو عند النافذة، لكي يصغوا. لكن قد يكون الأجدر بي الانتهاء من نفسي أولاً، بالقدر الممكن بطبيعة الحال. السرعة التي يدور بها هذا مُزعجة، بالتأكيد، لكنها قد لا تفعل أيّ شيء آخر غير تعاظمها، ذلك ما ينبغي أخذه بعين الاعتبار. مذكرة، مضافة إلى الاستفتاء، وإذا ما كان لديكم بالصدفة عود ثقاب، لتكونوا طيبين وتقوموا بمحاولة وَقْدِه. كيف حدث أمرُ أنّي لم أسمعه عندما ناداني، فيما سمعته وهو يُغادرني، يصفر كثيراً؟ ربما تظاهر وحسب بالتكلّم معي، محاولةً منه جعلي أعتقد بأني أصبحت أطرش. هل أسمع شيئاً ما في هذه اللحظة؟ لنرَ. كَلّا. لا الرياح، ولا البحر، ولا الورق، ولا الهواء الذي أنفثه بمشقة كبيرة. لكنها زقزقة لا

حصر لها، كأنها صادرة عن جمهور يوشوش؟ لا أفهم. من بعيد بيدي أحسب الأوراق التي بقيت لدي. ستسير الأمور. إنّها حياتي، ذلك الدفتر، الدفتر الكبير هذا الذي لطفل، لقد أمضيت زمناً طويلاً للتخلي عنه. ومع ذلك، لن أرميه. لأني أرغب في أن أضع فيه للمرة الأخيرة أولئك الذين ناشدتهم تقديم العون لي، لكن بطريقة سيئة، لحد أنهم لم يفهموا أيّ شيء، لكي يموتوا معي سوية. راحة.

بحمله شالاً كبيراً فوق قميصه الطويل، ينزل حتى كاحليه، وفوق رأسه طاقيّة كانت مول قد أصلحتها له، كان ماكمان يغرف الهواء من كل مكان، من الصباح حتى المساء. وكان من الضروري أيضاً الذهاب عدة مرات للبحث عنه، في الظلمة، بواسطة فوانيس، لأجل إعادته إلى زنزانته، لأنه ظلّ أصمَّ حيال نداء الجرس وصرخات وتهديدات لوميل، أولاً، ومن ثمّ غيره من الحراس. حينئذٍ، كان الحراس، بثيابهم البيضاء وفوانيسهم يبتعدون عن أجنحة البنايات ساحقين الشجيرات والسرخسيّات والأجَمات وهم ينادون على الهارب ويهدّدونه بأوخم العواقب إذا لم يسلّم نفسه على الفور. لكنهم كانوا ينتهون بفهم أنه كان متخفّياً، كما كان يتخفّى، دائماً في المكان نفسه، لم يكن من الضروري القيام بكل ذلك الجهد. من ذلك الوقت فصاعداً كان لوميل يعود وحده، بصمت، كالعادة حينما يعرف ما الذي عليه القيام به، الذهاب مباشرة إلى الأجَمة التي كان يتخفّى فيها ماكمان، في كل مرة يكون فيها ذلك ضرورياً. يا إلهي. وفي الغالب كانا يظلّان هناك سوية لحظة طويلة، بين الأدغال، قبل أن يدخلا، يسند أحدهما الآخر، ذلك لأن العُشّ كان صغيراً، ولا يقولان أيّ شيء، ربّما لأنهما يصغيان لضوضاء الليل، والهَدَاهِد، والرياح بين الأوراق، والبحر حينما يكون ضخماً لكي يُسمع صوته، ومن ثم حالات الضوضاء الأخرى في الليل والتي لا نعرف ما أشكالها. كما كان يحدث أيضاً أن يذهب ماكمان وحده،، حينما يكون

متعباً لعدم بقائه وحيداً، ثم يدخل إلى غرفته ولا يلتحق به لوميل إلّا في وقت متأخر. لقد كانت حديقة حقيقية من الطراز الإنجليزي، مع أنها بعيدة عن إنكلترا، لكنها مندفعة حد العبث من الإهمال، وكل شيء كان يندفع معها ضمن ثراء شره، وتشرع الأشجار بشن الحرب بعضها ضد بعض، والشجيرات أيضاً، وكذلك الزهور الوحشية والأعشاب الضارة، ضمن حاجة مُنفلتة للأرض والنور. في مساء ما، عندما عاد ماكمان حاملاً بيده غصناً اقتلعه من دغل ميتٍ، كان يرغب بصنع عصاً منه، لكي تسند خطواته، انتزعه لوميل من يده وضربه به لوقت طويل، كَلّا، إنّه لا يمشي، نادى لوميل على حارسٍ اسمُه بات Pat، شخصٌ فَظٌّ حقاً بالرغم من هزاله الواضح وقال له: بات، لِتَرَ هذا. حينها اقتلعَ بات الغصن من يد ماكمان، الذي ضمّه بكلتا يديه، بعد أن رأى ما آلت إليه الأمور، وشرع بضربه إلى أن قال له لوميل توقّف، وحتى بعد ذلك. حدث كلّ هذا من دون أيّ تفسير. وفي وقت متأخر، كان على ماكمان، الذي جلب معه أثناء تجواله ياقوتيّةً [نوع من الزهور – المترجم] اقتلعها مع البصل والجذور، على أمل الاحتفاظ بها وقتاً أطول بعض الشيء من وقت قطافها، مُرغماً على الظهور أمام لوميل، الذي انتزع من يده تلك الوردة الجميلة وهدّده بتسليمه ثانية لجاك Jacques، فجاك كان شخصاً آخر. في المقابل، وبعد أن حطّم تلك الأجمة من نوع الأكاليل نصفياً، لكي يختفي فيها، لم يشعر بأي تأنيب ضمير. لا ينبغي الاندهاش من ذلك، لم تكن هناك أدلّة ضده. وإذا كانوا قد سألوه عن هذا الموضوع، لا شك أنه كان سيقول الحقيقة، مُعتقداً بأنه لم يرتكب أيّ شيء مُسيء. لكن لنفترض بأنه لم يفعل أيّ شيء سوى الإنكار والكذب، وبالنتيجة لن يكون هناك من فائدة لحشره تحت ضغط الأسئلة. من ناحية أخرى، لم تجر مُساءلة أيّ شخص في سانت جون دو ديه، لكن إمّا أن تتمّ معاقبته بشدّة أو أن يغضّوا عنه الطّرف وفق منطق مخصوص. لأنه، إذا فكرنا في الأمر ملياً، بأي حق يحكم على المرء الذي يحمل وردة في يده بأنه قطفها؟ أو هل يشكل إمساك أحدهم وردة أمام الجميع دليلاً كافياً على جنحة ما، تُعادل الاختفاء؟

في مثل هذه الحالة، ألم يكن من الأجدى إخبار الأفراد المشكوك فيهم بصراحة وإخلاص، وبعد ذلك، ملاحقتهم بدلاً من الانطلاق من الشعور بالذنب جرّاء الخطأ المُرتكَب؟ يبدو أن السؤال قد طرح بطريقة جيدة هكذا، جيدة جداً. فبفضل الشال المُخطّط بالأزرق والأبيض، الذي يشبه صدرية الجزّارين، لن يكون هناك أيّ التباس بين آل ماكمان وآل لوميل من جهة، وآل جاك وبات من الجهة الأخرى. العصافير. عديدة ومتنوعة في الأوراق الكثيفة حيث كانت تعيش بلا خوف طيلة السنة، ولا تخشى أيّ شيء آخر سوى مثيلاتها، وتلك التي كانت في الصيف أو الشتاء تُحلّق نحو سماوات أخرى كانت تعود في الصيف والشتاء اللاحق، إذا ما تكلّمنا بمثل هذه السوقيّة. امتلاء الهواء بأصواتها، ولا سيّما عند الفجر والغسق، وتلك التي كانت تمضي صباحاً مع أسرابها، كالغربان والزرازير، نحو أراضٍ محروثة بعيدة، تعود في المساء مُغتبطةً تماماً إلى معبدها، حيث ينتظرُها حُرّاسها. وحين تهبّ العاصفة تحطّ نوارسُ عديدة هنا، هاربة نحو الداخل. إنها تحوّم وقتاً طويلاً في الهواء الخبيث وهي تصرخ من شدّة الغضب، ثم تهبط فوق العشب أو سطوح البنايات، لأنها لا تأمن الأشجار. بيد أن كلّ ذلك يبقى إلى جانب السؤال مثل العديد من الأشياء. كلّها ذرائع، سابو والعصافير، مول، الفلاحون، وأولئك الذين يسكنون المدن، الباحثون عن أنفسهم والهاربون منها، وشكوكي التي لا تهمّني، موقفي، ممتلكاتي، ذريعةٌ كي لا أعود إلى الواقع، المهجور، رافعاً إبهامي، قائلاً له أيها الإبهام ومنطلقاً بلا حجج أخرى، شريطة أن يتألم المرء بغية رؤية بعض الرفاق. نعم، كان في إمكاننا قول ذلك، لكن يصعب ترك كلّ شيء. العينان مُنهكتان من العدوانيات التي يتوقع المرء أن تكون نذلة إزاء كلّ ما كانت تصلّي لوقت طويل لأجله، في الخلف، أيْ الصلاة الحقيقية، تلك التي لا تتوسّل أيّ شيء. حينها يشرع الهواء في تلبية وإنعاش كلّ الآمال الميتة ويولّد لغطاً في الكون الأصمّ، يوبّخكم برِقّة على يأسكم المُتأخّر. وكمتاع الوداع لا يمكن للمرء فعل ما هو أفضل من ذلك. لنبحثْ عن وصلة أخرى. الهواء نقيٌّ.

سأحاول بالرغم من ذلك المواصلة. الهواء النقي للهضبةِ. كانت هضبة في الحقيقة، ولم تكذب مول، أو بالأحرى تلّة بمنحدرات رهيفة. كان ميدان سانت جون دو ديه قد احتل القبّة كلها والرياح فيما كانت تعصف بلا توقف تقريباً، ومن ثمّ طوت وجعلت الأشجار تنوح مهما كانت صلابتها، اقتلعت الأغصان، هزت الأدغال، وهدّت السرخسيات، وأحنت العشب، وحملت الأوراق والزهور برمّتها؛ آمل ألّا أكون نسيتُ شيئاً. طيِّب. كان هناك جدارٌ يحيط بذلك الميدان، بيد أنه لا يعمي بصر أحد سوى ذلك الذي يجد نفسه قريباً منه. كيف؟ من الواضح أنّ هذا قد جرى بفضل شخير الأرضية، التي تُسمَّى قمّتها بالصخرة Roc بسبب الصرخة التي كانت موجودةً هناك، التي تهيمن على الوادي، البحر، الجبل، ومداخن المدينة وبنايات المؤسَّسة، الضخمة والواسعة بالرغم من بعدها، أو أنّها كانت تتولّد في كلّ دقيقة، وتتلاشى من ثمَّ على هيئة بقعٍ صغيرة والتي لم تكنْ شيئاً آخر غير الحراس، بذهابهم وإيابهم، الممزوجة، كنت على وشك القول، بالمساجين، فمن مسافة بعيدة لم يكن لعباءته خطوط ولا هي تمتّ بصلة للعباءة، بحيث يمكننا القول، بعد أن تُجلى الدهشة الأولى، بأنه كان هناك رجالٌ ونساء، أيْ أناسٌ بلا تدقيق إضافيّ. ثَمَّة نهرٌ يفصل ما بين الجانبين، من بعيد إلى أبعد - لكن الأمر يتعلّق بالطبيعة بالتأكيد. من ناحية أخرى، من أين ينبع، ذلك ما أتساءل عنه. ربما من تحت الأرض. وباختصار جنّة عدن صغيرة، بالنسبة لمنْ يثمّن التعري. كان ماكمان يسأل نفسه من حين إلى آخر ما الذي يُنقص سعادته. والحق أنّ في الهواء المُمتلئ عبر كل الأزمنة من الصباح حتى هبوط الليل، نباتات نامية بدتْ له رقيقةَ الأغصان تغلّفه، حينما يرغب في التخفّي، مأوى وغذاء مجانيَّين مضمونين، مشاهدُ خلّابة من جميع الجوانب من فوق العدوّ الأبدي، أقلّ ما يمكن من التوبيخ والفظاظات، غناء العصافير، انتفاء أيّ اتّصال إنساني إلّا بلوميل، الذي لا يريد سوى رؤيته أقلّ ما يمكن، كنوز الذاكرة والتأمُّل الخاضعة له بحكم مشيه الذي لا يتوقّف والريح، مول الميتة، ما الذي بقي له ليتمنّاه هنا؟ ينبغي أن

أكون سعيداً، قال في نفسه، لكنه أقلّ فرحاً عما كنتُ أعتقده. ثم ذهبَ أكثر فأكثر في اتجاه السور، لكن من دون الاقتراب منه تماماً، لأن السور محروس، كما بحث عن مخرج في اتجاه اليأس لأنه لم يبق له أيّ شيء ولا أيّ أحد، نحو الأرض نادرة الخبز، في اتجاه الملاجئ النادرة، نحو المرعوبين، نحو الفرح الأسوَد بالعبور وحيداً فارغاً، عجزه عن القيام بأيّ شيء، وعدم رغبته، في اتجاه المعرفة، الجمال، والعشق. وهذا ما عبّرَ عنه قائلاً في نفسه، مللت، لأنه كان بسيطاً، ولم يلتفت ولو للحظة نحو ما ملَّ منه قبل أن يفقده، والذي سيمل منه من جديد، إذا عثر عليه من جديد، ولم يُفكر في أن الشيء المُفرط غالباً ما يجعل المرء يشعر به، وله تسميات شرف متنوعة، والذي قد لا يكون في الواقع سوى شيءٍ واحد. غير أنَّ شخصاً آخر التفتَ إليه نيابة عنه ووضع ببرودة علامة المساواة في المكان الذي كان ينبغي وضعها فيه، وكأن هذا سوف يغيّر شيئاً. بحيث إنه اكتفى بذلك اللهاث البسيط الغبي، مللت، مللت، وفي الوقت ذاته واصل السير ببطء تحت غطاء النباتات وجانب السور وهو يبحث عن شرخ ما ينزلق فيه، بفضل الليل، أو بعض المواقع الوعرة التي تسمح له بالتسلق. لكن السور كان ضخماً وأملسَ، ومغطّى على طوله بفروع خضراء. غير أننا نرى بأنّ السياج كان من السّعة بما يكفي لمرور عجلتين كبيرتين في آن معاً ويحيط به من الجانبين منزلان صغيران ساحران تُغطيهما أغصان الكروم العذراء وتسكنهما الواحد كالآخر عائلتان مكوّنتان من أفراد عديدين، إذا حكمنا على ذلك من خلال سُحب الأبرياء الصغار وهم يلعبون على مقربة منه، ويلاحق أحدهم الآخر وهم يصرخون صرخات فرح حادّة، صرخات غضب وألم. لكن المكان كان يطوق ماكمان من كل ناحية، وكأنه سقط في عدة فخاخ، مع ما لا نهاية له من الأجساد المُتنازعة بما فيها الأطفال إذا شئنا، والبيوت، وذلك السياج، ومن ثم سالت اللحظات وكأنها تنضحُ تحت ثقل الأشياء، ضمن رطوبة غامضة مصنوعة من العواطف والسيول، المتراصّة بعضُها إزاء بعضِها الآخر، كما تغيّرت الأشياء الغاطسة وماتت الواحدة تلو

الأخرى وفقاً لعزلتها الخاصة. خلف السياج، وفوق الطريق، تمرُّ أشكالٌ لم يكن بمقدور ماكمان تشخيصها بسبب الحواجز، وأيضاً بسبب كلّ ما يضطرب ويستشيط فوق ظهره، وعلى جانبيه، وبسبب الصراخ، السماء، والأرض أرغمتْه على السقوط وسقوط كلّ حياته العمياء. خرج حارسٌ من أحد البيوت، بعد أن تمَّ تنبيهه ربما عن طريق الهاتف، كان رداؤه أبيضَ، ويحمل في يده شيئاً أسودَ طويلاً، مفتاح. اصطفَّ الأطفال على جانبي الرواق. فجأة ظهرت نساء. كلّ شيء ثبت في مكانه وسكتَ. تباعد المصراعان الضخمان عن بعضهما، مانعان الرجلَ الذي تراجع سلفاً، ثم قام بنصف دورة وبعجالة بلغ عتبته. بدا الطريق أبيضَ من الغبار، تحيطه كتلٌ مُعتمة، تحجب السماء بالكاد الجزء الضيق والرمادي منها. تخلص ماكمان من الشجرة التي كانت تخفيه وارتقى المُنحنى، ليس وهو يركض، لأنه لم يكن يمشي إلّا بالكاد، لكن بأسرع ما كان قادراً عليه، انحنى وغطس، بارتكازه على الجذوع والأغصان التي عرضت نفسها عليه لكي يتقدم. شيئاً فشيئاً انعقد ثانية الضباب، والشعور بالغياب، وشرع الأسرى بالوشوشة كلّ واحد منهم في نفسه، وجرى الأمر كأنه لم يحدث أيّ شيء، ولن يحدث أبداً.

كان هناك آخرون غير ماكمان يتسكعون من الصباح إلى المساء، وهم يطوون القبعة الثقيلة، والفجوات النادرة بين الأشجار التي كانت تحجب السماء بذرى السرخسيات حيث بدوا كأنّهم سبّاحون. لم يقترب بعضهم من الآخر إلّا نادراً، قلّة هم من فضلوا هذه الطريقة، كما كان هناك الحديقة الممتدة. وإذا قرّبت الصدفة بين اثنين أو أكثر منهم، أيْ بقرب كبير سرعان ما كانوا ينتبهون لذلك؛ حينها يتعجَّلون التراجع على الطريق، أو يذهبون حدَّ تغيير الاتجاه، كأنهم كانوا يخجلون من إظهارِ أنفسهم لأمثالهم. لكن في بعض الأحيان كان بعضُهم يلامس بعضَهم الآخر من دون الشعور بذلك، والرأس غاطسٌ في القبّعة الكبيرة.

كان ماكمان يحتفظ ويتطلّع من حين إلى آخر إلى الصورة التي أعطتها إيّاه مول، إنها بالأحرى أو قد تكون صورة تذكاريّة. كانت واقفة إلى جانب كرسي وتضم بكلتا يديها جدائلها الطويلة. خلفها، كانت هناك بقايا آثار نوع من العريش حيث تتسلق بعض الورود، زهور بلا شك، لأنها كانت تحب التسلق. حينما أعطت هذه الذكرى عنها لماكمان قالت له، كنتُ في الرابعة عشرة من عمري، وما زلت أتذكر جيداً اليوم، في يوم صيف، كان يوم عيد ميلادي، بعد ذلك أخذوني للتفرج على مسرح الدّمى. تذكر ماكمان تلك الكلمات. ما كان يفضله في تلك الصورة هو الكرسي، الذي يبدو مقعده مصنوعاً من التبن. كانت مول تعض على شفتيها بقوة، لكي تخفي أسنانها الطويلة والقبيحة. الزهور أيضاً، كان لا بد أن تكون جميلة، كما كان عليها تعطير الهواء. مزّق ماكمان في الأخير تلك الصورة وبعثر قطعها في الهواء، في يوم مكتظٍّ بالرياح. حينها أخذهما اليأس، مع أنهما كانا خاضعين للظروف نفسها، وقد يقول المرء وهما يتزاحمان.

متى تمطر، متى ينزل الثّلج.

في الواقع. في يوم كان لوميل قد رأى، بعد مروره في القاعة الكبير قبل مباشرة عمله، كما تقتضي التعليمات، ملاحظة تخصّه معلقة على اللوحة. مجموعة لوميل، جولة في الجزر، إذا كان الطقس يسمح بذلك، برفقة السيدة بيدال Pédale، ساعة الانطلاق الواحدة. تطلّع نحوه زملاؤه مُتذمّرين دافعين أحدهم الآخر بكوعه. لكنهم لم يجرؤوا على قول أيّ شيء. لكنّ امرأة ما قالت، سوف يصحبونك بزورق، وذلك ما هيّج عاصفةً من الضحك القوي، بحيث شرع الأزواج بالتشكل عفوياً، وتعانقوا، تمايلوا، وكل واحد يضحك فوق كتف مرافقه. لم يكن لوميل محبوباً، وهذا واضح. لكن هل كان يرغب في ذلك؟ كلّ شيء يكمن

في هذه النقطة. وقعَ على الملاحظة وولّى. كانت الشمس بالكاد قد أشرقت، بعناء، وأطلقت إشارة أن اليوم سيكون جميلاً من شهر أيار أو أبريل، بالأحرى أبريل، ولا شك أنها نهاية أسبوع عيد الفصح، مروراً بالمسيح إلى الجحيم. وربما كانت السيدة بيدال قد نظمت على شرف هذه المناسبة جولة بين الجزر لفريق لوميل، والتي ستكلفها غالياً، لكنها امرأة غنية، كما تعشق فعل الخير وجلب شيء من الفرح للأقل حظاً منها، وهي تتمتع بالشعور الطيب وضحكت لها الحياة بطريقة أفضل، لكي أستخدم تعبيرها نفسه، ومبادلتها الابتسامة، بتضخيمها، وجعلها كالمرآة المسطَّحة أو المُقعَّرة، لا أعرف. حدَّقَ لوميل بأرقٍ في الشمس، مُستغلاً المناخ الأرضي الذي يُغربل تألُّق الأشعة. آنذاك كان في غرفته، بالطابق الرابع أو الخامس، الذي كان في إمكانه رميُ نفسه بأمان مرّاتٍ عديدة من نافذته لو كان يتمتع بطبع أكثر صرامة. كانت سجادة الفضة هناك، بنهايتها الحادّة، مرتعشةً عبر البحر الهادئ، بجماله المطروق. كانت الغرفة صغيرة وفارغة تماماً، لأن لوميل كان ينام على الأرضية العارية، ويستريح قليلاً، تارة في هذا المكان، وتارة أخرى في غيره. نعم، المقصود لوميل وغرفته. لم تكن السيدة بيدال وحدها من يهتم بمريدي سانت جون دو ديه، وغيره من قديسي الله، مثلما كنا نَطلقُ هذه التسمية المحلية، ولم تكن الوحيدة التي تهتم بنزهاتهم كل مرة في العامين بالحد المتوسط، على الأرض أو في البحر، وفي مواقع مشهورة بجمالها، وسعتها وتسلياتها في المكان ذاته ومشاهد الشعوذات والمَقْمَقَات الصوتية في ضوء القمر وعلى الرصيف، لكنها كانت ثانوية بالنسبة للسيدات يشاركنها الرأي نفسه، وثريّات مثلها فيما يتعلق بالأوقات الشاغرة والمصادر. بيد أن الأمر يتعلق بالسيدة بيدال. في الواقع. ذهبَ السيد لوميل إلى المطابخ حاملاً معه سطليه المعلَّبين أحدهما داخل الآخر. سادت فوضى عامة. ستة صحون حساء خروج! دمدم. ماذا؟ قال الطبّاخ. ستة حساءات خروج، صاحَ لوميل، قاذفاً بسطليه في اتجاه الفرن، لكن من دون هدّ عروتيهما،

لأنه ظلَّ مُحتفظاً بدمه البارد حتى لا يكون مرغماً على التقاطهما ثانية. ساد صمتٌ كبير. حسناً، حسناً، قال الطاهي. الفارق بين حساء خارج وحساء عادي أو حساء بيتي يكمن في أن هذا الأخير بمثابة ماءٍ صافٍ، فيما يحتوي الآخر على قطعة صغيرة من الشحم، وذلك لأجل تدريب قوى المتنزّهين حتى عودتهم. بعد امتلاء سطله، انسحب لوميل إلى مكان جانبي، ثم رفع ردنيه حتى كوعيه، ومدّ يده في عمق السطل لكي يُخرج قطع الشحم الستّ، قطعته وقطع الآخرين الخمس، وأكلها حدّ الجلد، وقذف بهذا الأخير، بعد أن مصّه، في وعاء الحساء. شيء غريب، مع ذلك ليس إلى هذا الحد، لقد قدَّموا له ما إن طلب ستّة صحون من الحساء الخارج أو الخصوصيّ، من دون تقرير كتابيّ. كانت غرف الخمسة الآخرين متباعدة عن بعضها وتحتل مواقع مُخادعة، بحيث لم يكن في إمكان لوميل معرفة كيفية زيارتها بالتتابع، مع أقلّ ما يمكن من التعب والإثارة. في الغرفة الأولى، ثَمَّ شابٌّ، ومات شابٌّ، كان يجلس على كُرسيٍّ هزّازٍ قديم آخر، كما كان ذراعا قميصه مرفوعين ويداه على جانبيه، كأنه ينام ولم تكن عيناه الواسعتان مفتوحتين. لم يكن يخرج أبداً، إلّا إذا كان مرغماً على ذلك بسبب أمرٍ يأتي من فوق، حينئذ لا بدّ من مرافقته لجعله يتقدَّم. كان وعاؤه فارغاً، لكنه تناول حساءه المتخثّر ليوم أمس. سيكون الأمر أكثر إثارة لو حدث العكس. غير أن لوميل كان معتاداً على ذلك، إلى حدّ لم يعد فيه يتساءل على ماذا يتغذّى هذا الشخص. أفرغ محتوى الجفنة في سطله، وفي سطله الممتلئ عبّأ حساءً جديداً. ثم غادر وهو يحمل بكلتا يديه السطل، فيما كان سطلٌ واحدٌ تحملُه اليدان كافياً حتى الوقت الحاضر. أغلقَ بالقفل البابَ خلفَه، بنوعٍ من الحذر المُبالغ فيه، بسبب الخروج. كانت الغرفة الثانية، التي تبعد عن الأولى أربعمائة أو خمسمائة خطوة، يقطنها كائن لا شيء يميزه حقّاً سوى ارتفاعه، تصلّبه ومحيّاه الذي كان يبدو كأنّه يبحث عن شيءٍ ما، مع تساؤله ما هو ذلك الشيء. لم تكن هناك أيّة علامة تشير إلى العمر الذي يمكن أن يكون عمره واحتفظ به بمعجزة، أو أنه

تحجر مبكراً. كانوا يطلقون عليه اسم الإنجليزي Anglais، مع أنه أبعد ما يكون عن ذلك، أو ربما لأنه كان يعبّر عن نفسه بالإنجليزية من حين إلى آخر. دون خلع قميصه، كان مُلتفّاً بأغطيته كما لو كان في حمَّام غسل الملابس، وفوق قحفته الغليظة، ويضع قبعة باردة فوق رأسه، بيد واحدة، لأنه كان يحتاج إلى اليد الأخرى لمساعدته في التفتيش عن أيّ شيء يمكن الشك فيه. غير أن قدميه كانتا عاريتين، صباح الخير Good morning، صباح الخير، قال، بلهجة أجنبية قوية، ويلقي بنظرات تفتيش في كل الاتجاهات من حوله، أيُّ شغل مرعب منيوك هذا، كَلّا، نعم؟ fucking awful business this, non, yes. ربما كان خائفاً من افتضاح فكره. اندفاعات مباغتة سرعان ما أخمدها أبعدته بطريقة غير محسوسة عن مركز عمله للمراقبة القصوى وسط الغرف. ماذا! What، تساءل. لا شكّ أن الحساء الذي تمَّت زيادته قطرة بعد قطرة، قد مرَّ في وعائه. بقلق نظر إلى لوميل وهو يقوم بعمله، يُفرغُ ويملأُ. أحلم كل ليلة بذلك الرجل الدموي «كِن» ثانيةً، Dreamt all night of that bloody man Quin again، قال. كان ما يزال يحتفظ بعادته في الخروج من وقت إلى آخر. لكنه توقف بعد بضع خطوات، مُتمايلاً، استدار ورجعَ بسرعة إلى غرفته، كالمجنون في الظلمة.

في الغرفة الثالثة، كان هناك شخصٌ هزيلٌ يروح ويجيء بحيوية، قبعته مطوية تحت ذراعه، ويحمل بيده الأخرى مظلة. شعر جميل، أبيض، وحريري. كان يطرح بصوت خافت أسئلة على نفسه، يُفكر، ثم يرد عليها. ما إن انفتح الباب حتى عبره. في الحقيقة كان يمضي أيامه بحرث الحديقة من كل جوانبها. دون أن يضع سطله، جعله لوميل بضربة من كتفه يتمرّغ على الأرض. بعد أن أفاق من دهشته، ودون أن ينهض، ضمَّ قبعته ومظلته لصدره وشرع في البكاء. في الغرفة الرابعة، كان يسكن واحد ضخم مُلتح لا شكل له، كما كان شغله الوحيد، المُتقطع، حك

جلده. كان جالساً بطريقة مُنحرفة على وسادة بالقرب من النافذة، رأسه مُنحنٍ، عيناه مُغلقتان، فمه مفتوح، ساقاه متباعدتان، وركبتاه مرتفعتان، ويتكئ بيد على الأرضية، فيما كانت الثانية تروح وترجع فوق قميصه، كان يتنظر حساءه. كانت حفنته ممتلئة، وبعد أن توقف عن الحكّ مدّ يده في اتجاه لوميل، على أمل خائب يومياً في ألّا يتزحزح. كان ما يزال يحبّ الظل وسرّ السرخسيات، لكنه لم يذهب أبداً لرؤيتها. هناك إذاً الشاب، الإنجليزي، الهزيل والمُلتحي. لا أعرف ما إذا كانوا قد تغيروا، ما عدت أتذكر. أمّا بالنسبة إلى الآخرين، فليعذروني. في الغرفة الخامسة، كان ماكمان نائماً.

بضعة أسطر لكي أكون متأكّداً بأني أنا أيضاً موجود. لم يقدِّم أيُّ أحد. كم مضى من الوقت على زيارتي؟ لا أعرف. وقت طويل. وأنا. لا ريب أني كنت في طريقي إلى الوفاة، نقطة، رأس سطر. من أين هذا اليقين؟ حاول أن تفكر. لا أستطيع. عذاب ضخم. أنسلّ. وإذا ما انفجرت؟ يقترب السقف، يبتعد بإيقاع، كما كنت جنيناً. كذلك لا بد من الإشارة إلى ضوضاء عالية للمياه، ظاهرة mutatis mutandis تشبه ربما السّراب، في الصحراء. نافذة. لن أراها بعد، في وضعي الحالي بعجزي عن إدارة رأسي لسوء الحظ. من جديد نورٌ تحتُ أرضي، مضغوطٌ تماماً، تخترقه الأغصان، وينحفرُ عميقاً، في لغم بقعرٍ فارغ، أو يجب القول الهواء، ونور طامح. كلّ شيء جاهز. باستثنائي أنا. أولد في الموت، إذا ما تجرّأت على قول ذلك. هذا هو انطباعي. إدارة مُضحكة. القدمان خرجتا أوّلاً من الرحم الكبير للوجود. تقديم لائق كما أرجو. رأسي آخر ما يموت. لتسحب يديك. لا أقدر. المُمزقة تتمزق. إذا انتهت قصتي سوف أولَدُ ثانية. فارق واعد. انتهيتُ منيّ. لن أقول بعدُ أنا.

بكل عالمه الصغير، وبعد مضيّ ساعتين تقريباً من بذل الجهود

نجحَ تماماً، كان لوميل ينتظر على الرصيف قدوم السيدة بيدال. قام بكل شيء وحده، فبات Pat رفض مد يد العون له. كان ثَمَّة حبل مربوط به، من عرقوب الشاب الهزيل من جهة، الإنجليزي المُلتحي من الجهة الأخرى، كما كان لوميل يمسك بماكمان من ذراعه. كان في الحقيقة ماكمان، الغاضب لأنهم حبسوه طيلة النهار ولم يفهم أيّ شيء مما كانوا يريدون منه، لذا كانت مقاومته حيويّة بصورة أكبر. لقد رفض من دون شك الخروج من دون طاقيّته، وبطاقة شرسة جعلت لوميل، الذي أنهكته التحضيرات الكثيرة، يتمكّن من أن يقول له في النهاية بأنه يستطيع الاحتفاظ به شرط أن يتخفى تحت قبّعته. بيد أن ذلك لم يُهدّئ من اضطراب ماكمان وسوداويته، محاولاً سحب يده، مُكرراً: اتركني! اتركني! بعد أن رأوا الترتيبات والتحذيرات غير المفهومة، أُخذ بعضٌ من أولئك البؤساء المربوطين بعضهم على طريقة الزوجين، جعلهم ذلك عصبيِّين! فالشاب، الذي جعلته الشمس يتألم، اختطف مظلة الهزيل، وهو يردّد: pa'so!، pa'so!. لقد تلقى من السراب ضربات نزقه فوق يديه وفي مقدمة ذراعيه. يا خبيث! صرخَ. أنجدوني! كما ألقى المُلتحي ذراعيه من حول عنق الإنجليزي وتعلق به، بساقيه الواهيتين. أما الإنجليزي، المُترنح المُتفاخر بشدة في سقوطه، طالب بلا غضب أن يقدموا له التفسيرات. Who is this shite anyhow، قال: any of you poor buggers happen to know?. اضبطْ نفسك قليلاً، قال الرئيس حالماً من حين إلى آخر، أو نائبه، الذي كان هو أيضاً حاضراً. كانوا وحدهم فوق الرصيف العريض. هل كانت تخشى من تغيير المناخ؟ قال الرئيس. ثم أضاف، مستديراً نحو لمويل، أنا أطرح عليك سؤالاً. كانت السماء تخلو من الغيوم، والهواء ساكن. أين هو الشابُّ الجميل الذي يشبه بلحيته المسيح؟ لكن في مثل هذه الحالة، ألمْ يجدُر به إجراءُ مكالمةٍ هاتفية؟ قال الرئيس.

العربة ذات المقاعد. على الكرسي الأعلى كانت السيدة بيدال تجلس قرب الحوذي. وعلى المصاطب الأخرى، الموازية للسير، كان يجلس لوميل، ماكمان، الإنجليزي والمُلتحي. كان لماكمان هو أيضاً نوعٌ من اللحية. ثُمّ؟ على المصطبة الأخرى، المقابلة لهم، كان يجلس الهزيل، الشاب واثنان ضخمان بملابس بحّارة. في ممرّ الحاجز كان الأطفال يصفّقون. بغتةً ظهر منحدر، طويل ووعر، جعل الفريق يتجه في اتجاه البحر. كانت العجلات التي أمسكت بها المكابح قد انزلقت أكثر مما كانت تدور، والخيول، بعثرتها، شبّت عكس الدفعة. تكوّرت السيدة بيدال في مقعدها، جسدها مقذوفٌ إلى الوراء. كانت امرأة طويلة، ضخمة وبدينة. شويكات صغيرة بقلب أصفر انفجرت مندفعة من قبعتها القشية ذاتُ الحواف العريضة. وفي الوقت ذاته، من تحت وشاح صغير شفّاف مُرقّش بدوائر صغيرة تشبه الأقراص الطبية كان وجهها الأحمر السمين يبدو كأنه يُفرخ. كما ترك المسافرون بسكون كلي أنفسهم يميلون في اتجاه ميلان المصاطب، وتلاشوا كل واحد منهم في مقعده. ارجعوا إلى الوراء! صرخت السيدة بيدال. لم يتحرك أحد. ما الذي سيغيره ذلك، قال أحد البحارة: لا شيء، قال الآخر: هل ينبغي علينا إنزالها؟ سألت السيدة بيدال الحوذيّ. عند العودة سيكون ذلك ضرورياً، ردَّ الحوذي. في الأخير أرغم المنحدر السيدة بيدال على الالتفات نحو ضيوفها. اصمدوا أيها الأولاد، لكي تظهر بأنّها لم تكن فخورة بهم. بتزايد سرعتها تقدَّمت عربة المصاطب وهي تتأرجح. كان المُلتحي مطروحاً بين المصطبتين، على خشب الأرضية. هل أنت المسؤول؟ قالت السيدة بندال. انحنى واحدٌ من البحّارة نحو لموبل، وقال له، تسألك ما إذا كنت أنت المسؤول؟ السّلام، قال له لموبل. أطلق الإنجليزي صرخةً حيث ظنّت السيدة بيدال، التي كانت تترقّب أقلّ مرح، بأنه من المفيد إظهار فرحها. هذا هو! غنّوا! قالتْ مُتعجّبة. لتغتنموا هذا النهار الجميل! انسوا همومكم لبضع ساعات. وراحت تغرّد:

ها إنّه الموسم الضاحك
الشّهرُ العذبُ للأعشاش والزُّهور
تتألّق الشمس في الأفق
ولم تعدْ أبوابكم مُغلقة
لنحتفلْ بالربيع النّشوان
لنحتفلْ...

ثمّ صمتت، وقد فقدت شجاعتها. لكن ما بهم؟ قالت. كان الشاب، الذي أصبح أقل شباباً مقارنة بذي قبل، المطويّ نصفين، ورأسه مُغطّىً بحواف قبّعته، على وشك التقيّؤ. كانت ساقاه، وركبتاه الهزيلتان بإفراط، تصطكّان إحداهما بالأخرى. كان الهزيل الصغير، المرتعد، مع أنَّ الإنجليزي هو الذي كان عليه أن يرتعد، أخذ الكلمة ثانية. ساكن ومتأمّل ما بين الأصوات، شدّ من عزيمة هذه الأخيرة، بحركات مُنفعلة وسّعت دائرة المظلة. وأنت؟ شكراً... وأنت... لتروا... هذا حقيقي... إلى اليمين؟ ... لنجرّب... لنعُدْ... أين؟ إنها تمطر... لكن كَلّا... لنعُدْ... أين؟ ... إلى اليسار... لنجرب... هل تشعرون بالبحر، يا أطفالي، قالت السيدة بيدال. أنا أشعر به. قذف ماكمان بنفسه عبثاً نحو البحر. أخرج لوميل فأساً من تحت قبعته وانهال على جمجمته بالضربات، من الجانب المرضوض، للحيطة. نزهة سباحة، قال أحد البحارة. شيء جميل، قال الآخر. شمس لازورديّة. يا إرنست Ernest أعطِهم الرفوش، قالتْ السيدة بندال.

في زروق الإنقاذ. في المكان، كما كان ذلك بالنسبة إلى عربة المصاطب، كان هناك أناس بضعفين، بثلاثة، بأربعة أضعافٍ أكبر، وهم يتراصّون. أرضٌ ما ابتعدت، فيما اقتربتْ أخرى، جزر صغيرة وكبيرة. لا شيء يُسمع سوى صوت المجاديف، ضوضاء البحر الأزرق حيال

الزورق. وقعت السيدة بندال، التي كانت تجلس في الخلف، في الكآبة. أيّ جمال، دمدمت. وحدها، لم يفهمها أحد، طيّبةٌ، غاية في الطيبة. بعد أن نزعت قفّازيها تركت يدها المليئة بالياقوت الأزرق تتأرجح في المياه الصافية، أربعة مجاديف، من دون مقود، المجاديف هي التي تتحكّم. ما الذي يمكنني قوله عن مجاديفي؟ لا شيء. إنّها هنا، كلٌ واحدٍ منهن حسب مقدرته، كما يمكنه أنْ يكون في مكان آخر. كان لوميل ينظر نحو الجبال وهي ترتفع نحو الأجراس التي تحمل سهم المرفأ.

إنها بالأحرى كثبانٌ، تصعد بهدوء، مُزرقّة، بعيداً عن الوادي المُغبَّش. في مكان بالقرب من هنا، كان قد ولدَ، في دار جميلة، من والدين طيبين. في الأعلى، كانت هناك الزهور البنفسجية والنباتات الشائكة، ضمن ورود ذهبية دافئة، كما يُطلق عليه أيضاً اسم «الوَزَّال». كانت معاول كاسري الصخور تطلق ضجيجاً يشبه ضجيج الأجراس الصغيرة، من الصباح حتى المساء.

الجزيرة. لنبذل ثانيةً جهداً. كانت صغيرة، ومُلتَهمة من قبل خلجان البحر. كان بمقدور المرء العيشُ هناك، لو كانت الحياة شيئاً ممكناً، لكن لا أحد يسكنها. كان الماء العميق يصل إلى أصغر أجزائها الخفية، ما بين ثغرات صخرية. في يوم ما، لن يكون هناك سوى جزيرتين، مفصولتين عن بعضهما بهاوية، ضيقة في البداية، ثم تأخذ في التوسع بالقدر الذي تتعاقب معه العصور، جزيرتان، صخرتان، حشفتان. سيكون من الصعب الحديث ضمن هذه الظروف عن البشر. تعالَ، يا إرنست، قالت السيدة بيدال، سنبحث عن مكان نضع فيه سفرة النزهة. وأنت، يا موريس Maurice، أضافت، لتبقَ بالقرب من الزورق. كان الهزيل يطمح في الركض على طول وعرض الجزيرة، لكن الشابّ كان قد اضطجع تحت ظلّ صخرة، وهذا ما جعله يشبه، أو يتفاخر بالأحرى، بشبه سوردِلّو Sordello، الذي

كانت ملامحه كمُحيّا الأسد أثناء راحته، والتي تمسّك بها. المساكين، قالت السيدة بيدال، لتفكّوهم. موريس كان على أهبة تلبية ما طلبت. قال لوميل، اتركُهم. كان المُلتحي قد رفض مغادرة الزورق، وذلك ما أجبر الإنجليزي على البقاء هناك هو أيضاً. كذلك لم يكن ماكمان حراً، لأن لوميل كان يمسك به من نطاقه ويدفع به في اتجاهه بحركة عاطفيّة نوعاً ما. في الأخير أنت المسؤول، قالت السيدة بيدال. وابتعدت مع إرنست. فجأة التفتت وقالت، إنّكم تعرفون بأن هناك آثاراً.

كُهّان غاليُّون في الجزيرة؟ كانت عيناها تنتقلان من الواحد صوب الآخر. متى سيتم إطعامنا، قالت، هل علينا البحث عنهم، أم لا؟ ثم واصلت دربها وإرنست خلفها يحمل السلة بكلتا ذراعيه. وعندما اختفيا عن النظر أطلق لوميل ماكمان، واقترب من الخلف من موريس، الذي كان جالساً على إحدى الصخور، وعلى وشك ملء غليونه بالتبغ وقتله بضربة فأس، بفأس صغيرة بالأحرى. هذا يتقدم، هذا يتقدم. لم يتحرك لا الملتحي ولا الإنجليزي. أما الهزيل، فقام بحركة مثيرة للدهشة، كسر مظلته على الصخرة. حاول ماكمان ثانية تخليص نفسه، لكن ذلك كان عبثاً من جديد. صرخَ الإنجليزي، وهو ينحني نحو الأمام ويضرب فخذيه: Nice work, sir, nice work! عمل جيّد يا سيّدي، عمل جيّد! بعد وقت قصيرة، رجع إرنست للبحث عنهم. تقدم نحوه لوميل وقتله بدوره، بالطريقة ذاته التي قتل بها الآخر. ما عدا أنها كانت أطول. رَجُلان مقدامان وهادئان، مُسالمان، أخَوان جميلان حتى، غليظان كبقية المليارات. رأس ماكمان الضخم. لبسَ طاقيّته. مالت الشمس نحو الجبال. صوت السيدة بيدال، التي نادت، تمّ سماعه. كانت تبدو فرحة. تعالوا، تعالوا، جميعكم، صرخت، كل شيء جاهز. لكن عند ظهور البحارة المشتعلين، تلاشت، وهذا ما جعلها تتعثر. حطِّمْها Smash her! صرخ الإنجليزي. كانت قد رفعت حجابها الصغير، ماسكة بيدها شطيرةً

صغيرةً. لا بدّ أنّ شيئاً ما كُسر فيها عند سقوطها، ربما حوضها، فالعجائز غالباً يكسرن أحواضهن بسهولة، لأنها ما إن استعادت وعيها حتى صارت تنوح، كأنه ليس هناك غيرها على الأرض يستحقّ الشفقة. حين اختفت الشمس خلف الجبل، وأخذت أضواء فنارات المرفأ بالوميض، حينئذ أصعدَ لوميل في الزورق كُلّاً من ماكمان والاثنين الآخرَين، ثم صعد هو وابتعدوا عن الساحل، الستّة.

خريرُ مياهٍ متدفّقة.

كتلة الأجساد المائلة نحو الرمادي، كانت أجسادهم هم. ولم يبقَ منهم، في الليل، سوى كومة، صامتة، مرئية بالكاد، ربما يتسلّق بعضُهم بعضَهم الآخر، ورؤوسهم مختفية في قبعاتهم. إنهم بعيدون عن الخليج، لم يعد لوميل يُجذّف، المجاذيف يُجرّها الماء. الليلة منقّطةٌ بالعبث.

عبثيّة هي الأنوار، النجوم، الفنارات، العوامات، أضواء الأرض، وفي الجبل النارُ الضعيفة للوَزّال المشتعل. ماكمان، آخر ما فعلته، ممتلكاتي، لن أنساه، إنه هنا أيضاً، ربما يغفو. لوميل.

لوميل هو المسؤول، يرفع فأسه، التي لن ينشف الدم من فوقها، لكنها ليست لضرب أحد، لن تضرب أيّ شخص، لن تضرب أحداً، لن تلمس أبداً أيَّ شخص، لا معها ولا معه ولا مع ولا...

لا معها ولا مع المعول ولا مع العصا ولا مع عصاها ولا مع مقبضها ولا مع عصاها، لا في الفكر ولا في الحلم، أريد أن أقول إنها لنْ تلمس أيّ شيء أبداً.

لا بقلمه الرصاصي ولا بعصاه ولا

لا أنوار، أنوار أعني

أبداً هنا لن يلمس أبداً

نعم أبداً

هكذا، هكذا

لا شيء آخر

(1948)

مكتبة
t.me/t_pdf

مكتبة نوبل

ولد صامويل باركلي بيكيت في 13 أبريل 1906 بدبلن في أيرلندا. في عام 1923 التحق بيكيت بكلية ترينيتي بدبلن وتخصص في الآداب الفرنسية والإيطالية وحصل على الليسانس فيهما عام 1927. في عام 1928 توجه بيكيت إلى باريس وعمل أستاذاً للغة الإنجليزية بإحدى المدارس هناك، وفي هذه الأثناء تعرَّف إلى جيمس جويس (1882 - 1941). في عام 1935 كتب روايته الأولى (مورفي). في عام 1947 كتب بيكيت مسرحيته (في انتظار جودو). عام 1969 حصل بيكيت على جائزة نوبل للأدب، ولما سمعت زوجته بالخبر قالت: إنها كارثة، واختفى بيكيت تماماً ولم يذهب لحفل تسليم الجائزة. في 22 ديسمبر 1989 مات بيكيت بعد تعرضه لأزمة في جهازه التنفسي.

شأنه شأن دانتي، منتقلا من دائرة إلى دائرة توقا إلى جحيمه أو جنّته، هل ركّز صامويل بيكيت فاعليه في روايات ثلاثيّته (مولوي، مالون يموت، اللامُسمّى)، كُلًّا في دائرة مختلفة تماما، ربّما ليبلغهم بدورهم العدم الذي ينشدونه؟ من رواية إلى أخرى راحت الدّائرة تضيق أكثر فأكثر.

أضيق من مولوي، ها هو مالون إذًا جامدا في غرفة مغلقة، مُمَدّدا لا يكاد يتحرّك في سريره في انتظار موته الموشكة. خطواته الوحيدة يقوم بها عن طريق النّظرات التي تقع على الأغراض المحيطة به. إلّا أنه يملك قلم رصاص ودفترا: سيكتب. سيكتب وضعه كما سيخطر له، على نحو فاتن ومثير، لكنّه أيضا سينفي نفسه أخيرا في التّخوم حيث يسكن الخيال: سيبدع. "أن تعيش هو أن تبدع.(...) أن تعيش، أن تجعل غيرك يعيش، داخلي، داخله".

مالون يموت هو العمل الذي من خلال فكاهة عالية وعنف وحسّ شعريّ لامتناه، أمكن لصامويل بيكيت أن يعبّر بالشّكل الأوضح عن عمليّة الكتابة وعن تعقيد العلاقة بين الكاتب وبين مُنجَزه وكائناته..

* موريس بلانشو (فقرة من كتابه : الكتاب القادم الصّادر عن دار غاليمار سنة 1963)